كتابي

١٠ قروش



حلمي مراد

الجمال يفكر!.. (لوحة فوتوغرافية من روائع الفنان "جارو")

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

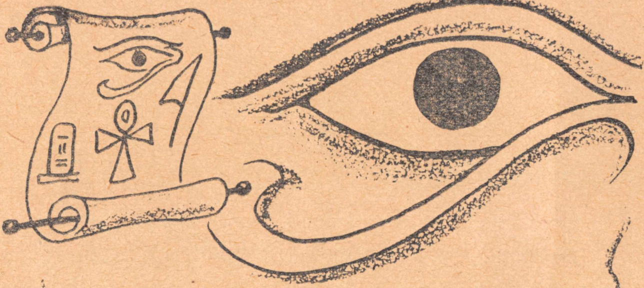
الكتاب الثمانون (السنة السابعة) ـ نوفمبر ١٩٥٨

الاشتراكات ومجموعة الاعدادالسابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب



صوت من العالم الآخر

قصة مصرية بقلم:

نجيب محفوظ



— ١ —

يا الهى ! ماذا يعوز هذا القبر من طيبات الحياة الفانية ؟ ! انه قطعة من صميم الحياة ، حافلة بما لذ وطاب . لقد حليت جدرانه بصـــور الجوارى والخدم ، وفرش بأفخـــر الاثاث وأجمل الرياش .. وبه ما أشــاء من أدوات الزينة والعطور والحلى ، وفيه مخزن مفعم بالحبوب والبقول والفـــاكهة ، وهاهى ذى مكتبتى حملت اليه بمجلداتها الحكمية ، ومايحتاجه الكاتب من الاوراق والاقلام .. هى الدنيا كما عهدتها ، ولكن هل ثمة طعم للدنيا فى حواسى الآن ؟ ! أبى حاجة الى متعـــة من متعها ؟ ! جهد ضائع ذلك الذى بذله الذين هيأوا هـــذه المقبرة . بيد أنى لا أستطيع أن أنكر امرا غريبا هو انه مافتئت نفسى تنازعنى الى القلم .. **يا عجبا ! ما لهذه الاوراق تنادينى بسحرها المحبوب ؟ ! ألا يزال بى موضـــع لم يمح منه الموت منازع الضعف والهوى ؟ أقضى علينا — معشر الكتـــاب — ان تشقى بضاعتنا فى الحياتين ؟ ! على أية حال لا يزال أمامى فترة انتظار أبدأ بعدها رحلتى الابدية . فلاشـــغل هـــذا الفراغ بالقلم ، فلطالما دان القلم الفراغ بالجميل !**

رباه ! ألا زلت أذكر ذاك اليـــوم الذى فصـــل بين الحياة والموت من عمرى ؟ ! بلى .. فى ذلك اليوم غادرت قصر الامـــير قبل الغروب ، بعد عمل شاق ، تعنانى فيه الجهد ، حتى قال لى الامير : « توتى .. كف عن العمل ، ولاتشق على نفسك ! » . وكانت الشمس قد مالت نحو الافق الغربى فى ســـياحتها الابدية الى عالم الظلام ، ولآلىء من أشـــعتها المودعة تنتفض انتفاضة الاحتضار على صفحة النيل المعبود . فأخـــذت فى طريقى المعهود متسمتا شجرة الجميز ، فى طـــرف القـــرية الجنوبى ، حيث يقوم بيتى الجميل .

يا آمون المعبود . ما هذا الالم فى العظام والمفاصل ؟ ليس ما بى أثر من جهد العمل ، فلطالما واصلت العمل بلا انقطاع . ولطالما ثابرت وصبرت فغلبت الاعياء بالقوة والعزم . أما هذا الالم المضنى ، أما هذه الرعشة المزلزلة ، فطارىء جديد ، امتلأت منه رعبا . أيكون ذاك الخبيث الذى لا ينزل بجسم حتى يورده التهلكة ؟

وأخذت فى الطريق قلقا متأوها . وعند عتبة البيت طالعنى وجه زوجى ، رفيقة شبابى وأم أبنائى . فهتفت بى : « توتى أيها المسكين . مالك تنتفض ؟ ما لعينيك مظلمتين .. ؟ ! » فقلت لها محزونا مكتئبا : « يا أختاه .. وقع المحظور .. وحل الخبيث بجسم زوجك . هيئى الفراش ودثرينى . ونادى الحكيم والابناء والاحباب . قولى لهم ان توتى على فراشه يضرع الى ربه ، فاضرعوا معه ، واسألوا له الشفاء ! » **وحملتنى التى تهوانى على صدرها ، وجاء الحكيم فجرعنى الدواء وأشار بأصبعه الى السماء وقال لى : « توتى .. أيها الكاتب الكبير ! يا خادم الامير الجليل ! أنت فى حاجة لرحمة الرب ، فادعه من أعماق قلبك ! »** .. ورقدت لا حول لى ولا قوة ، يا آمون المعبود جلت حكمتك ! ألم أصحب سيدى الامير الى الشمال فى جيوش فرعون ؟ ألم أشهد القتال فى صحارى (ذاهى) ؟ ألم أحضر (قادش) مع الغزاة البواسل ؟ بلى أيها الرب .. ونجوت من الرماة والعجلات والمعارك . فكيف يتهددنى الموت فى قريتى المحبوبة الآمنة ؟!

وغرقت فى أبخرة الحمى ، واشتد الدوار برأسى ، وسال لسانى بالهذيان ، وشعرت بيد الموت ترتاد قلبى . ما أقساك أيها الموت ! أراك تتقدم الى هدفك بقدمين ثابتتين وقلب صخرى ، لا تتعب ولا تسأم ولا ترحم ، لا تهزك الدموع ، ولا تستعطفك الآمال . تدوس حبات القلوب ، وتتخطى الامانى والاحلام . ثم لا تبدل سنتك ولو كان الفريسة فى ربيع العمر

الزاهر .. « توتى » فى السادسة والعشرين ، ذو بنين وبنات، ألا تسمع ؟ ماذا يضيرك لو تركت أنفاسى تتردد فى صدرى ؟ دعنى ريثما أشبع من هذه الحياة الجميلة المحبوبة . انها لم تسؤنى قط ولم أزهد فيها أبدا . أحببتها من اعمـاق الفؤاد ولا أزال على العهد . كانت الصحة طيبــة والمـال موفورا والآمال كبارا . ألم تحط بكل أولئك خبرا ؟ ومـن حـولى قلوب محبة ونفوس وآلهة .. أفلا تنظر الى الاعين الدامعة ؟ كأنى لم أعش ساعة واحدة فى هذه الحياة الجميلة المحبوبة ! ماذا رأيت من مشاهدها ؟ وماذا ذقت من فنونها ؟

ودارت بخلدى أشياء اخرى لا حصر لها ولا حـد ، ما بين مفاتن الماضى وسحر الحاضر وأمانى المسـتقبل . وجرت أمام حـواسى الورود والحقـول ، والميـاه والسحاب ، والمـآكل والمشـارب ، والالحـان والافكار ، والحب والابنـاء ، وقصر الامير ، وحفـلات فرعون ، والرتب والنياشين ، والالقـاب والفخـر والجاه . **وتسـاءلت : « أيمضى كل هــذا الى الفناء ؟ » وانقبض صــدرى أيما انقباض .. وامتلأت حزنا وكمدا وهتفت كل جارحة لى « لا أريد أن أموت ! »**

وتتابعت جحافل الليل ، فغلب النوم الصـغار . ولبثت زوجى عند رأسى وأمى عند قدمى ، وانتصف الليل ونحـن على حالنا . ثم استدار وأوغل فى الرحيل ، ثم بهتت ذوائبـه بزرقة الفجر . هنالك داخلنى شعور غريب بالرهبـة وتولانى احساس بالخوف . وأطبق السكون وأنذر بشىء خطير . ثم شعرت بيد أمى تدلك قدمى ، وهى تقول بصـوت متهدج : « بنى ! .. بنى ! » وهتفت زوجى المحبوبة « توتى ! .. ماذا تجد ؟ » . ولكنى لم أستطع جوابا . لا شك أن أمرا استثار جزعهما . ترى ماذا يكون ؟ هل لاح فى وجهى النـذير ؟ وتحولت عيناى على غير ارادة منى نحو مدخل الحجرة . كان الباب مغلقا بيد أن الرسول دخل ، دخل دون حاجة الى فتح

الباب . فعرفته دون سابق معرفة فهو رسول الفناء دون سواه . واقترب منى فى خطى غير مسموعة . كان مهيبا صامتا مبتسما ذا جمال لا يقاوم سحره فلم تتحول عنه عيناى، ولم أعد أرى من شيء سواه . وأردت أن أضرع اليه ولكن لم يطاوعنى اللسان . وكأنى به قد ادرك نيتى الخفية . فازدادت ابتسامته اتساعا . فآنست منه رفقا . ولم أعد أبالى شيئا . انجابت عنى وساوس الليل وأحزانه وحسراته . وغفلت عن دموع من حولى . ووجدت نفسى فى حال من الاستهانة والطمأنينة لم أعهدها من قبل . سلمت فى محبة لا نهائية وتركت جسمى فى المعركة وحيدا ! **رأيت – دون مبالاة البتة – دمى يقاوم فى عروقى ، وقلبى يدق ما وسعه الجهد، وعضلاتى تنقبض وتنبسط وأنفاسى تتردد من الاعماق ، وصدرى يعلو وينخفض . وشعرت بالايدى الحنون تسند ظهرى وتحيط بى** . رأيت ظاهرى وباطنى رؤية العين بغير مبالاة ولا اكتراث . وقد تحول الرسول عنى الى جسمى وأخذ فى مباشرة مهمته فى ثقة وطمأنينة والابتسامة لا تفارق شفتيه الجميلتين . وشاهدت نسمة الحياة المقدسة تذعن لمشيئته فتفارق القدمين والساقين والفخذين والبطن والصدر ، والدم من ورائها يجمد والاعضاء تهمد والقلب يسكت ، حتى غادرت الفم المفغور فى زفرة عميقة . سكن جسمى وصمت الى الابد ، وذهب الرسول كما جاء دون أن يشعر به أحد . وغمرنى شعور عجيب بأنى فارقت الحياة ، ولم أعد من أهل الدنيا . .

— ٢ —

غمرنى شعور عجيب بأني فارقت الحياة ، وانى لم أعد من أهل الدنيا ، ماذا حدث ؟ ! وما الذى تغير فى ؟ ! ما زلت فى الحجرة . والحجرة كما كانت فأمى وزوجى تحنوان على جسمى ، ولكن حدث شيء بلا ريب ، بل أخطر الاشياء جميعا .

لم أوخذ على غرة .. ولو كان بى قدرة على الكلام لاجبت زوجى – حين سألتنى : « توتى ماذا تجد ؟ » ، بأننى أموت . ولكنى فقدت قدرتى على الكلام وغيره فلم أوخذ على غرة كما قلت ، وشعرت بزورة الموت كما يشـــعر المضطجع بدبيب الكرى وتخدير النعاس . ثم رأيته جهـرة ! . **والذى لا شك فيه أن الموت ليس مؤلما ولا مفزعا كما يتوهم البشر ، ولو عـــرف حقيقته الحى لنشده كما ينشد نشوة الخمر المعتقة** . وفضلا عن هذا وذاك ، فلا يخامر المحتضر أسف ولا حزن بل الحياة تبدو شيئا تافها حقيرا اذا ما تخايل فى الافق ذاك النور الالهى البهيج . كنت مكبلا بالاغلال فانفكت أغلالى .. كنت حبيسا فى قمقم فانطلق سراحى .. كنت ثقيلا مشدودا الى الارض فخلصت من ثقلى وأرسلت وثاقى .. كنت محـدودا فصرت بغير حدود .. **كنت حواس قصيرة المدى فانقلبت حسا شاملا كله بصر وكله سمع وكله عقل ، فاستطعت أن أدرك فى وقت واحد ما فوقى وما تحتى ومايحيط بى ، كأنما هجرت الجسم الراقد أمامى لاتخذ من الكون جميعا جسما جديدا !**

حدث هذا التغيير الشامل الذى يجل عن الوصف فى لحظـة من الزمان ، بيد انى ما برحت أشعر بأنى لم أغادر الحجـرة التى شهدت أسعد أيام حياتى السابقة . كان العنـاية وكلتنى بجسمى القديم حتى ينتهى الى مستقره الاخـير ، فجعلت أتأمل ما حولى فى سكون وعدم اكتراث . وقـد غشى جـو الحجرة حزن وكآبة ، وأخذت أمى وزوجى تتعاونان على انامة جسمى على الفراش . ثم قبلت زوجى جبينى ، ولثمت أمى قدمى ، ونادتا أبنائى والخـدم . وراحوا جميعـا يعولون وينتحبون .. رأيت جسمى – صاحبى القـديم – بملامحه المعهودة راقدا لا حراك به ، وقد ابيض لونه وشـابته زرقة وتراخت أعضاؤه وأطبق جفناه ، ومضى الحاضرون يسكبون عليه الدمع الغزير يكادون يهلكون كمدا وحزنا وغما . ومضيت

أنظر اليهم بعدم اكترات غريب كأنه لم تربطنى بهم يوما آصرة قربى ! ما هذا الجسم الميت ! لماذا تصرخ هذه المخلوقات ؟ ما هذا الاسى الذى جعل من سحنهم دمامة شوهاء ! كلا لم **أعد من أهل هذه الدنيا ، ولم يردنى اليهـا صراخ أو بكاء ، وودت لو تنقطع أسبابى بها لالحق فى عالمى الجديد . ولكن وا أسفاه ، ان بقية من حريتى لم تزل عزيزة على ، أسيرة الى حين . فلآخذ نفسى بالصبر وان شق على !**

وجاءت أمى بملاءة وسجت الجثة ثم أخرجت العيال والخدم ، وأخذت زوجى من يدها ، وغادرتا الحجرة وأغلقتا الباب .. ولكنهما لم تغيبا عن ناظرى ، لان الجدران لم تعد حائلا يحجب شيئا عن بصرى ، فرأيتهما وهما تغيران ملابسهما وترتديان السواد . ثم اتجهتا نحو فناء الدار وهما تحلان من ضفائرهما وتحثوان التراب على رأسيهما ، وخلعتا النعال وهرعتا الى باب الدار ، وانطلقتا تصوتان وتلدمان . ومضت أمى تصرخ : « وا ابناه ! » ، فتصرخ زوجى : « وا زوجاه ! » ، ثم تهتفان معا : « يا رحمتا لك يا توتى المسكين ! خطفك الموت ولم يرحم شبابك ! » . وتركتا الدار على تلك الحال من العويل والنواح ، وأخذتا فى طريقهما ، حتى اذا مرتا بأول دار تليهما ، برزت لهما ربة الدار فى ارتياع وصاحت بهما : « ما لكما يا أختى ! » ، فأجابت المرأتان : « خربت الدار ، تيتم الصغار ، وثكلت الام ، وترملت الزوج ، يا رحمة لك يا توتى ؟ » . فصوتت المرأة من أعماق صدرها وصاحت : « واحر قلباه ! .. يا خسارة الشباب ! .. ياضيعةالآمال ! » .. وتبعت المرأتين وهى تحثو التراب على رأسها وتلطم خديها ، وكلما مررن بدار برزت ربتها وانضمت اليهن ، حتى انتظم الحشد نساء القرية جميعا ، وتقدمتهن امرأة دربة بالنياحة ، فجعلت تردد أسمى وتعدد فضائلى !

وبت أتساءل متى ينتهى هذا كله ؟ متى ينتهى هذا كله ؟ !

وعندما أتى المساء جاء الرجال وحملوا الجثة الى بيت التحنيط والصراخ يطبق علينا . ووضعوها على السرير بالحجرة المقدسة . وكانت الحجرة مستطيلة ذات اتساع كبير ، وليس بها من نافذة الا كوة تتوسط السقف ، وفى الصدر قام السرير وعلى الجانبين رفعت رفوف رصت عليها أدوات الكيميـــاء ، وفى الوسط ــ تحت الكوة ــ حوض كبير ملىء بالسائل العجيب ، وخرج الرجال فلم يبق الا رجلان ، وكان الرجلان حكيمين من المشهود لهما فى فنهما فأخذا فى عملهما دون ابطاء ، وقد جاء أحدهما بطست ، ووضعه على كثب من السرير ، ثم تعاونا معا على تجريد الجثة من ملابسها حتى بدت عارية لا يحجبها شىء . فعلا ذلك فى هدوء وعدم اكتـــراث . ثم قال الذى جاء بالطست وهو يغمز عضلات صدرى وذراعى : « كان رجـــلا قويا .. انظر ! » ، فقال الآخر : « كان توتى من رجال الامير ، يؤاكله ويشاربه ، وفضلا عن ذلك ، فقد خاض غمار الحروب ! » . **فقال الذى جاء بالطست متحسرا : « لو أن الاجسام تعار ! » ، فأجابه الآخر ضاحكا : « أيها العجوز ، ما جدوى جســـد ميت ؟ ! » فقال وهو يهز رأسه : « وكان قويا حقا » .**

فقال الآخر ضاحكا وهو يتناول خنجرا طويلا حادا من أحد الرفوف : « فلنختبر قوته ! » وطعن الجانب الايسر فيما يلى الصدر بخنجره ، حتى غاب نصله ، وشقه حتى أعلى الفخذ ، وأعمل فى الداخل يده بمهارة ودربة ، ثم اســـتخرج الامعاء والمعدة ، وأودعها الطست ، وقفاها بالكبد والقلب ، فسرعان ما رأيت باطنى جميعا ، ولم يستغرق ذلك الا دقائق معدودة ، فالرجل من مهرة المحنطين الذين أتقنوا عملهم أيما اتقـــان ، ورحت أنظر الى باطنى بعناية ، وبخاصة الى معـــدتى التى عرفت بقوتها ونشاطها ، ولم يحل غلافها دون رؤية ما بداخلها بفضل تلك القوة السحرية التى اكتسبها بصرى ، فرأيت فيها مضغ الاوزة والتين وبقايا النبيذ التى تناولتها على مائدة الامير



مســاء الامس ، وذكرت قوله حين عزم على بالطعــام : « كل يا توتى واشرب، وتمتع بالحياة أيها الرجل الامين ! »

رأيت وذكرت دون أن يعرونى أى تأثر أو انفعــال ، ودون أن يزايلنى عــدم الاكتــراث العجيب ، ثم حولت بصرى الى قلبى فــرأيت عــالمــا حافــلا بالعجائب. رأيت بشغافه آثار الحب والحــزن والســرور والغضب، وصور الاحبة والرفاق والاعداء ، وقد ترك الهيام بالمجد به فجوة عمقها ما خضت من معارك فى بلاد زاهى والنوبة ، ولاحت على رقعتــه مشاهد مروعة لميادين القتال ، وأجزاء ملتهبة دامية من أثر ذلك الطمع العنيف الذى بعثنى للكفاح بلا رحمة حتى ضممت الى أرض أسرتى قطعة أرض تجاورها نازعنى عليها جار بضع سنين . رأيت فيه جل حياتى وما عانيت من الاهواء ! .. أما الرجل فمضى فى عمله يحدوه الهدوء والمران ، فأتى بكلاب دقيــق وأولجه فى أنفى باحتراس حتى تمكن من هدفه ، ثم وجهــه بدراية وعنف وجذبه بسرعة ، **فسال مخى الكبير من منخرى مادة رخوة تذرو فى الهواء ما تجمع فيها من لوامع الفكر ولآلىء الآمال ودخان الاحلام .**

هذه أفكارى منقوشة أمام عينى ، فاذا قارنتها بنور الحــق الذى يتخايل لروحى بدت تافهة مشوهة ، لقد قاتلها المثوى الذى أوت اليه : رأسى ومخى ! ..

ها أنذا أقرأ القصيدة التى صغتها فى وصف (قاوش) !

وها هي ذي الخطب التي ألقيتها بين يدي الامير في المناسبات المختلفة ، وهذه آرائي في أداب السلوك وهذه الحكم التي حفظتها عن حقائق النجوم كما جاءت في كتب « قاقمنا » ! .. **كل أولئك أزاحه الرجل مع فتات المخ فاستقر بين الامعاء والمعدة في الطست الدامي ، غير ما تناثر على الارض فداسته الاقدام !..** وقال الحكيم وهو يعيد الكلاب الى موضعه : « الآن صارت الجثة نظيفة ! » . فقال صاحبه ضاحكا : « ليتك تجد بعد موتك يدا ماهرة كيدك ! »

وحمل الحكيمان ما تبقى من جسمي الى الحوض الكبير ، وأناماه فيه ، فامتلأ بالسائل الساحر وغرق فيه ، ثم غسلا أيديهما وغادرا المكان ، وقد أدركت أن الحجرة لن يعاد فتحها قبل كرور سبعين يوما ـ مدة التحنيط ـ فمسنى الجزع ، ووقع في نفسي ان انطلق بروحي الى العالم لالقى نظرة الوداع ..

— ٣ —

استرق الى نفسي خاطر أن أنطلق بروحي الى العالم فانطلقت .. لم تحدث حركة في الواقع . وانما كان يكفي أن يتجه فكري الى شيء حتى أجده ماثلا أمامي . بل الواقع أعظم من ذلك ، فقد صار بصري شيئا عجيبا ، لا يعصى أمره شيء ، صار قوة خارقة تشق الحجب وتتخطى السدود ، وتنفذ الى الضمائر والاعماق . بيد أني ـ وقد حم الوداع ـ نازعني الفكر الى أهلي فوجدت نفسي في داري . أما الصغار فقد راحوا في نوم عميق لا يزعجه مكدر . وأما زوجي وأمي فقد افترشتا الارض ، ولاح في وجهيهما الهم والغم . لشد ما أعياهما الحزن والبكاء ! وغدا يتضاعف حزنهما عند تشييع التابوت الى مثواه الابدي . وقد تغلغل روحي في فؤاديهما فتحرك رأساهما وتمثلت لهما في الاحلام . ورأيت القلبين المحزونين يخفقان في كمد وألم . فيم كان كل هذا الكدر ؟! بيد أن

شيئا استرعى بصرى ! رأيت فى سويداء القلبين نقطة بيضاء . فعرفتها — فما عاد يخفى على علم شيء — فهى بذرة النسيان ! آه ... ستكبر هذه النقطة وتنتشر حتى تشمل القلب كله . أجل أدركت هذا حق الادراك ، ولكن بغير مبالاة فلم أعد أكترث لشيء !

وتساءلت — مسوقا بلذة المعرفة — متى يمكن أن يحدث هذا ؟ ! فأرتنى عيناى العجيبتان صورة من المستقبل : رأيت أمى تمسك غلاما بيمناها وتشق طريقها وسط زحام شديد ملوحة بزهرة اللوتس . فعلمت أنها خرجت — أو أنها استخرج — للمشاركة فى أسعد أعياد قريتنا ، عيد الالهة « ايزيس » .. كان وجهها متهللا وكان ابنى يهتف ضاحكا . ورأيت زوجى تهيىء مائدة — والطعام خير ما تصنع فى دنياها — وتدعو اليها رجلا أعرفه ، فهو ابن خالها « ساو » ، ونعم الزوج هو . **ولو أن ميتا يسر لسررت لها ، لان « ساو » رجل فاضل ، وهو خير من يسعد زوجى ويرعى أبنائى !** وانصرفت روحى عن دارى ، فمرت فى سبيلها بقصر أميرى المحبوب ، فشاهدت عقل الامير .. ووجدته متأسفا لفقدى وهو الذى قدرنى أجمل التقدير وجازانى خير الجزاء . ووجدته مشغولا باختيار خلف لى ، فقرأت فى ذاكرته اسم المرشح الجديد : « آب رع » ، وكان من مرؤوسى النابهين وان لم تتصل بيننا أسباب المودة .



كل هذا جميل . ولكن الام أبقى فى قريتى واليوم يستقبل فرعون رسول الحيثيين لتوقيع معاهدة الصلح والسلام !..

رأيت (منف) ـ فى لمح البصر ـ تعج بجمهورها الحاشـــد ، والقصر فى أروع منظر . وقد اجتمع فى بهـو العرش العظيم الملك والرسول والكهنة والنبلاء والقواد . هؤلاء هم ســادة الدنيا قد جمعهم مكان واحد . وهذا فرعون المظفـر يحادث رسول الحيثيين الجبابرة فى جو بالمودة عامر . أما صدر الملك فقد امتلأ احتقارا ، وترددت بأعماقه هذه العبارة : « لابد مما ليس منه بد ! » ، وأما صدر الرسول فقد فاض كراهيـة ، وتحيرت به هذه الفكرة : « صبرا حتى يموت هذا الملك » !

ونشطت عيناى ، فرأيت الوجوه والملابس والقلوب والعقول والبطون . **رأيت عالمى الظاهر والباطن بغير حجاب . وتسليت زمنا بتفحص ما فى البطون من طعام فاخر وشراب معتـق ، حتى عثرت بمعدة كاهن على بصل وثوم ، وهما محرمان على الكهنة ! .. وتساءلت : « ترى كيف غافل هذا الرجل الورع أقرانه ودس هذا الطعام فى جوفه ؟ ! »** ولمحت فى ناحية مـن معدة أحد النبلاء دبيب المرض الذى أودى بحيـاتى ، وكان الرجل يحـــاور قائدا فى سرور وانشراح فقلت له فى نفسى : « على الرحب والسعة ! » . ثم وقع بصرى على الحاكم « تيتى » الذى اشتهر بالقسوة والبطش حتى ليوالى فرعون النصح له بالاعتدال مع رعايا اقليمه . فنظرت اليـه بامعان وسرعان ما تكشف لى عن جسم مهزول ، مريض الاعضاء ، لا يفتأ يشكو مر الشكوى أسنانه ومفاصله . **وكلما ألح عليه الالم تمنى لو يستطيع بتر الفاسد من جسمه ، ولذلك تملكته فكرة البتـر بقسوة فلا يتردد عن بتر المعوج من رعاياه بعنف لا يعـرف الرحمة !** والى جانب « تيتى » شـاهدت الوزير « مينا » ، ذلك الرجل العنيد الذى حارب فكرة الصلح بكل قواه ، وطالما حرض على القتال . وتساءلت : « ترى ماسر عناد هذا الوزير الخطير ؟ ! » .. **رأيت عقله نيرا ولكن أمعاءه ضـعيفة ، فهى تستبقى فضلات الطعام طويلا ، فتلوث دمه فى دورته، فيذهب**

الى عقله فاسدا ويغشى نور أفكاره ، حتى اذا خرجت من فمه كانت ذات شر كبير ! والرجل مقتنع برأيه يراه واضحا مستقيما كما أرى مخه مسودا ملوثا !

ثم دار بصرى بالصدور يستقرئها خفاياها الكامنة وراء بسمات الثغور . هذا صدر ثقل عليه الملل فهمس لصاحبه : « متى العودة الى القصر حيث السماع والقيان ؟ ! » .. وهذا صدر يتوجع قائلا : « لو مات الرجل بمرضه لكنت الآن قائدا على فرقة الرماح ! » .. وذاك صدر يقول فى جزع متسائلا : « متى يقوم الاحمق برحلته التفتيشية فأهرع الى زوجه الحسناء ! .. آه ! » . وقال صدر لصاحبه من الاعماق : « لايدرى انسان متى يحين الاجل » . فلا يجوز بعداليوم أن أؤخر بناء مقبرتى . أو فما فائدة المال اذن ؟ ! » وتولت الحيرة صدرا كبيرا ، فجعل يقول لصاحبه : « قال أخناتون ان الرب هو آتون . وقال حار محب انه آمون . وهناك قوم يعبدون رع . فلماذا يتركنا الرب فى شقاق ؟ » .. ولم أواصل الاستطلاع طويلا فى هذا الحفل الفرعونى الجليل اذ سرعان ما أدركنى الملل . فتحولت عنه ووجدت نفسى مرة أخرى فى الدنيا الواسعة .

ومرت أمام ناظرى مشاهد كثيرة من الارض والسماء ، لمست حقائقها جهرة ، ونفذت الى صميمها ، حتى وقع البصر على جنين يتكون فى رحم ، فرأيته يكتسى لحما وعظما ، وشهدت مولده . وجرى البصر معه فى المستقبل فرآه طفلا وصبيا وغلاما وشابا وكهلا وشيخا وميتا . وشاهد ما اعتوره من حادثات وحالات سرور وحزن ورضا وغضب وأمل ويأس وصحة ومرض وحب وملل . رأى ذلك جميعه فى دقيقة من الزمان ، حتى كاد يختلط فى أذنى بكاء الميلاد وشهقة الموت ! .. وغلبتنى على أمرى رغبة جامحة فى اللعب فسايرت حيوات أفراد كثيرين من الميلاد الى الممات . واستلذذت كثيرا وقوع

الحالات المتنافرة لا يكاد يفصل بينها زمن ! فهذا وجه يضـحك ويقطب ثم يضحك ويقطب عشرات المرات فى جزء من الثانية ! وهذه امرأة تتيه حسنا وتعشق وتتزوج وتحبل وتلد وتهرم وتقبح وتسمج .. فى لحظة من الزمان !..وفاء وخيانةلايفصل بينهما زمن ! .. **هذا وغيره مما لا يحيط به حصر جعل الحياة مهزلة . فلو أن ميتا يضحك لاغرقت فى الضحك ، وبدا لى كأنه لا حقيقة فى العالم الا التغير !**

ورغبت نفسى عن مطالعة الافراد وحيواتهم المجنونة فغابوا عن بصرى . ورنوت اليهم من بعيد جمعا غفيرا لا يحده شىء . تضاءلت الحجوم وطمست المعالم وانعدمت الفوارق . فصاروا كتلة واحدة . ساكنة صامتة . لا حياة فيها ولا حركة رحت القى البصر فى دهشة وحيرة . حتى ألفت المنظر . فتكشف لى عن جانب جديد كان من قبل خافيا .

رأيت ذلك الظلام الساكن يشـع نورا شاملا ، فان الانوار الخافتة المتهافتة التى تخفق فى كل مخ ـ على حدة ـ ضـعيفة خابية ، اتصلت فى المجموع الملتحم المتماسك ولاحت نورا قويا باهرا . رأيت فى لمعتها حقا باهرا وخيرا صافيا وجمالا متألقا فازددت دهشة وحيرة . رباه لشد ما تعانى الروح وتتعذب ولكنها تبـدع وتخلق على رغم كل شىء ! .. رباه لقـد رأى « توتى » أمورا جليلة وليرين أمورا أجل وأخطر ! .. وأيقنت أن ذلك النور الذى بهرنى ان هو الا نقطة من الســـماء التى سأعرج اليها . وغضضت البصر ووليت الدنيا ظهرى فوجدت نفسى فى حجرة التحنيط المقدسة . وقد ملأ روحى سرور الهى لا يوصف !

* * *

وانتهت أيام التحنيط الســـبعون . فجاء الرجال مـرة أخرى ، واستخرجوا الجثة من الحوض وأدرجوها فى الاكفان ،

وأتوا بالتابوت وقد زانوا غطاءه بصورة جميلة لتوتى الشاب ووضعوا فيه الجثة ، ثم رفعوه على أعناقهم وساروا به الى الخارج ، فتلقاه المشيعون من الاهل والجيران بالعويل واللطم ، وعاد النواح كأفظع مما كان يوم النعى ، وذهبوا الى شاطىء النيل وهبطوا الى سفينة كبيرة أقلعت بهم صوب مدينة الابدية على الشاطىء الغربى ، والتفوا بالتابوت يصوتون وينوحون . قالت أمى : « لا جف لى دمع ، ولا اطمأن لى قلب من بعدك يا توتى ! » . وصاحت زوجى : « لماذا قضى على بأن أعيش بعدك يا زوجى ! » . وقال حاجب الامير : « توتى أيها الكاتب المجيد . لقد تركت مكانك شاغرا ! » .

ولبثت أنظر بهاتين العينين اللتين تنكرتا لماضيهما ، وكأن سببا لم يصلنى يوما بهذه الدنيا ، ولا بهؤلاء الناس . ورست السفينة الى الشاطىء فرفعوا التابوت مرة أخرى ، ومضوا به الى المقبرة التى أنفقت فى تشييدها جل ثروتى ، وأحلوه موضعه من الحجرة . وفى أثناء ذلك كان جماعة من الكهنة يتلون بعض الآيات من كتاب الموتى ، يلقنوننى التعاليم الهادية من أقوم سبيل ! ثم جعلوا ينسحبون تباعا حتى خلا القبر ، ولم يعد يسمع من شىء الا العويل الآتى من بعيد ، وأغلقت الابواب وأهيلت عليها الرمال ، فانقطعت كل صلة بين العالم الذى ودعت ، والدنيا التى أستقبل ...

* * *

ملاحظة : هنا انقطعت الكتابة فى المخطوط الهيروغليفى ، ولعل فترة الانتظار التى أشار اليها الكاتب فى أول كتابته كانت قد انتهت . ولعل رحلته الابدية كانت قد بدأت ، فشغل بها عن قلمه المحبوب ، وعن كل شىء .



« وقد تسألنى ـ ومن حقك أن تسأل ـ لماذا اختير « دم .. وخمر ! » عنوانا لهذا الكتاب ؟.. والجواب بسيط .. لم يكن فى روســـيا شىء يراق بســهولة وإسراف ـ فى العهد القيصرى ـ قدر الدم والخمر .. »

من مقدمة « دم .. وخمر ! » للكاتب والفيلسوف الروسى الخالد « ليو تولستوى » .. يصدر بها العدد القادم من « مطبوعات كتابى » .. فترقبه ، واحجز نسختك من الآن !

أزهري في باريس!

(تخليص الإبريز في تلخيص باريز)

لرائد النهضة المصرية العملاق:

رفاعة الطهطاوي



عرض وتلخيص: الدكتور انور لوقا
المدرس بكلية الآداب، بجامعة عين شمس

صعيدى فى (باريس) .. منذ قرن وربع !

✥ تحتفل الهيئات العلميـــة والأدبية فى الاقليم الجنـــوبى من الجمهورية العربية المتحدة ، بذكرى « رفاعة الطهطاوى » ، فى أواخر الشهر الحالى .. فقد كان « رفاعة » جزءا من تاريخ نهضتنا الثقافية فى فجر القرن التاسع عشر ، وكان من طلائع المبعوثين الذين أوفدتهم مصر الى الخارج لاقتباس أضواء العلم ، ليعكسوا اشعاعها على البـــلاد التى كانت ترزح فى ظلمات العصور الوسطى ، نتيجة ما تراكم عليها من محن ..

ويسر « كتابى » أن يساهم فى الاحتفال بذكرى هذا الرائد ـ الذى كان بين أوائل الرواد ـ فى ميدان العلم والأدب ، بهذا البحث الشيق ، الذى تناول فيـــه الدكتور « أنور لوقا » كتـــاب رفاعة : « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » بالتلخيص والتعليق .. فهو أجدر كتب رفاعة بتخليد ذكراه ، وهـــو أوفى مصدر مباشر لدراســـة البعثة التعليمية المصرية التى أوفدت الى باريس عام ١٨٢٦ ، ثم هـو ـ فى الوقت ذاته ـ قصة شائقة لرحلة طويلة ، وتقرير شـــامل جامع عن (باريس) ، باعتبارها عاصمة الحضارة الأوربية .. ومن وراء صورة فرنسا ، نستشف فى هذا الكتاب ـ الذى يعتبر من كنوز ثقافتنا ـ صورة لمصر فى مطلع القرن التاســـع عشر ، وسجلا لأحلام المواطن الصعيدى .. الأحلام التى أملتها الغيرة للرقى بوطنه الى مصـــاف أرقى دول العالم ، اذ ذاك ..

والآن .. ندعك لهذا البحث القيم ، الذى يبسط لك صـــفحات كتاب خيم عليه النسيان والاهمال ، رغم امتلائه بالمعانى التاريخية ، والاجتماعية ، والشخصية ، والأدبية !

هذا الرائد العملاق .. !

• رفاعة الطهطاوى جزء من تاريخنا ، تشكلت حياته بمغزى الايام التى عاشها ، وتقمص عصره فجسمه لنا فى صورة انسان .. وقد خصصت له أمته دورا كبيرا ، فأظهر من الجـدارة ما عادل الامل الذى كان معقودا عليه ، واستطاع أن يضـطلع

بمهمته حتى أكملها على خير وجه . **لقد وجــدت مصر فيه صانع نهضتها حينما أفاقت فى فجر القرن التاســع عشر ..** اذ لم يكد ذلك القرن يبلغ عامه الاول ، حتى ولد رفاعة . وكانت الاقدار قد تواطأت على أن تجعل من هذا المولود رحالة ترسله – عندما يبلغ عمره ربع قرن – من الازهر الى باريس ، ليعود ببذور النهضة الفكرية ويخرج وطنه من ظلمات العصور الوسطى . فأنفق فى باريس خمس سنوات – من ١٨٢٦ الى ١٨٣١ – عامرة بالاطلاع والتفكير والتحصيل ، بين الاساتذة والمستشرقين وأهل العاصـــمة الفرنسية وأوجه الحضـارة الحديثة .. ثم عاد الى بلاده زاخر النفس بمعانى حياة جديدة متحفزا لعمل خطير ، هو اصلاح المجتمـــع المصرى ، بتعليم الشعب وتنوير العقـــول . عاد ليدرس وينشىء المدارس ، ويصنع من تلاميذه مدرسين للجيل الصاعد . وراح يستعرض كتب الثقافة الغربية ، ويترجم ، ويصنع من تلاميذه مترجمين يتولون معه ، وتحت اشرافه ، ومن بعده ، نقل ذلك الكنز المفتوح .. **ومضى يكتب ويخطب ، وينشر المجلدات والصحف ، يبسط العلوم ويعالج شئون التربية والاقتصاد والسياسة ، هادما الآراء الفاسدة ، ناشرا أفكار التقدم ، مبصرا أمته بروعة ماضيها وخصب حاضرها ووعود مستقبلها .. لا يكل فى ذلك نشاطه – رغم ما كان محمد على يقيده به – ولا تفتر همته اذ نفاه عباس الى السودان .** بل ظل يواصل رسـالة الارتقاء التى آمن بها ، فى جميع الظروف وبجميع الوسائل ، حتى وافته المنية سنة ١٨٧٣ .. انه رائد عملاق ، لولاه – ولولا الفريق الذى رباه – لظلت مصر نصف قرن آخـر فى وهدة التأخر ! .. فهو فى الواقع « نهضة مصر » !

وتتجلى فى خبرة « رفاعة » تلك الظاهرة الكبرى التى تتميز بها تاريخ مصر فى القرن التاسـع عشر ، ألا وهى الاتصـال بالحضارة الغربية .. فلقد كانت رحلة رفاعة الى باريس هى

أول علاقة مثمرة بين الشرق والغرب فى العصر الحديث . أجل ، لقد تبادل الشرق وأوربا التجارة والسفراء منذ القرون الوسطى ، ولكن اقامة التجار والسفراء الاوربيين بين ظهرانينا لم تنتج قط تمازجا انسانيا عميق الاثر . ثم انطوت مصر على نفسها ، حين دهمها الاتراك فى القرن السادس عشر ، فباتت فى غياهبهم تجهل أنوار الفجر الجديد الذى طلع – اذ ذاك – على أوربا .. وامتد سباتنا حتى أيقظتنا – فى آخر القرن الثامن عشر – طلقات مدافع بونابرت . فكانت الحملة الفرنسية لقاء عنيفا بين أبناء الغرب وأبناء الشرق ، ولم يتح لها قصر الاجل ، ولا روح المقاومة الشعبية ، من الاستقرار ما يؤدى الى اتصال جليل النفع ! .. على أنها – رغم ذلك – فتحت أبواب الاتصال بين عقليتى الشرق والغرب ، فى السنوات التى أعقبتها . فقد لحق بالفرنسيين – عند جلائهم عن مصر – وفد كبير ، رأى أن يستأنف الجهاد ضد الاحتلال التركى على مستوى دولى ، حتى ينص على استقلال مصر ميثاق يعقد بين الدولتين العظميين المسيطرتين على شئون العالم اذ ذاك : فرنسا – التى كانت أقوى دول البر – وانجلترا ، التى كانت أقوى دول البحر . ولكن « المعلم يعقوب » – قائد الوفد – مات فى الطريق ، وحط خلفاؤه فى (مرسيليا) ، وطالبوا رسميا باستقلال مصر ، وما زالت وثائق ذلك المشروع محفوظة فى وزارتى الخارجية الفرنسية والانجليزية .. الا أنهم لم يجدوا أذنا صاغية لدى الدولتين العظيمتين المتطاحنتين ، **وانتهت بهم الايام الى أن تحولوا من « مفاوضين » الى « مهاجرين »** . وقد امتاز أفراد من بينهم بالذكاء والمعرفة واجادة اللغتين العربية والفرنسية معا ، لا سيما الشاعر « يوسف أجوب » الذى أصبح – فيما بعد – معلم رفاعة الاول فى العاصمة الفرنسية ، واللغوى « اليوس بقطر » الذى ألف قاموسا هاما واشتغل استاذا فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس .. هؤلاء

المكافحون أبطال قطعوا فى طفرة واحدة ذلك البون الشاسع ، الذى استمر قرونا كاملة يفصل بين عالمين ، ولكن دورهم ظل محدودا .. اذ أنهم جاؤوا فى حقبة انتقال وتقلب ، فامتزج مصيرهم بأحداث السياسة ، وأعوزتهم راحة الاستقرار ووسائل الاستعداد لمستقبل لم يكن - هو الآخر - واضحا قريرا ، فلم يحرزوا نتيجة ملموسة ، ولم ينقلوا لوادى النيل غرسا من الحضارة التى كشفوها .. **ومن ثم كانت تلك تجربة سريعة مرتجلة ناقصة . ولكن الاقدار قيضت للطهطاوى - رفاعة - أن يحقق لمصر من الصلة بحضارة الغرب ما لم يحققه الاسيوطى - اليوس بقطر - الذى توفى فى سنة ١٨٢١ ، وهو فى السابعة والثلاثين من عمره .. وفى التاريخ مقدمات وفترات انتقال تمهد للظواهر الكبرى دائما .**

وخطونا مع رفاعة الخطوة التالية ، خطوة وئيده ثابتة ، أطول من سابقاتها وأقرب الى المنبع .. كان رفاعة فى عداد بعثة تعليمية رسمية . ومنذ تفتحت عيناه على «بلاد الافرنج» ، شعر بمكانه من الدنيا ومن التاريخ ، وأحس بروعة الدور الذى ينتظره فى بلاده بعد أوبته ، فأقبل على المعارف الجديدة ، لا يعوقه اضطراب الاحداث ولا شظف العيش ولا قلة الرعاية .. فأصبحت رحلته هى أول صورة كاملة للقاء الشرق والغرب أمامنا ، واتحفتنا تجربته بجميع نتائج الاخصاب التام

.. وهذا «الديوان النفيس»

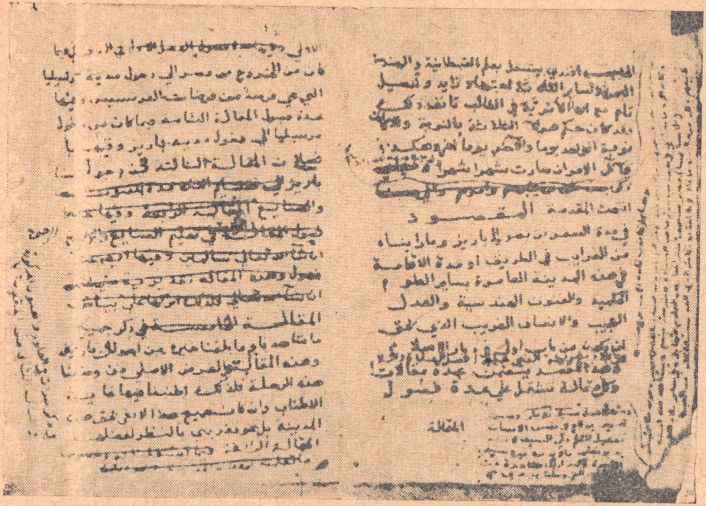
• **ولهذه** التجربة الفريدة سجل ثمين ، كتبه بطلها نفسه أثناء اجرائها ، وعرف قيمته قبل أن نعرفها اليوم ، فسماه **« الديوان النفيس »** بعد أن عنونه **« تخليص الابريز فى تلخيص باريز »** .. ومن حق الجناس المزدوج الكامل - بين كلمتى « تخليص » و « تلخيص » ، وبين كلمتى «ابريز» و«باريز» - أن يستوقفنا ، كما يستوقفنا العنوان الثانى : « الديوان

النفيس بايوان باريس » ! .. **ولا عجب ، فقد كانت البهلوانية اللفظية ، واجادة الالعاب الانشائية ، هى خير صفات الكاتب فى نهاية عصر الانحلال ، بعد أن انعدم الاهتمام بالفكرة ، ولم يكن بد للأديب من أظهار مهارته فى العبث بالالفاظ حتى يكون أديبا . فكأنى برفاعة يتحدى قارئه بهذا العنوان ، وبهذا الاتقان ، ويغتصب اقباله على الكتاب اغتصاباً .**

على أن كلمة غريبة تبرز فى هذا العنوان المثنى العتيق ، كلمة مجهولة لم تتردد فى اللغة العربية حتى أول القرن التاسع عشر ، هى اسم العاصمة الفرنسية . فلم يذكر « باريس » الا « تقولا الترك » الذى عاصر حملة بونابرت وأرخ لها . ويبدو من تردد رفاعة فى كتابة هذا الاسم بين السين والزاى ، انه كان يخطه بالحروف العربية للمرة الاولى !

وحسبنا أن نلقى على الصفحات الاولى نظرة سريعة حتى تتضح لنا عناصر هذا الكتاب الكثيف المادة .. فها هو ذا الشيخ حسن العطار - شيخ الجامع الازهر - يقرظ بقلمه الرصين هذا الكتاب عن باريس ، فى أول صفحة منه ، وان لم يعد تقريظه فقرة واحدة من النثر المسجوع المتكلف ، حسب مقاييس الكتابة الفنية فى تلك الايام .. **ترى هل صدر المؤلف الشاب كتابه الداعى الى أفكار جديدة بثناء شيخ الازهر ، ليدفع عن نفسه تهم الضلال والمروق والبدعة ؟** .. لعله أراد ذلك ، كما أراد أن تحميه بعد ذلك صفحات فى آخر الكتاب - أضافها الى الطبعة الثانية - وشحنها بقصائد فى مدح عباس باشا بمناسبة جلوسه على عرش مصر !

ويبدأ رفاعة حديثه بـ « خطبة الكتاب » ، وهى أربع صفحات من النثر المنمق ، التزم فيها السجع وأكثر من المحسنات البديعية ، وحلاها بأبيات ركيكة من شعر ذلك العصر ، الا أنه أجاد بناءها وحمل ألفاظها أفكارا . فهو ينظر فى نفسه من ناحية وفى عمله من ناحية أخرى ، ونستطيع أن



صفحتان من أصل الكتاب ، أجرى «رفاعة» قلمه فيهما بالتعديل

نرى فى تلك الصفحات صورة مصغرة للرجل وللكتاب .

انه رجل تربى فى الازهر ثم انتقل الى باريس ، فاحتفظ بالتقاليد الاسلامية ، وأضاف اليها التحليل العقلى الذى تتميز به الثقافة الفرنسية .. فبعد الاستهلال التقليدى بحمد الله ، وبالصلاة والسلام على رسوله ، وبتمجيد الحاكم ، يقدم رفاعة نفسه للقارىء دون ابطاء . **فيذكر اسمه وبلدته ونسبه ومذهبه ومنصبه ، وكأنه يبرز أوراقه الشخصية !**

وهذه «الخطبة» مقدمة جيدة ، أحسن فيها رفاعة استعراض كتابه ، وساق أفكاره سياقا منظما . فهو يروى ، على سبيل التمهيد ، كيف ولد كتابه ، ثم يبين أهدافه ، ويحدد مجال موضوعه ، ويشرح وجهة نظره ، ويعرف بخطته واسلوبه .

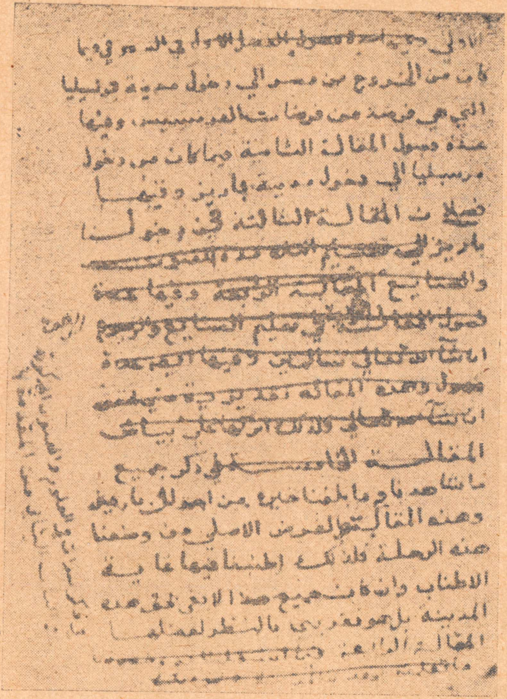
المقدمة : ((اطلب العلم ولو فى الصين)) !

◆ **يتألف** كتاب ((تخليص الابريز فى تلخيص باريز)) — كما يعلن صاحبه — من ((مقدمة)) — تضم أربعة أبواب — ومن ((مقصد)) يشمل ست مقالات ، تنقسم كل منها الى عدة فصول ، ومن ((خاتمة)) .

ويبدأ رفاعة — فى أول أبواب مقدمته — بذكر دواعى تلك الرحلة الى فرنسا ، فيصعد الى ما قبل التاريخ ويتتبع تطور الانسان وارتقاء المجتمع ، ويرى أن الشعوب من حيث تفاوتها فى درجات الحضارة تنقسم الى ثلاث مراتب : مرتبة المتوحشين ، ومرتبة البرابرة ، ومرتبة ((أهل الادب والظرافة والتحضر والتمدين)) . **وقد كان العرب فى عداد هذه المرتبة الثالثة أيام العباسيين وملوك الاندلس ، غير أن ((الافرنج)) فى العصور الاخيرة تفوقوا عليهم بفضل ما أتقنوا من علوم ، وما أرسوا من قواعد العدالة .. ((وحلال طلب العلم فى بلاد الافرنج ، الم يرد فى الحديث : اطلب العلم ولو بالصين ؟))** ويحارب ((رفاعة)) سفاهة العامة الذين يستنكرون الاستعانة بالخبراء والاخصائيين الاجانب ، ويدافع عن هذا النحو من السياسة ، لان فيه اصلاح البلاد والنهوض بمستواها .

وفى الباب الثانى من ((المقدمة)) يعدد مختلف المواد التى كان على المبعوثين أن يدرسوها .. **((وهذه الفنون اما واهية فى مصر أو مفقودة بالكلية))** . وهى : مواد عامة لجميع التلاميذ — كالحساب والهندسة والجغرافيا والتاريخ والرسم ومواد تخصص ، كالادارة المدنية ، والادارة العسكرية ، والملاحة البحرية ، والدبلوماسية ، والهندسة المائية والميكانيكية والحربية والمدفعية ، وصناعة الاسلحة ، والكيمياء ، والطب ، والزراعة ، والتاريخ الطبيعى ، وصناعة الطباعة على الحجر ، والترجمة .

ولكى يحدثنا رفاعة ، فى الفصل الثالث من ((المقدمة)) ،



الاولى ... الفصل الاول ... [illegible]
كان من الخروج من مصر الى دخول مدينة مرسيليا
التي هي فرضة من فرضات الفرنسيس، وفيها
عدة فصول المقالة الثانية فيما كان من دخول
مرسيليا الى دخول مدينة باريس وفيها
فصلان المقالة الثالثة في دخولنا
باريز الى [illegible]
والسابع المقالة الرابعة وفيها [illegible]
فصول [illegible] في تعليم الصنائع [illegible]
[illegible] وفيها [illegible]
فصول وهذه المقالة [illegible]
[illegible] على بيان
المقالة الخامسة في ذكر جميع
ما شاهدناه وما [illegible] من احوال باريس
وهذه المقالة هي الغرض الاصلي من وضعنا
هذه الرحلة فلذلك اطنبنا فيها غاية
الاطناب وانه [illegible] هذا الا [illegible]
المدينة بل [illegible] النظر لهذه
المقالة الرابعة [illegible]

احدى الصفحتين المنشورتين من قبل ، مكبرة ليظهر فيها ما حذفه المؤلف من الاصل ، وما أضافه اليه!

عن أسباب ارسال البعثة الى فرنسا دون سواها من بلاد الافرنج، ينشيء مقدمة طويلة يستعرض فيها دول العالم كما جمعها الجغرافيون الافرنج فى خمس قارات . ويبدو له « بحسب مزية الاسلام وتعلقاته » ان أفضل القارات هى آسيا **لانها مهد الاسلام ، ومهبط الاديان السماوية ، ومنشأ الانبياء والمرسلين والصحابة والائمة الاربعة والعرب » .. تليها افريقية لانها تضم مصر ،**

« وهى أيضا عشرة الاولياء والصلحاء والعلماء » !.. وأما ثالثة القارات فى الفضل فهى أوربا ، اذ يشرفها « وجـود الامام الاعظم سلطان الاسلام فيها » . وبالمقياس عينه توضع جزر المحيط فى المكان الرابع ، « لعمارها بالاسلام ايضا مع عـدم تبحرها فى العلوم » ، فهى خير من أمريكا .. « حيث لا وجود للاسلام بها أبداً » . **ولكن رفاعة لا يلبث فى هذا التصنيف حتى يستدرك استدراكا جوهريا ، ويقرر أن جدارة الامم وفضلها وامتيازها لا تقاس بأديانها وانما تقاس بمستواها من العلم !..** وأكثر أهل أوربا علما ـ فى رأى رفاعة ـ هم الانجليز ، يليهم الفرنسيون ، فالنمسويون . غير أن (باريز) تمتـاز عـلى (لونده) باعتدال الجو وقلة الغلاء ، وبما تمنحه للاجانب من حرية الرأى والعبادة والتصرف ، ولمـا يغلب على أهلها من بشاشة وحفاوة بالغرباء .. ولذلك استأثرت فرنسا بأغلبية الطلبة المبعوثين من مصر » !

ورابع أبواب المقدمة باب قصير ، يسجل فيه رفاعة أسماء « رؤساء هذه السفرة » .. أى رؤساء البعثـة ، التى كان يشرف عليها الاستاذ « جومار » .. الذى « يشتغل بالعلوم آناء الليل وأطراف النهار » !

فى البحر المالح .. الى فرنسا

• **وهنا** تنتهى « المقدمة » ، ويبدأ **« المقصد »** .. فيأخـذ رفاعة فى سرد وقائع رحلته ، وما خالجه من مشاعر فى الطريق الطويل الى فرنسا .. منذ وصل الى الاسكندرية ، بعد أربعة أيام على النيل . ولمـا كان قليل الخروج ـ أثناء الايام الثلاثة والعشرين التى أنفقهـا المبعوثون « فى سراية ولى النعمـة » بالاسكندرية ـ فان حديثه عن هذه المدينة لا يعدو ما لخصه ـ عن تاريخ الاسـكندر ذى القرنين ـ من بعض الكتب العربية والفرنسية ، وعن « البحر المالح » . ثم ينتقـل الى الرحلة :

« وقد امتطينا سفينة حرب فرنساوية ، لا تغادر فى فؤاد الانسان رعبا .. محتوية على سائر ما يحتاج اليه من الحرف والصنائع ، مشتملة على آلات الحروب ، ومحصنة بثمانية عشر من المدافع .. وكان مجراها يوم الخميس سادس يوم من شهر رمضان المبارك ، وكان هبوب الريح وقتئذ خفيفا ، فسرنا من غير اشعار بالسير ، فتوسمنا فى وجهها الخير ، ولم نتألم بذلك . **وكنت - قبل ركوب البحر - عملت بما علمه لى بعض من سافر من العلماء الى (أسلامبول) من تجرع حثوات عظيمة من ماء البحر المالح وقال انه يدفع ألمه ، فان الواقع أنه لم يحصل لى ألم . على أنى حين نزلت المركب كنت متمرضا بالحمى ، فبرئت منها بمجرد السفر وحركة السفينة ، وربما صحت الاجسام بالعلل !** ولا زلنا نسير من غير شدة تحرك واضطراب نحو أربعة أيام . وبعدها عصفت الرياح ، وتموج ماء البحر وتلاعب بذات الالواح ، تلاعب الاشباح بالارواح . فلازم أكثرنا الارض ، وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض .. » !

وفى مياه (مسينا) ، ترسو السفينة خمسة أيام دون أن يؤذن لاحد بالنزول ، فيروق لرفاعة ان ينظر الى المدينة البيضاء وهى توقد مصابيحها فى المساء ، وأن يشنف سمعه بتوقيع أجراس كنائسها ، دون تزمت ودون تحرج ، بل ويأخذه الطرب ذات ليلة فيحاول التعبير عن أثر الموسيقى الجميلة فى نفسه ، وينظم - وهو يسمر « مع بعض الظرفاء » من زملائه - أبيات رقيقة يتغنى فيها بحبيب مجهول يصبو اليه ، وينتشى من سحر عينيه ... فيا لهذا الشيخ الامام من شاعر فنان !

صعيدى فى فرنسا !

• **واستغرقت** الرحلة ثلاثة وثلاثين يوما ، قبل أن يترجل

المبعوثون على أرض مرسيليا .. وهذا موضوع « **المقالة الثانية** » .. فهناك يلتقى المبعوثون بالعادات الفرنسية ،
ويمضى المبعوثون الى اكتشاف العادات الفرنسية ، فيدهشهم ما يرون من بسائط الحياة اليومية .. وما أطرف سذاجة الصعيدى ، وهو يصف لنا يومه الاول فى فرنسا :

« ولم نشعر — فى أول يوم — الا وقد حصل لنا أمور غريبة فى غالبها . وذلك أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية لا نعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسى للجلوس عليها ، لان أهل هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحو سجادة مفروشة على الارض ، فضلا عن الجلوس بالارض . ثم مدوا السفرة للفطور ، ثم جاؤا بطبليات عالية ، ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية ، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من القزاز وسكينا وشوكة وملعقة ، وفى كل طبلية نحو قزازتين من الماء ، واناء فيه ملح وآخر فيه فلفل . ثم رصوا حوالى الطبلية كراسى ، لكل واحد كرسى . ثم جاءوا ب «الطبيخ» ، ووضعوا فى كل طبلية صحنا كبيرا أو صحنين ، ليغرف أحد أهل الطبلية ويقسم على الجميع ، فيعطى لكل انسان فى صحنه شيئا يقطعه بالسكين التى قدامه ، ثم يوصله الى فمه بالشوكة لا بيده ، **فلا يأكل الانسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره أو سكينه ، أو يشرب من قدحه أبدا . ويزعمون أن هذا أنظف واسلم عاقبة . ومما يلاحظ عند الافرنج أنهم لا يأكلون أبدا فى صحون النحاس ، بل ولا فى أوانيه أبدا — واو كانت مبيضة — فهى للطبخ فقط ، بل دائما يستعملون الصحون المطلية** . وللطعام عندهم عدة مراتب معروفة ، وربما كثرت وتعددت كل مرتبة منها .. فأول افتتاحهم الطعام يكون بالشوربة ، ثم بعده باللحوم ، ثم بكل نوع من أنواع **الاطعمة** — كالخضروات والفطورات — ثم بالسلطة . وربما كانت الصحون المطلية بلون الطعام المقدم ، فصحون السلطة

ـ مثلا ـ خضر منقوشة بلون السلطة ! .. ثم يختمون أكلهم بأكل الفواكه ، ثم بالشراب المخدر ـ الا أنهم يتعاطون منه القليل ـ ثم بالشاى والقهوة .. ثم انهم أحضروا لنا آلات الفراش . والعادة عندهم أنه لا بد أن ينام الانسان على شىء مرتفع ، نحو سرير ! »

نساء الريف أجمل من الباريسيات !

• **ومكث** المبعوثون فى مرسيليا خمسين يوما أخرى ، فى انتظار نقلهم الى باريس ، فشرعوا فى تعلم مبادىء قراءة اللغة الفرنسية . وكانوا يخرجون للنزهة فى قلب المدينة .. وهو يمضى فى وصف مشاهداته قائلا :

« كنا نخرج بعض ساعات للتسلى فى البلد ، وندخل بعض القهاوى . والقهاوى عندهم ليست مجمعا للحرافيش ، بل هى مجمع لارباب الحشمة ، اذ هى مزينة بالامور العظيمة النفيسة التى لا تليق الا بالغنى التام . وأثمان ما فيها غالية جدا ، فلا يدخلها الا أهل الثروة . **وأما الفقراء فانهم يدخلون بعض قهاوى فقيرة أو الخمارات ((والمحاشش)) ! .. ومع ذلك ، هذه المحلات أيضا مجملة تجميلا نسبيا** . وقد أسلفت أن مدينة اسكندرية تشبه فى حالها مرسيليا ، وأذكر هنا أن الفرق بينهما اتساع السكك والطرق اتساعا مفرطا لمرور جملة عربات معا فى طريق واحد . ثم أن سائر القاعات أو الاروقة أو المنادر العظيمة يوضع فى حيطانها الجوانية مرايا عظيمة كبيرة ، حتى أنه ربما كانت سائر جوانب القاعة كلها من زجاج المرآة ليظهر لها رونق عظيم . فأول مرة خرجنا الى البلدة مررنا بالدكاكين العظيمة الوضع المزججة بهذه المرائى (المرايا) ، والمشحونة بالنساء الجميلات . وكان هذا الوقت وقت الظهيرة . **وعادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والرأس ، والنحر وما تحته ، والقفا وما تحته ، واليدين الى قرب المنكبين** . والعادة

أيضا ان البيع والشراء بالاصالة ، للنساء ، وأما الاشغال فهى للرجال » !

والفصل الثانى من هذه المقالة فصل قصير جدا « فى الخروج من مرسيليا الى دخول باريس » ، ينوه فيه رفاعة بنفع العربات الكبيرة التى يستقلها المسافرون — عدة أيام متواصلة — ولا يشعرون فيها بمثل دوار البحر ، والتى تحط بهم فى آخر كل مرحلة أمام فنادق **« فى غاية النظافة والظرافة »** .. وفى ختام الاسبوع ، تصل العربة الى باريس . ولا يفوت رفاعة أن يصف جمال الطريق العامر بالقرى المتتالية ، تظلله **« الاشجار المرصوصة بوجه مرتب مطرد »** ، كما لا يفوته أن يصف جمال نساء الريف .. وما يمتزن به على الباريسيات من صفاء البدن والحسن الطبيعى !

جو باريس متقلب مثل أهلها !

• **والمقالة** الثالثة — « فى دخول باريس وذكر جميع ما شهدناه وبلغنا خبره من أحوال هذه المدينة » — هى أطول مقالات الكتاب ، وتنقسم الى ثلاثة عشر فصلا ، يعالج **الفصل الاول** منها « تخطيط باريس من جهة وضعها الجغرافى وطبيعة أرضها ومزاج اقليمها وقطرها » . وينظر رفاعة قبل كل شىء فى لفظة « باريس » ، فيشرح أصلها ، وكيف ينبغى أن تنطق باللغة العربية .

ويستطرد بعد ذلك ، لتحديد موقع باريس .. **ويشبه رفاعة تقلب الجو فى باريس بتقلب طباع أهلها !** .. ثم يمضى قائلا : « واما المطر ، فانه لاينقطع فى هذه المدينة فى سائر فصول السنة . واذا نزل فى الغالب نزل بكثرة . فلذلك احتاجوا فى دفع ضرره الى جعل أعالى الدور منحدرة لتنزل منها المياه الى أسفل الدور . وفى سائر البيوت والطرق مجار وبالوعات ، فترى وقت المطر سائر طرق باريس محددة بمجار كالقناة

الجارية المياه ، خصوصا وأرض هذه المدينة مبلطة بالحجر فلا تتسرب المياه أبدا بل تسير الى هذه المجـارى ومنها الى البالوعات .. وتغير مزاج الهواء والزمن فى باريس أمر عجيب ، فانه قد يتغير فى اليوم الواحـد أو مع ما بعده حال الزمن . مثلا يكون فى الصباح صحو عجيب لا يظن الانسان تغيره ، فلا يمضى نصف ساعة الا ويذهب بالكلية ، ويخلفه المطر الشديد .. وهكذا ، فقل أن يأمن الانسان تغير الوقت بهذه البلاد فمزاجها كمزاج أهلها » !

ويصف رفاعة أنواع المدافىء التى يوقدها الفرنسيون لاتقاء برد الشتاء ، ويضيف ساخرا : « ومن أعظم اكرام الضيف عندهم ـ فى الشتاء ـ تقريبه جهة النار ، ولا عجب فى ذلك . نسأل الله انقاذنا من حر نار جهنم » !

وتعجبه خصوبة الارض التى تهب البيوت بساتين وافرة الثمر ، متنوعة الشجر ، فقد يغرس الفرنسيون بها أشجارا من غير نبات منطقتهم كالنخل ، رغم قول القزوينى عن النخل ـ فى كتابه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » ـ انه « شجرة مباركة ، عجيبة ، من عجائبها أنها لا تنبت الا فى بلاد الاسلام » ... فتأمل !

باريس .. لا شىء ، لولا عناية أهلها !

• **ويفضل** رفاعة ماء النيل على ماء (السين) ، والنزهة فى الروضة والمقياس ، على النزهة فى جزيرة (السيتيه) ... **« الا أن نهر السين بتمامه يشق باريس ، وتجرى به السفن العظيمة الوسق ، وبه الارصفة الجيدة والنظافة على حوافيه . ومع ذلك فنزهتـه غير سارة . وشتان أيضـا بين ماء النيل والسين من جهة الطعم وغيره ! فان ماء النيل ـ لو كانت العادة جرت بترويقه قبل اسـتعماله ، كما هى العادة فى ماء نهر السين ـ لكان من أعظم الادوية ..** وبالجملة والتفصيل ففرق



بعيد بين تربة مصر وباريس ومياههما وفواكههما ـ الا فى نحو الخوخ ـ واقليمهما . فلولا نجابة أهل باريس وحكمتهم وبراعتهم وحسن تدبيرهم واعتناؤهم بتعهد مصالح بلادهم ، لكانت مدينتهم كلا شىء ! »

وهو يتغنى بحنينه الى مصر فى قصيدة متكلفة ركيكة ، استهلها بالنسيب ، وحاكى فيها شعر المديح التقليدى ، وحيا رجال الازهر والوالى . وقد لا تظهر روعة وطنيته فى هذه القصيدة المباشرة ، بقدر ما تظهر فى حرصه على اقتباس كل ما يراه نافعا لبلاده ، مثل تلك العربة التى تجرها الجياد بينما تنفتح ثقوب دنها المليء بالماء لرش الشوارع والميادين فى وقت الحر : « **فانهم يصنعون دنا عظيمة ذا عجلات ، ويمشون العجلة بالخيل . ولهذا الدن عدة بزابيز مصنوعة بالهندسة ، تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع ، فلا تزال العجلات ماشية ، والبزابيز مفتوحة ، حتى ترش قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة لا يمكن رشها بجملة رجال فى أبلغ من ساعة . ولهم غير ذلك من الحيل . فمصرنا أولى بهذا لغلبة حرها** » !

وبعد أن يحصى رفاعة قناطر « السين » ، والطبقات الجيولوجية التى تتكون منها أرض باريس ، يذكر عدد « الفسحات » ـ أى الميادين ـ التى تشبه (فسحة الرميلة) بالقاهرة .. فى مجرد الاتساع لا فى الوساخة !

أهل باريس بين العمل واللهو

• **والفصل الثانى** فصل شائق « فى الكلام على أهل باريس » .

لقد عرف رفاعة شدة ذكائهم ، وتأصل الثقافة فيهم ، وتوقهم الى الفهم والاستطلاع والوقوف على كل طريف ، وولعهم بالصيت ودوام الذكر أكثر من تهافتهم على الكسب ، وتقلب مزاجهم وعواطفهم وان ظلت آراؤهم فى جد الامور رصينة ثابتة .. ولكن ، لندعه يصفهم بأسلوبه :

« ومن طباع الفرنساوية التطلع والتولع بسائر الاشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل فى سائر الامور ، خصوصا فى أمر الملبس ، فانه لا قرار له أبدا عندهم ، ولم تقف لهم الى الآن عادة فى التزيى . وليس معنى هذا أنهم يغيرون ملبسهم بالكلية ، بل معناه أنهم يتنوعون فيه .. ومن طباعهم المهارة والخفة ، فان صاحب المقام قد تجده يجرى فى السكة كالصغير . **ومن طباعهم أيضا الطيش والتلون ، فينتقل الانسان منهم من الفرح الى الحزن وبالعكس ، ومن الجد الى الهزل وبالعكس ، حتى أن الانسان قد يرتكب فى يوم واحد جملة أمور متضادة . وهذا كله فى الامور غير المهمة . وأما فى الامور المهمة فآراؤهم فى السياسات لا تتغير ، كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه ويؤيده مدة عمره .** ومع كثرة ميلهم الى أوطانهم فانهم يحبون الاسفار ، حتى انهم قد يلقون بأنفسهم فى المهالك لمصلحة تعود على أوطانهم ... ومن خصالهم محبة الغرباء والميل الى معاشرتهم ، خصوصا اذا كان الغريب متجملا بالثياب النفيسة . وانما يحملهم على ذلك الرغبة والتشوف الى السؤال عن أحوال البلاد وعوايد أهلها ... وهم فى الحقيقة أقرب للبخل من الكرم ... **ومن المركوز فى طبعهم حب الرياء والسمعة ، لا الكبر والحقد . فهم كما يقولون فى مدح أنفسهم أخلص قلوبا من الغنم عند ذبحها وان كانوا عند الغضب أشد افتراسا من النمور ، فان الانسان منهم اذا غضب قد يؤثر الموت على الحياة ، فقل أن يفوت زمن يسير من غير أن يقتل انسان نفسه ، خصوصا من داء الفقر أو العشق .** ومن طباعهم

الغالبةوفاء الوعد وعدمالغدر وقلة الخيانة ... ومن خصالهم أيضا صرف الاموال فى حظوظ النفس والشهوات الشيطانية واللهو واللعب ، فانهم مسرفون غاية السرف . **ثم ان الرجال عندهم عبيدالنساء، وتحتأمرهن، سواء كن جمالات أو لا... ولا يظن الافرنج بنسائهم ظنا سيئا أصلا ، مع أن هفواتهن كثيرة معهم .** فان الانسان - ولو من أعيانهم - قد يثبت له فجور زوجته فيهجرها بالكلية وينفصل عنها مدة العمر . والتفريق بينهما بهذه المثابة يكون عقب اقامة دعوى شرعية ومرافعة ، يثبت فيها الزوج دعواه بحجج قوية على رؤوس الاشهاد ، وتتلوث فيها الذرية بالفضيحة ، وان كانت بدون لعان ولا تعرض للأولاد... وهم ينكرون خوارق العادات ويعتقدون بأنه لايمكن تخلف الامور الطبيعية أصلا ، وان الاديان انما جاءت لتدل الانسان على فعل الخير واجتناب ضده ، وأن عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم فى الآداب والظرافة تسد مسد الاديان، ون الممالك العامرةتصنع فيها الامور السياسية كالامور الشرعية » !

أزهرى يكتشف اللغة الفرنسية

• **ولما** كانت لغة الباريسيين هى الفرنسية ، فقد ختم رفاعة هذا الفصل بحديث ذى شجون عن مزايا هذه اللغة مقارنا اياها باللغة العربية ، وعن فضل بعض من تعرف بهم من المستشرقين . فاللغة الفرنسيةواسعة المجال ، غنية بالمعانى « لكثرة الكلمات غير المترادفة ، لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ولا بالمحسنات البديعية واللفظية » . ولكن لكل لغة كيانها - نحوها وخطها وبيانها - « فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك» . **لقد علموه فى صباه ان النحو والشعر والبلاغة لاتوجد الا فى اللغة العربية ، ولكنه الآن يكتشفها ويتذوقها فى لغة أخرى ، فيثور على تلك الفكرة الخاطئة ،**

ويدعو قارئه الى الخروج من الافق القديم الضيق :

« ثم ان اللغة الفرنساوية – كغيرها من اللغات الافرنجية – لها اصطلاح خاص بها، وعليه ينبنى نحوها وصرفها وعروضها وقوافيها وبيانها وخطها وانشاؤها ومعانيها ، وهذا ما يسمى « اغرماتيقى » . فحينئذ سائر اللغات ذات القواعد لها فن يجمع قواعدها ، سواء كانت لدفع الخطأ فى القراءة أو الكتابة فيها أو لتحسينها. فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك ، بل كل لغة من اللغات يوجد فيها ذلك . . . واذا تبحر الانسان فى لغة من اللغات ، كان عالما باللغة الاخرى بالقوة ، يعنى أنه لو ترجم له ما فى اللغة الاخرى ، وعبر له عنه كان قابلا لتلقيه ومقابلته بلغته ، بل ربما كان يعرفه من قبل ويعرف زيادة عليه ويبحث فيه ويبطل منه ما لا يقبله العقل . كيف والعلم هو الملكة ؟ »

ويشهد هذا النقد وتشهد تلك المقارنات باتساع أفق الطالب الازهرى . لقد اكتسب معنى النسبية ، وأيقن أن « العلم هو الملكة » ، لا مجموعة المتون المحدودة التى يستظهرها الحافظ ويعيدها . ألم يجالس ويناقش المستشرق الفحل « سيلفستر دى ساسى » ؟ ألم يقرأ شرحه لمقامات الحريرى ، وكتبه التى ألفها فى النحو « على ترتيب عجيب لم يسبق به أبدا » ؟ ان رفاعة يشبه هذا العلامة بالفيلسوف الفارابى ، ويستنكر « ما يتراءى من أن الاعاجم لا تفهم لغة العرب اذا لم تحسن التكلم بها كالعرب ، فهذا لا أصل له » !

أدب السوقة فى فرنسا

• **ثم** يشيد رفاعة بتغلغل العلم فى جميع شعاب الحياة الفرنسية ، حتى لدى الطباخين والسوقة : « حتى علوم السوقة ، فانها لها مدارس كمدرسة الطباخة ، يعنى مجلس علماء الطباخة وشعرائها. وان كان هذا من أنواع الهوس غير

انه يدل على اعتناء هذه البلاد بتحقيق سائر الاشياء » !
وللنساء فى التأليف والترجمة نصيب ملحوظ وفضل ثابت . وهذا شيء جديد يسجله الرحالة الصعيدى، ويدفعه الى تغيير رأيه فى المرأة .. « **فان للنساء تآليف عظيمة . ومنهن مترجمات للكتب من لغة الى أخرى ، مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ... ومن هنا يظهر لك ان قول بعض أرباب الامثال « جمال المرء عقله وجمال المرأة لسانها » لايليق بتلك البلاد، فانه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها وفهمها وعن معرفتها** » !

وأما الآداب الفرنسية « فلا بأس بها » . ولكن رفاعة لايقر جرى الشعراء على « عادة جاهلية اليونان وتأليههم مايستحسنونه » ، اذ يقولون مثلا اله الجمال واله العشق « فألفاظهم فى بعض الاحيان كفرية صريحة وان كانوا لايعتقدون ما يقولون » . ويحاول رفاعة أن يتحفنا بشيء من الشعر الفرنسى ، ترجمه هو الى شعر عربى ، فاذا بترجمته عسيرة متكلفة ، الا أنها أفادته تمرينا وممارسة وصقلا ، وعلمته ان الترجمة تذهب ببلاغة القصيدة وبحسنها ، « بل ربما صارت باردة » !

العدل : دستور وديمقراطية

• وفى الفصل الثالث يحدث رفاعة مواطنيه عن الحكومة الفرنسية ، « ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر » ! .. انه معجب بالنظام الديمقراطى .. ففيه يدافع عن الملك « ديوان البير » ويدافع عن الشعب مجلس النواب، أو « ديوان رسل العمالات » . وهو يرى فى هذا التوزيع ذكاء وأصالة وكفالة للعدالة، بل « **نكتة لطيفة : وهى ان تدبير أمر المعاملات لثلاث مراتب . المرتبة الاولى الملك مع وزرائه، والثانية مرتبة البيرية المحامية للملك ، والثالثة مرتبة رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية**

والمحامون عنهم حتى لا تظلم من أحد » .

وبعد أن يستعرض أجهزة الحكومة المختلفة ، يثنى على ذلك الدستور الفرنسى **« وان كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسوله »** ! .. ويحرص على ترجمة مواده كاملة « لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد » .

ولا يكتفى رفاعة بالترجمة، بل يعلق على المواد الرئيسية .
انه يشيد أولا بالمساواة بين الناس : « قوله فى المادة الاولى : سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة ، معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى اجراء الاحكام المذكورة فى القانون حتى انالدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره . فانظر الى هذه المادة الاولى ، فانها لها تسلط عظيمعلى اقامة العدلوأسعاف المظلوموارضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظرا الى أجراء الاحكام ! » .. ويرى رفاعة أن هذه المادة من الادلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية . فان « ما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف ، وذلك لان معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوى فى الاحكام بحيث لا يجور الحاكم على انسان، بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة ، فهذه البلاد حرية » ... **هذه شجون مصرى استنار فى عهد محمد على فأحس باستبداد الوالى . ولا تدل وجهة نظره – فى جعل « الحرية » مرادفة « للعدل والانصاف » – الا على أن الشعب فى فرنسا هو الحاكم وفى مصر هو المحكوم !**

ويشيد رفاعة بالعدل فى تحديد الضرائب وبالنزاهة فى تحصيلها ، « بحيث انها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطى وتنفع بيت مالهم » . كما يشيد بتشجيع الكفايات أينما ظهرت ، اذ أن لكل امرىء هناك الحق فى أن يتولى أى منصب تؤهله له جدارته ، وأن يصل الى أى رتبة يرفعه اليها علمه وعمله ..

ثم يسهب فى الحديث عن مبدأ حرية الرأى والنشر الذى لولاه لما استطاعت الصحافة أن تؤدى رسالتها الجليلة : « وأما المادة الثامنة فانها تقوى كل انسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره ، فيعلم الانسان سائر ما فى نفس صاحبه ، **خصوصا الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات ، فان الانسان يعرف منها سائر الاخبار المتجددة، سواء كانت داخلية أو خارجية . وان كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى ، الا أنها تتضمن أخبارا تتشوف نفس الانسان الى العلم بها . على انها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق أو تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة » !**

ويضيف رفاعة الى هذا الفصل الخطير ترجمة ما أدخل على الدستور من تعديلات بعد ثورة الشعب سنة ١٨٣٠ على الملك شارل العاشر .

البيت .. وسيدة البيت

• **ويتناول** الفصل الرابع « عادة سكنى أهل باريس وما يتبع ذلك » . وفيه يحدثنا رفاعة عن المواد التى يستخدمها الفرنسيون فى البناء ، وكيف يكسون جدران الغرف بورق منقوش ، وأرضها بخشب مصقول . ويصف ما يشمله البيت من أثاث : « وتحت أسرتهم ـ المكسوة بالمخيشات وبالمشجرات وغيرها ـ سجادات عظيمة يطؤونها بالنعال . وفى كل (أوضة) مدخنة للنار .. وفى غالب أوضهم آلة الموسيقى المسماة « البيانو » . فاذا كانت الاوضة أوضة شغل وقراءة ففيها طاولة مشتملة على آلات الكتابة وغيرها مثل سكاكين قطع الورق المصنوعة من العاج أو البقس أو غيرهما . وأغلب الاوض مشحون بالصور خصوصا صور الاقارب . وفى أوضة الشغل أيضا قد توجد صور عجيبة وأشياء من غرائب ما كان عند القدماء على اختلافهم . وربما رأيت على طاولة الشغل أوراق

الوقائع على اختلاف أجناسها . وربما رأيت كذلك فى أوض الاكابر النجفات العظيمة التى توقد بشموع العسل . وربما رأيت فى أوضهم — فى يوم تلقى الناس — طاولة وعليها جميع الكتب المستجدة والوقائع وغيرهما لتسلية من اراد من الضيوف أن يسرح ناظره ويتنزه خاطره فى قراءة هذه الاشياء . وهذا يدل على كثرة اهتمام الفرنساوية بقراءة الكتب، فهى أنسهم»

ثم يقارن هذا المجتمع — فى حسرة وسخرية — بالمجتمع المصرى المحروم من وجود المرأة : « **ثم أن جميع هذه التحف يكمل الانس بها بحضور سيدة البيت — أى زوجة صاحبه — التى تحيى الضيوف أصالة وزوجها يحييهم بالتبعية . فأين هذه الاوض بما احتوت عليه من اللطائف ، من أوضنا التى يحيى فيها الانسان باعطاء شبق الدخان من يد خادم فى الغالب أسود اللون ؟ » ...**

ويصنف رفاعة الدور، حسب احجامها ومستواها من الترف، الى ثلاث مراتب .. ثم يصطحبنا الى زيارة « حريم ملك فرنسا » ، حيث يقدر الاشياء بدرجة ما يتجلى فى صناعتها من فن لا بقيمة مادتها الاولية ، مما يدلنا على ارتقاء ذوقه :

« ومن العوايد التى لا بأس بها أن قصر ملك فرنسا وقصور أقاربه تنفتح حين خروج السلطان وأقاربه كل سنة للاقامة فى الخلاء مدة أشهر ، فيدخل سائر الناس للفرجة على بيت الملك وأقاربه .. ولكن لا يدخل أحد الا بورقة مطبوعة مكتوب فيها الاذن بدخول شخص أو شخصين أو أكثر .. فترى فى البيت ازدحاما عظيما للفرجة على جميع ما فى حريم الملك وأقاربه . **وقد دخلت ذلك عدة مرات فرأيته من الامور العجيبة التى ينبغى التفرج عليها . وفيه كثير من الصور التى لا تمتاز عن الناس الا بعدم النطق** . وفيه مصور كثير من ملوك فرنسا وغيرهم ، وكل أقارب السلطة » !

واغنياء باريس يقيمون فيها أثناء الشتاء ، أما فى الصيف

فيهجرون حرها وينزحون الى بيوتهم الريفيـة . والجميع مولعون بالرحلات ، حتى النساء !

خادم يستجير من ذبح الثيران !

• **والفصل** الخامس « فى أغذية أهل باريس وفى عاداتهم فى المآكل والمشارب » . فخبزهم من الحنطة ، يطحنونها فى طواحين الهواء والماء ، ويخبزها الفـــران فيبتاعونها من دكانه ، لان الفرنسيين يشغلون أيامهم بما هو أهم من صنـاعة الخبز فى بيوتهم كما فى مصر . والاطعمة متنوعة ، ولو عند الفقراء . ويهتم الشيخ بطريقة ذبح ما يؤكل لحمـه : « ثم أن المذابح عندهم تكون بأطراف المدينة لا داخلها . وحكمة ذلك أمران : دفع الوخم ، ودفع أضرار البهائم اذا انفلتت . وكيفية الذبح تختلف عندهم . فأما ذبح الضأن فانه أهون من ذبح غيره ، فانهم ينفذون السكين وراء زوره (أى حلقه) يعنى بين زوره ورقبته ثم يقطعونه بعكس ما نفعل . وأما ذبح العجول فانه مثله . وأما الثيران فيضربونها بمقامع من حـديد فى وسط رأسها فيدوخ من عظم الخبط ، ثم يكررون ذلك عدة مرات فيقطع الثور النفس مع بقاء الحركة ، ثم يذبحونه كما تقدم من ذبح الضأن . **ولقد بعثت خادما لى مصريا الى المذبح ليذبح ما اشترى منه كما هو عادتى ، فلما رأى معاملة الثيران بمثل ذلك الامر البشع جاء يستجير ويحمد الله تعالى حيث لم يجعله ثورا فى بلاد الافرنج والا ذاق العذاب كالثيران التى رآها »!..**

على أن هناك المطاعم ، وهى أماكن فاخرة ، أكثر استعدادا من البيوت لتقديم المأكل والمشرب .. ويعود رفاعة الى وصف المائدة وآدابها وترتيب قائمة الطعام ، مندهشـــا من اقلال الفرنسيين من شرب الخمر ومن التغنى بها كشعراء العرب المتفننين فى « الخمريات » . ومع ذلك ، فانه يروى فى ختام الفصـــل ما وقع له ذات ليلة مع ســكير خارج من احدى

« الخمارات » : « وأما خماراتها فانها لا تحصى . فما من حارة الا وهى مشحونة بهذه الخمارات . ولا يجتمع فيها الا أراذل الناس وحرافيشهم مع نسائهم . ويكثرون الصياح وهم خارجون منها بقولهم مامعناه « الشراب . الشراب » ! ومع ذلك فلا يقع منهم فى سكرهم أضرار أصلا . وقد أتفق لى ذات يوم وانا مار فى طريق باريس ، أن « سكران » صاح قائلا : « يا تركى .. يا تركى ! » وقبض بثيابى . **وكنت قريبا من دكان يباع فيه السكر ونحوه ، فدخلت معه ، وأجلسته على كرسى وقلت لرب الحانوت على سبيل المزح : « هل تريد أن تعطينى بثمن هذا الرجل سكرا أو نقلا ؟ » . فقال صاحب الحانوت : « ليس هنا مثل بلادكم يجوز التصرف فى النوع الانسانى » . فما كان جوابى له الا أننى قلت : « ان هذا الشخص السكران ليس فى هذا الحال من قبيل الآدميين » .** وهذا كله والرجل جالس على الكرسى ولا يشعر بشىء . ثم تركته بهذا المحل وذهبت .. »

ملابس الفرنسيس : من النظافة الى الخلاعة

• **وفى** الفصل السادس ـ عن « ملابس الفرنسيس » ـ يثنى رفاعة على « لبس القمصان والالبسة والصديريات تحت ملابسهم ، فان الموسر يغير فى الاسبوع عدة مرات ، وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش (القمل) .. ثم يطنب فى وصف ملابس النساء ويستحسنها :

« وملابس النساء ـ فى بلاد الفرنسيس ـ لطيفة ، بها نوع من الخلاعة ، خصوصا اذا تزين بأغلى ما عليهن . ولكن ليس لهن كثير من الحلى ، فان حليهن هو الحلق المذهب فى آذانهن ونوع من الاساور الذهب يلبسنه فى أيديهن خارج الاكمام ، وعقد خفيف فى أجيادهن . وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبدا . ولبسهن فى العادة الاقمشة الرقيقة من الحرير أو الشيت أو

البفت الخفيف . ولهن فى البرد شريط فروة يضعنه على رقابهن ويرخين طرفيه كالمآزر حتى يصل بطرفيه الى قرب القدمين . ومن عوايدهن أن يحتزمن بحزام رفيع فوق أثوابهن ، حتى يظهر الخصر نحيفا ويبرز الردف كثيفا ... **ومن العجائب أنه يمكن الانسان أن يضع يديه فى الخصر - وقت الحزام - فترى يديه لدقته . ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيبا من صفيح من البطن الى آخر الصدر حتى يكون قوامهن دائما معتدلا لا اعوجاج به . ولهن كثير من الحيل !** ومن خصالهن التى لا يمكن للانسان أن يستحسنها منهن ، عدم ارخائهن الشعور كعادة نساء العرب ، فان الفرنسيس يجمعن الشعور فى وسط رؤوسهن، ويضعن فيه دائما مشطا ونحوه . **ومن عوايدهن فى أيام الحر كشف الاشياء الظاهرية من البدن ، فيكشفن من الرأس الى ما فوق الثدى ، حتى انه يمكن أن يظهر ظهرهن . وفى ليالى الرقص يخلعن عن أذرعتهن .** وبالجملة فلا يعد ذلك من الامور المخلة عند أهل هذه البلاد . ولكن لا يمكن لهن أبدا كشف شىء من الرجلين ، بل هن دائما لابسات للشرابات الساترة للساقين ، خصوصا فى الخروج الى الطرق . وفى الحقيقة سيقانهن غير عظيمة أصلا » ! . .

المسرح .. لاول مرة فى الادب العربى

• **والفصل** السابع تقرير ثمين عن الملاهى فى باريس، يعرف رفاعة قارئه أولا بالمسرح ، وبرسالته الثقافية والاخلاقية ورغم املاق اللغة العربية من الالفاظ والمصطلحات الفنية اللازمة لتسمية ما يضمه المسرح ، لا يحجم رفاعة عن وصف قاعة التمثيل ، ومراحل « اللعب » ، ويشبه « اللاعبين واللاعبات » بالعوالم ... **ان هذه الصفحة الساذجة لوثيقة هامة يؤرخ بها دخول المسرح الحديث الى الادب العربى المعاصر:**

« فمن مجالس الملاهى عندهم محال تسمى « التياتر »

و « السبكتاكل » ، وهى يلعب فيها تقليد سائر ما وقع . وفى الحقيقة أن هذه الالعاب هى جد فى صورة هزل . فان الانسان يأخذ منها عبرا عجيبة . **وذلك لانه يرى فيها سائر الاعمال الصالحة والسيئة ومدح الاولى وذم الثانية ، حتى أن الفرنساوية يقولون انها تؤدب أخلاق الانسان وتهذبها . فهى وان كانت مشتملة على المضحكات فكم فيها من المبكيات ! ...** وصورة هذه التياترات أنها بيوت عظيمة لها قبة عظيمة وفيها عدة أدوار ، كل دور له (أود) — أى مقصورات — موضوعة حول القبة من داخلة . وفى جانب من البيت مقعد متسع يطل عليه من سائر هذه الاود ، بحيث أن سائر ما يقع فيه يراه من هو فى داخل البيت . وهو منور بالنجفات العظيمة . وتحت ذلك المقعد محل للآلاتية .. يتصل بأروقة فيها سائر آلات اللعب ، وسائر ما يصنع من الاشياء التى تظهر ، وسائر النساء والرجال المعدة للعب . ثم أنهم يصنعون ذلك المقعد كما تقتضيه اللعبة . فاذا أرادوا تقليد سلطان مثلا — فى سائر ما وقع منه — وضعوا ذلك المقعد على شكل سراية ، وصوروا ذاته وأنشدوا أشعاره وهلم جرا . ومدة تجهيز المقعد يرخون الستارة لتمنع الحاضرين من النظر ، ثم يرفعونها ويبتدئون باللعب ... **والنساء اللاعبات والرجال يشبهون العوالم فى مصر . واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم وفصاحة . وربما كان لهؤلاء الناس كثير من التآليف الادبية والاشعار . ولو سمعت ما يحفظه اللاعب من الاشعار ، وما يبديه من التوريات فى اللعب ، وما يجاوب به من التنكيت والتبكيت ، لتعجبت غاية العجب ! ..** ثم أنهم يبتدئون اللعب بآلات الموسيقى ، ثم يلعبون ما يريدون لعبه ... فاذا أرادوا مثلا لعب شاه العجم ، ألبسوا لاعبا لبس ملك العجم ، واحضروه وأجلسوه على كرسى وهكذا .. وهذه السبكتاكلات يصورون فيها سائر ما يوجد حتى أنهم قد يصورون فرق البحر لموسى



عليه السلام ، فيصورون البحر ويجعلونه يتماوج حتى يشبه البحر شبها كليا .. ولهم أشياء أغرب من هذا . وبالجملة فالتياتر عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل .. »

حفلات الرقص وآداب السلوك فيها

• **ويحدد** رفاعة أنواع « التياتر » و « السبكتاكل » الباريسية ، من الاوبرا الى السرك . ثم يتحدث عن لون آخر من اللهو وهو « البال » أى حفلة الرقص : « والبال قسمان : بال عام ، ويدخله سائر الناس ـ كالبال فى القهاوى والبساتين ـ وبال خاص ، وهو أن يدعو الانسان جماعة للرقص والغناء والنزهة ونحو ذلك ، كالفرح فى مصر . والبال دائما مشتمل على الرجال والنساء . وفيه وقدات عظيمة وكراسى للجلوس . **والغالب أن الجلوس للنساء ، ولا يجلس أحد من الرجال الا اذا اكتفت النساء . واذا دخلت امرأة على أهل المجلس ولم يكن ثم كرسى خال ، قام لها رجل وأجلسها . ولا تقوم لها امرأة لتجلسها ، فالانثى دائما فى المجالس معظمة أكثر من الرجل» ...**

ولا يفوته أن ينبه قارئه الى جمال هذه الرقصات التى يشترك فيها الرجال والسيدات ، وهم جميعا فى أفخر حللهم وزينتهم ، وكأنهم يؤدون حركات رياضية مهذبة راقية ، على حين بات الرقص فى مصر وسيلة لتهييج الشهوات : « وقد قلنا أن الرقص عندهم فن من الفنون . وقد أشار اليه المسعودى فى تاريخه المسمى مروج الذهب ، فهو نظير المصارعة فى موازنة

الاعضــاء ودفع قوى بعضهــا الى بعض . فليــس كل قوى يعرف المصارعة بل قد يغلبه ضعيف البنيــة بواسطة الحيل المقررة عنـدهم .. وظهــر أن الرقص والمصــارعة مرجعهما شيء واحـد يعرف بالتــأمل . **ويتعلق بالرقص فى فرنســا كل النــاس ، وكأنه نوع من ((العيــاقة)) و ((الشلبنــة)) لا من الفسق .. فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياء بخلاف الرقص فى أرض مصر فانه من خصوصيات النساء لانه لتهييج الشهوات))** ... ويسهب رفاعة فى وصف الرقصات ، وتخاصر الراقصين ، ويقول : ((وبالجملة فمس المـرأة أيا ما كانت فى الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى))!..

ويختم رفاعة هــذا الفصل بجولة فى حدائق باريس ، من (الشانزليزيه) الى الشوارع الكبرى ــ ((البولفار)) ــ حيث يتنزه العشــاق ليلا . ويأخذه الطرب ، فيخــرج من أعماق ذاكرته أبيات من الشعر القديم عن الليل والغرام !.. ويتدرج المؤلف من ذلك الفصل الى الفصل التالى بعبارة بارعة: ((وبالجملة فلا يمكن ان الانسان يتمتع بهذه المتنزهات الا بصحة البدن)). **ذلك أنه يريد أن يشرح لنا الآن ((سياسة صحة الابدان بمدينة باريس))** . غير أنه لايكاد يذكر تحت هذا العنوان الا الحمامات ــ مقارنة اياها بحمامات مصر ــ ومدارس الرياضة البدنية .

وأما الحديث عن الطب ، وما بلغته فيــه باريس من تقدم ، فهو موضوع الفصل التاسع الطويل . ويضيف ((رفاعه)) الى هذا الفصل ((نبذة)) فى الطرق الطبيعية للعناية بالصحة يوجهها الى صحاح البدن والى المرضى والى الناقهين ويعنونها **((نصيحة الطبيب))** ، وهو ترجمة لكتيب شعبى من نشرات بعض الهيئات الطبية الفرنســية .. ويعود فى الفصــل العاشر ــ ((فى فعل الخير بمدينة باريس)) ــ الى ذكر مختلف المستشفيات . ثم يتحدث رفاعة عن الجمعيات الخيرية ، وعن ملاجىء اللقطاء ، والعمي ، والشيوخ ، وجرحى الحرب ، وعن ((دواوين الاحسان))

ـ أى المكاتب التى تتولى اعانة المحتاجين واغاثة المنكوبين ـ. وعن مراكز اسعاف المصابين .

حديث فى الاقتصاد والمواصلات

• **والفصل** الحادى عشر « فى كسب مدينة باريس ومهارتها ». ان حب العمل والسعى الى الكسب متأصلان فى نفوس هؤلاء الناس « حتى أن كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم فى الذم هى لفظة الكسل والتنبلة » !.. ويستعرض رفاعة تجاراتهم ، وأولها « معاملات الصيارفة » ، أى البنوك . . ثم يعرف بشركات التأمين ، التى يسميها « جمعية الشركاء فى الضمانة » . ويعدد أنواع المصانع ، وفوائد المعارض ، والمواد التى يدرسها الطلبة فى معاهد التجارة .. ومما يساعد على رواج التجارة ، تيسير المواصلات ، وانتظام البريد ، ودعاية الصحف للسلع أو توزيع الاعلانات عنها .

وكانت عربات «الاومنيبوس» جديدة فنوه بها رفاعة : **«وقد تجددت الآن عربات كبيرة تسمى «الامنيبوسة»» ، ومعناها «لكل الخلق » وهى عربات كبيرة تسع كثيراً من الخلق مكتوب على بابها أنها تمشى الى الحارة الفلانية ، فكل الناس الذاهبين الى حارة واحدة يركبونها ويدفع كل منهم قدراً معيناً » .**

ويشرح رفاعة لقارئه فى كثير من البساطة ما هو البريد : «وأما البريد المسمى عند الفرنسيس «البسطة»» ، فانه من أهم المصالح النافعة فى التجارات وغيرها . يسهل فيه أخبار الغير بواسطة المكاتبات التى تذهب عاجلا ويأتى ردها فى أسرع مايكون . وتدبيرها بكيفيتها التى هى عليها من أعظم ما يمكن . فان المكاتيب التى تبعث فى البلد أو العمالة ، تصل الى صاحبها من غير شك ، **لان سائر البيوت مكتوب عليها بالرقم عددها المسمى النمرة ، فبها يمتاز البيت عما عداه . والمكتوب الذى يبعثه الانسان ، تضعه فى محل المكاتيب الموضوع فى كل حارة،**

فيأتى الساعى ويأخذه ، فيصل المكتوب الى الحارة الاخرى ويأتى رده فى يومه. ثم ان الفرنساوية يحترمون أمور المراسلات غاية الامكان ، فلا يمكن الانسان أن يفتح مكتوبا معنونا باسم آخر ولو كان متهما بشىء . ولما كان احترام المراسلات بباريس على هذه الحالة ، كثرت الرسائل بين الاحباب والاصحاب »!

ولقد فطن الفرنسيون الى ان الاقتصاد من اهم قواعد الثروة الفردية والوطنية، واشتد اهتمامهم بالتوفير و « تدبير المصاريف »، حتى جعلوا من الاقتصاد علما ذا مقدمات ونتائج . ولا يفوت الصعيدى الذكى أن يتهكم على المسرفين من مواطنيه قائلا : « **ومن جملة أسباب غنى الفرنساوية انهم يعرفون التوفير وتدبير المصارف ، حتى أنهم دونوه وجعلوه علما متفرعا من تدبير الامور الملكية. ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى. فمن ذلك عدم تعلقهم بالاشياء المقتضية للمصاريف ..** فان الوزير مثلا ليس له أزيد من نحو خمسة عشر خادما ، واذا مشى فى الطريق لا تعرفه من غيره ، فانه يقلل أتباعه ما أمكنه داخل داره وخارجه ... فانظر الفرق بين باريس ومصر حيث أن العسكرى فى مصر له عدة خدم » !!

الدين والعبادة عند الفرنسيين

• **والفصل** الثانى عشر « فى دين أهل باريس » . والفرنسيون، فيما عدا قليل من اليهود ، ومن « البروتستانت » ، يدينون « بالنصرانية القاثوليقية » ، **وفى أكثر الاحيان « ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم ، فهم داخلون فى اسم الكتابيين ، ولا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجبه »** . بل ومن الفرنسيين من ينكر العقائد ، ولا يؤمن الا بما يقبله العقل ..

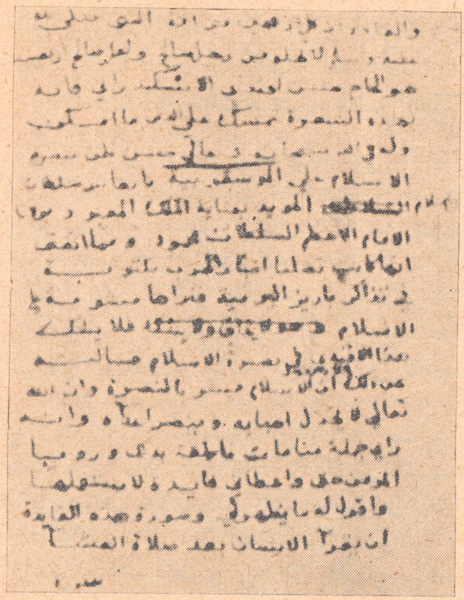
وقد عرض رفاعة مخطوط كتابه على المستشرق « سيلفستر دى ساسى » ، فعلق على هذا الجزء مصححا تعميمه بنظرات أدق، مكملا اللوحة بما غاب عن بصر الشيخ الامام من التفاصيل .

ونشر رفاعة تعليق دى ساسى ، فكان نشره مثالا لتعلقه بحرية الرأى :. « قولك ان الفرنساوية ليس لهم دين البتة ، وانهم ليسوا نصارى الا بالاسم ، فيه نظر . نعم ، ان كثيرا من الفرنساوية خصوصا من سكان باريس ليسوا نصارى الا بالاسم فقط .. تشغلهم أمور الدنيا عن ذكر الآخرة .. ولكن فيهم أيضا من يقيم على دين آبائه ، يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل الصالحات . وهم طائفة لاتحصى من الرجال والنساء ، ومن العوام والخواص ، بل ومن المشهورين بفضل العلم والادب »!

اللغة وسيلة لتيسير العلوم

• **والفصل** الثالث عشر فصل طويل عن « تقدم أهل باريس فى العلوم والفنون والصنائع » ، يحرص فيه المبعوث على نقل صورة وافية عن الحياة الفكرية فى العاصمة الفرنسية . انه نعجب اعجابا لا حد له بالعلوم التجريبية ونتائجها المحققة بفضل الاجهزة والمعامل المتخصصة ، ولكنه يحذر قارئه المؤمن من « الخوض فى لغة الفرنساوية المشتملة على شيء من الفلسفة » ، لان لهم « فى العلوم الحكمية حشوات خلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان ردها » . **ترى الى أية قضية علمية يشير رفاعة ؟ ان كتاب « تخليص الابريز » المطبوع قد حذف تتمة هذه العبارة التى نجدها فى المخطوط : « كالقول بدوران الارض ونحوه » !**

على أن اللغة الفرنسية ، بوضوحها ودقتها ، وتوفيرها على الاسلوب عناء التطبيقات البلاغية ــ التى تعوق تيار الفكر لدى المعبر باللغة العربية ــ قد أصبحت أداة مثالية للابحاث العلمية. وما أصدق هذه الشكوى بقلم خريج الازهر القديم : « ومن جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم فى العلوم والفنون ، سهولة لغتهم وسائر مايكملها .. فأى انسان له قابلية وملكة صحيحة ، يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أى كتاب كان ، حيث أنه لا التباس



.. وهذه صفحة من أصل مسودة ((تخليص الابريز)) ـ بخط رفاعة ـ وقد حذفها عند طبع الكتاب

فيها أصلا ، فهى غير متشابهة . واذا أراد المعلم أن يدرس كتابا لايجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا ، فان الالفاظ مبينة بنفسها . **وبالجملة فلا يحتاج قارىء أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر .. بخلاف اللغة العربية مثلا ، فان الانسان الذى يطالع كتابا من كتبها فى علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ، ويدقق فى الالفاظ ما أمكن ، ويحمل العبارة معانى بعيدة عن ظاهرها** . وأما كتب الفرنسيس فلا شىء من ذلك فيها ... مثلا اذا أراد الانسان أن يطالع علم الحساب، فانه يفهم منه ما يخص الاعداء من غير أن ينظر الى أعراب العبارات وأجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات،

والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة لتجنيس وقد خلت عنه وان المصنف قدم كذا ولو آخره كان أولى » ...

دعوة الى التخصص وفصل العلم عن الدين

• **ويقارن** رفاعة بين علماء باريس ـ الذين يتوجون دراساتهم العامة الطويلة بالتخصص فى فرع واحد يبتكرون فيه بحثا جديدا ـ وبين «علماء» الازهر، الذين يحصرون العلم فى دائرة المواد الشرعية . ويبين كيف أدى هذا التضييق الى أملاق المدارس العربية من العلم بمعناه الحديث . وأنها لصفحة جريئة يريد أن يفتح بها رفاعة أعين معاصريه :

« وأما علماؤهم فانهم منزع آخر لتعلمهم تعلما تاما عدة أمور واعتنائهم زيادة على ذلك بفرع مخصوص، وكشفهم كثيرا من الاشياء ، وتجديدهم فوائد غير مسبوقين بها . فان هذه عندهم هى أوصاف العالم . **وليس عندهم كل مدرس عالما ولا كل مؤلف علامة، بل لابد له من درجات معلومة ، فلا يطلق عليه ذلك الاسم الا بعد أستيفائها والارتقاء . ولا تتوهم ان علماء الفرنسيس هم القسوس، لان القسوس أنما هم علماء فى الدين فقط . وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا** . وأما من يطلق عليه اسم العالم، فهو من له معرفة فى العلوم العقلية التى من جملتها علم الاحكام والسياسات .. فاذا قيل فى فرنسا : «هذا الانسان عالم» ، لا يفهم منه أنه عالم فى دينه ، بل أنه يعرف علما من العلوم الاخرى .. وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى فى العلوم عمن عداهم ، وبذلك تعرف خلو بلادنا من كثير منها ، وان الجامع الازهر المعمور بمصر القاهرة ، وجامع بنى أمية بالشام ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بفاس ، ومدارس بخارى ونحو ذلك، كلها زاهرة بالعلوم النقلية وبعض العقلية ، كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية . والعلوم فى مدينة باريس تتقدم كل يوم فهى دائما فى الزيادة.

فانها لاتمضى سنة الا ويكشفون شيئا جديدا . فانهم قد يكشفون فى السنة عدة فنون جديدة أو وسايط أو تكميلات» ...

الصحافة .. بين الثقافة والكذب !

• **ثم** يستعرض دور الثقافة والتعليم ، من المكتبات العامة والخاصة ، الى متاحف النبات والحيوان والجيولوجيا ، ومن المرصد الى « الاكاديميات » المختلفة ، والكليات والمدارس و «البنسيونات» . ويشتد اعجاب « رفاعة » بنشاط تجارة الكتب ، وبكثرة المنشورات والدوريات، ويعود الى ذكر فوائد الصحف ، فانه يكتشف الصحافة اكتشافا :

« ومن الاشياء التى يستفيد منها الانسان كثير الفوائد الشاردة، التذاكر اليومية المسماة «الجرنالات» جمع جرنال ... وهى ورقات تطبع كل يوم وتذكر كل ما وصل اليهم علمه فى ذلك اليوم ، وتنشر فى المدينة ، وتباع لسائر الناس ، وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر القهاوى . **وهذه الجرنالات مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول ما يخطر لها وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسنا أو قبيحا وأن تقول رأيها فى تدبير الدولة ، فلها حرية تامة ما لم تضر بذلك ، فانه يحكم عليها وتطلب بين يدى القاضى ... ولا يوجد فى الدنيا أكذب من الجرنالات أبدا ، خصوصا عند الفرنسيس الذين لايتحاشون الكذب الا من حيث كونه عيبا !** وبالجملة فكتاب «الجرنو» ـ أى الصحف ـ أسوأ حالا من الشعراء عند تحاملهم أو محبتهم . والجرنالات مختلفة الانواع والاصناف ، فمنها ما هو معد لذكر أخبار داخل مملكة الفرنسيس وخارجها، ومنها ما هو مخصوص بأمور المملكة فقط ، وما هو للمعاملات ، وما هو للطب ، ولكل علم على حدته كعلم الطب الى آخره »

هكذا تعلم « رفاعة » ..

• **وفى** المقالة الرابعة يعرف رفاعة قارئه بالثقافة التى حصلها

فى باريس وبمراحل دراسته وامتحاناته ونظام البعثة . ففى الفصل الاول من هذه المقالة يذكر ذلك الكتاب الصغير المبسط المصور ، الذى تعلم فيه مبادىء قراءة اللغة الفرنسية بتقطيع الالفاظ ، ويثنى على منهجه التربوى ، « فهذه الطريقة يتعلم الانسان منها الكتابة ، ويحفظ هذه الكلمات وينطق بها كما ينبغى ، حتى تخرج لغته من صغره صادقة الجودة . ثم بعدها تلقى فى هذه الكتب عدة جمل سهلة التعقل تناسب الصغار »!

ثم يسجل البرنامج الذى اتبعه المبعوثون مدة عام تقريبا فى « بيت الافندية » ، قبل أن يتفرقوا فى عدة « بنسيونات » ، يخالطون فيها التلاميذ الفرنسيين ليتقدموا فى اللغة ويفيدوا من الدروس .. **ويذكر كيف أن المبعوثين كانوا يمنحون « بثلثمائة قرش خشب للتدفى بها » فى السنة ، لشدة البرد ، فضلا عن انه « كان يشترى لنا من طرف الميرى أيضا القمصان والسراويل والنعال ، وسائر مايلزم من الآلات والادوات مثل الكتب والورق والحبر وأقلام التصوير وغيرها . ومما ينبغى ذكره أيضا ما كان يعطى للحكماء والاجزاجية فى مداواة من كان يمرض منا ... ولكثرة هذه المصاريف فى تعليمنا وغيره من سائر ما ذكرنا كان ناظر التعليم أو الضابط علينا يذكرنا به فى اغلب الاوقات لنجتهد » !**

وفى الفصل الثانى ــ وعنوانه « فى تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج » ــ يسرد رفاعة موادا للائحة التى وضعها المشرفون على البعثة . كما يتناول فى الفصل الثالث ــ عن « ترغيب ولى النعم لنا فى الشغل والاجتهاد » ــ الخطابات التى كان يرسلها محمد على لهؤلاء الطلبة فى باريس ، مترجمة عن اللغة التركية .. ويواصل رفاعة نشر الرسائل ، فيوافينا فى الفصل الرابع بما كتبه اليه المستشرقان « سيلفستر دى ساسى » و« كوسان دى بيرسفال » عن «تخليص الابريز» ، كما يضيف ترجمته لخطاب آخر يسأله فيها المستشرق « جوزيف رينو »

عن الكتب التى ترجمها عن الفرنسية . ثم يستعرض ــ فى الفصل الخامس ــ الكتب التى درسها فى النحو والتاريخ والرياضة والجغرافيا والمنطق والادب الفرنسى .

ينفق مرتبه فى الاستزاده من العلم

• **وأخيرا** يصل «رفاعة» ــ فى الفصل السادس ــ الى ذكر الامتحانات التى أداها والجوائز التى نالها. ويترجم لنا مانشره «جومار» عن امتحانه النهائى فى « المجلة الموسوعية » . وذلك النص ، بالاضافة الى شهادة أستاذه «شفاليبه» ، خير تقرير عن بعثته . يقول أستاذه :

« أشهد أنى مدة نحو الثلاث سنوات ونصف التى مكثها التلميذ المذكور عندى لم أر منه الا أسباب الرضى ، سواء فى تعليمه أو فى سلوكه المملوء من الحكمة والاحتراس ، وحسن خلقه ولين عريكته » .. ويعدد العلوم التى درسها رفاعة ، ثم يضيف أن هذا صرف جهده مع غاية الغيرة فى الترجمة التى هى صنعته المختارة له ... **« ومما ينبغى التنبيه عليه أن غيرة « مسيو الشيخ رفاعة » تناهت به الى أن أدته الى أن شغله مدة طويلة فى الليل تسبب عنه ضعف فى عينه اليسار، حتى احتاج الى الحكيم الذى نهاه عن مطالعة الليل ، ولكن لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه . ولما رأى أن الاحسن فى اسراع تعليمه أن يشترى الكتب اللازمة له ــ غير ماسمح به الميرى ــ وان يأخذ معلما آخر ، غير معلم الميرى ، أنفق جزءا عظيما من ماهيته فى شراء كتب وفى معلم مكث معه أكثر من سنة »**

ولقد شهد رفاعة فى باريس ــ قبيل عودته الى مصر ــ ثورة الشعب الفرنسى على حكومة الملك شارل العاشر ، فى يوليه سنة ١٨٣٠ ، فأفرد المقالة الخامسة من كتابه لرواية هذا الحدث التاريخى . والفصل الاول من هذه المقالة تمهيد

يحاول فيه رفاعة المؤرخ أن يستنبط «علة خروج الفرنساوية عن طاقة ملكهم» ، متتبعا اتجاهات الاحزاب المختلفة منذ الثورة الكبرى سنة ١٨٩٠ (والاغلب انه يقصد ١٧٩٠) .
والفصل الثانى عرض لاوامر الملك التى أطاحت بحرية النشر وأقامت الرقابة على الصحف والمطبوعات ، وما تلا ذلك من اضراب الصحف والعمال وغضب الشعب على الحكومة ، ونشوب حرب أهلية . **والفصل الثالث يستنكر موقف الملك المعادى لحرية الشعب ، ويقص كيف أفضى به عناده الى التنازل عن العرش وخلع الملكة على ابنه ، ولكن بعد فوات الاوان ، فقد رأى مجلس النواب أن يخلفه «الدوق دورليان» .**
ويتتبع الفصل الرابع الخطوات الدستورية التى اتخذت لتولية هذا الدوق ملكا للفرنسيين – لا لفرنسا – باسم «لويس فيليب»
ثم يروى الفصل الخامس كيف قبض الشعب على وزراء شارل العاشر وكيف حاكمهم . ويذكرنا اعجاب رفاعة بنظام القضاء الفرنسى ، بما سبق من اعجاب الجبرتى به فى حديثه عن قضية اغتيال « كليبر » فى القاهرة . **ويصور لنا الفصل السادس دهشة «رفاعة» وهو يستطلع فى شغف سخرية الفرنسيين من ملكهم المخلوع برسوم كاريكاتورية تظهر فى الصحف أو تلصق على الجدران ، وينشر فضائحه فى أوراق مطبوعة . وهذا فى نظره أكبر دليل على حرية الرأى هناك .**
ويحاول الفصل السابع أن يحيط بنتائج هذه الثورة من الناحية الدولية ، فقد أخذت كثير من الامم الصغيرة تطالب باستقلالها أسوة بالشعب الفرنسى ، وتحفز ملوك أوربا للنيل من فرنسا .
لقد كتب رفاعة فى وضوح وذكاء ذلك التاريخ الذى عاصره فى باريس ورجع اليه فى مقالات الصحف .

... تلخيص باريز

• **والمقالة** السادسة والاخيرة من «تخليص الابريز» ، كتيب

تعليمى مستقل يقدم لمحات من المواد التى سافر الطلبة ليحصلوها فى باريس . فهو يبدأ - فى الفصل الاول - بشرح تصنيف الاوربيين للعلوم ، مقارنا مذهبهم فى ذلك بمذهب العرب . ويتوقف - فى الفصل الثانى - عند علم اللغة ليقارن بين قواعد الفرنسية وقواعد العربية .. ولقد حاول عبثا أن يجد فى النثر الفرنسى مثل ألعاب البلاغة التى اعتادها ! ثم ينظر فى الشعر ، فيردد ما سبق أن نبه اليه زملاءه الازهريين : « نظم الشعر غير خاص بلغة العرب » . وينتهز هذه الفرصة فيملأ خمس صفحات بمختارات من « أحسن القصائد والمقطعات » ، تدلنا على ذوقه الادبى وأذواق معاصريه .

والفصل الثالث « فى فن الكتابة » ، يؤكد لنا اتجاه رفاعة الجديد الى الدراسات المقارنة ، فهو يستعرض الحروف الهجائية فى عدة لغات ويوازن بينها . ويعود - فى الفصل الرابع - الى « علم البلاغة » ، فيعرف بموضوعه ، ويكرر أن « هذا العلم بهذه الحيثية ليس من خواص اللغة العربية بل قد يكون فى أى لغة كانت من اللغات » ، كما يكرر أن القيم الجمالية للتعبير تختلف من بيئة الى أخرى .

وينتقل - فى الفصل الخامس - الى « المنطق » ، فيعدد مباحثه ومبادئه ، ويترجم - فى الفصل التالى - « المقولات العشر المنسوبة الى أرسطو » عن كتاب المنطق الشهير الذى درسه فى باريس « منطق بو رويال » . وبعد أن يتحدث - فى الفصل السابع - عن « علم الحساب المسمى باللغة الافرنجية الاريتماطيقى » ، يقدم « نبذة » من الجغرافيا تحدد أقسامها الكبرى : جغرافيا طبيعية ، جغرافيا رياضية ، جغرافيا سياسية ، الخ . ولما كان « التاريخ » علما جديرا بالاهتمام ، فقد رأى رفاعة أن يترجم للقارىء من نثر استاذه « جوزيف أجوب » صفحتين بليغتين عن العبر التى يستمدها من دراسة ماضى الانسانية . ويصرح رفاعة فى ختام مقالته

بأنه تكفل بنقل هذين العلمين لمواطنيه .

الخاتمة ..

• **هكذا** قدم رفاعة لنا رحلته وثمرتها ، ولم يبق عليه الآن الا أن يكتب « الخاتمة » . وانه ليستهلها بمدح « ولى النعم » ورؤساء البعثة الذين عادوا ليشغلوا مناصب عليا . مدح أجوف ، فى جمل متكلفة مسجوعة . ثم يصف رفاعة طريق عودته من باريس . وقد وقفت به العربة فى « فونتنبلو » حيث أوحى اليه القصر التاريخى الذى زاره ، بوجوب العناية بالآثار المصرية القديمة . ويورد آراء العلماء المحدثين فى الاهرام حتى يقابلها القارىء بما ذكره فيها المؤرخون العرب « من الاوهام » . **وهنا نلمس الوعى الجديد الذى يدفع هذا الصعيدى الناهض الى المطالبة بحماية آثار أصبح يقدر قيمتها الوطنية والجمالية . بل انه يعارض محمد على فى انعامه على فرنسا بالمسلة التى نقلت الى باريس : « وأقول حيث أن مصر أخذت الآن فى أسباب التمدن والتعلم على منوال بلاد أوربا ، فهى أولى وأحق بما تركه لها سلفها من أنواع الزينة والصناعة . وسلبه منها شيئا بعد شىء ، يعد عند أرباب العقول من اختلاس حلى الغير للتحلى به ، فهو أشبه بالغصب » !**

ثم يستأنف رفاعة استعراض المدن التى مر بها ، ووصف رحلته الى الاسكندرية .. على أنه لا يضع القلم قبل أن يصارحنا بخلاصة رأيه فى الفرنسيين والفرنسيات :

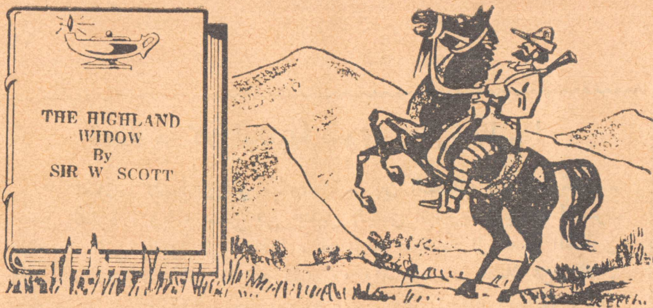
« ظهر لى بعد التأمل فى آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شبها بالعرب منهم بالترك وغيرهم من الاجناس . وأقوى مظنة القرب بأمور كالعرض والحرية والافتخار . ويسمون العرض شرفا ، ويقسمون به عند المهمات ، واذا عاهدوا عليه وفوا بعهودهم .. ولا يظن بهم أنهم لعدم غيرتهم على نسائهم لا عرض لهم فى ذلك ، حيث أن

العرض يظهر فى هذا المعنى أكثر من غيره ، لانهم وان فقدوا الغيرة لكنهم اذا علموا عليهن شيئا كانوا أشر الناس عليهن وعلى أنفسهم وعلى من خانهم فى نسائهم . **غاية الامر أنهم يخطئون فى تسليم القياد للنساء ، وان كانت المحصنات لا يخشى عليهن شىء** ... وحيث أن كثيرا ما يقع السؤال على حالة النساء عند الافرنج كشفنا عن حالهن الغطاء . وملخص ذلك أيضا أن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن . بل منشأ ذلك التربية الجيدة أو الخسيسة ، والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبة ، والالتئام بين الزوجين . **وقد جرب فى بلاد فرنسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات الى الرتبة الوسطى من الناس ، دون نساء الاعيان والرعاع » !**

ويعجب رفاعة « بمروءة » الفرنسيين ، ويتأسف لضعف هذه الصفة لدى العرب من معاصريه : « وهذه الصفة من الصفات الموجودة عند العرب والمركوزة فى طباعهم الشريفة ، وان كانت الآن قد تلاشت فيهم واضمحلت فانما هو لكونهم قاسوا مشاق الظلم ونكبات الدهر وأحوجهم الحال الى التذلل والسؤال » .. وأما الحرية التى يعتز بها الفرنسيون، فقد كانت أيضا من أهم ما يعتز به العرب ، ورفاعة يستشهد على ذلك بأمثلة من تاريخ العرب وأشعارهم ..

ولا ينسى رفاعة الوفى أن يشكر « مسيو جومار » لتفانيه فى خدمة المبعوثين .. وفى الختام ، قبل أن يرفع الكاتب الدعاء التقليدى بالتوفيق للحكومة ، نحس أنه يدافع عن نفسه « من قال الناس وقيلهم » ، فى حزم وتواضع معا .





الهارب!

قصة صراع بين العاطفة والواجب

للقصصي الخالد: "سير ولتر سكوت"



تلخيص : أنطون العبيدي

قصة ما كان ليكتبها سوى روائى عظيم !

◆ امتاز « السير وولتر سكوت » ـ بين الكتاب الكلاسيكيين ـ بعمق الفكرة ، وبأنه يمضى فى تحليل النفس البشرية وئيدا ، لتتسرب الأضواء التى يلقيها الى أعماقها ، ثم ترتد منعكسة الى نفس القارىء وذهنه ، ناقلة اليه كل ما تقع عليه .. وقد عرف ـ فضلا عن ذلك ـ بأنه أستاذ فى ابتداع شخصيات قصصه ، وفى ابتكار أحداثها ، وفى تهيئة الجو والظروف المحيطة بها .. وهو ـ فى هذه القصة ـ ينقل القارىء نقلا الى المناطق الجبلية فى (اسكتلندا) القديمة ، التى كانت تسودها ضراوة البداوة ، والتى لم تكن قد خضعت بعد لحكم القانون والنظام ..

ويقول الناقد الأدبى الكبير « لورد ديفيد سيسيل » عن هذه القصة ، ان أحدا ما كان ليستطيع أن يكتبها سوى كاتب عظيم جدا .. وهذا ما سوف تلمسه وأنت تقرأها !

◆ كان ذلك عام ١٧٤٥ ، ولما يمض وقت طويل على أحداث الثورة فى انجلترا . وكان قد ألم بى ـ أنا مسز « بتهون بالبول » ـ حزن شديد اثر فقد أحد أفراد عائلتى ، فألحت على الاسرة فى وجوب السفر الى احدى المناطق الجبلية ، المجاورة ، تبديلا للهواء وانتجاعا للصحة . وعلى الرغم من استتباب الامن فى تلك المناطق ـ بعد أن استقرت الامور وقوى سلطان الدولة ـ فان لفظ المناطق الجبلية ظل يوحى بالخشونة الضارية التى تعرف عن سكانها المنعزلين عن الحضر ، والذين تجد الحكومة مشقة فى اخضاعهم لنفوذها . وكثيرون يخشون بأس هؤلاء القوم ، أما أنا فلست أخشاهم ، اذ أن بعض أفراد أسرتى من الجبليين ، ومن ثم فلست أرضى لنفسى الانسياق وراء الاوهام والشائعات التى تروى عنهم !

وأعددت عدتى للرحيل ، وجعلت عربتى رهن اشارة

السائق .. وكلمة السائق هذه لا تعبر بدقة عن العمل الذى يؤديه « رونالد ماك ـ ليشن » ، فهو على شاكلة زملائه من أهل مهنته ، يؤجر خدماته ـ كما يؤجر جـواديه ـ لقيادة العربات الخاصة ، فى رحلة أو نزهة عبر تلك المناطق التى كان يعرف كل شبر من وهادها ونجادها ، مواصلا السير حيثما تنبغى مواصلته ، ومتوقفا حيثما ينبغى التوقف . فهو اذن أقرب الى الدليل منه الى السائق . وكنت أبغى الصعود الى مرتفعات (ستيرلنج) القريبة من موطنى ، على ألا أستصحب غير خادمتى .

* * *

وبلغنا شطر الاماكن التى كنا نقصـدها ، و « رونالد » يتحدث الينا حـديثا مستفيضا عن أحوال سكان المنـاطق الجبلية ، وعن نوادرهم وطرائفهم ، وعن أعمال البطـولة التى تنسبها الاقاصيص الى بعض زعمائهم . ولم يفته بطبيعـة الحال أن يحدثنا عن عائلته وما كان لها من أمجاد ، وما خلفته من عاطر الذكرى . والحق أن رونالد محدث مسل ، ولعله ألف أن يشغل زبائنه بشتى الاحاديث ، يسـوقها من هنا وهناك كى لا يمل الراكب الطريق .. ذلك الطـريق القفر ، الخالى الا من نزر من الكلأ وقليل من الشـجر الذى تناءى بعضه عن بعض .

ومن عادة « رونالد » ـ وهو يحـدثك عن كل شىء ـ أن يمسك عن شىء واحد ، هو ذكر أول مكان سنبلغه ونتـوقف فيه ، لا سيما عندما يكون هذا المكان موقعا ممتازا ، يتفـرد بمنظر جميل أو هواء عليل . وهو يرمى من وراء ذلك الى أن يكون للمفاجأة فعلها فى نفس المرتحل ، فتطيب الرحلة ويغنم هو سمعة طيبة يتميز بها بين أقرانه ومنافسـيه .. **وكان القرويون يخرجون للقائنا حاملين لنا اللبن وألوانا من الحلوى**

الريفية مع شيء من فاكهة تلك الجهات . وكان بعضهم يقدم الجعة ليأخذ ((رونالد)) حظه منها ، حتى اذا لعبت الخمر برأسه ، استفاض الحديث ، فى دعابة ومرح .

وواصلنا السير حتى بلغنا مرتفعات (ستيرلنج) ، حيث يقوم جبل اشم شاهق ، فى سفحه بحيرة ترامت أطرافها ، وانسابت اليها - عبر التلال المحيطة بها - جداول وغدران تصعد حينا وتهبط أحيانا ، وكأنما ألفت الطبيعة من هذه وتلك موكبا يتغنى بعظمة هذا الطود الشامخ .. ودرنا حول الجبل فى طرق معبدة ، كان رؤساء تلك القبائل قد أنشأوها وعبدوها لتستخدمها الجيوش التى كانت تحت امرتهم ، فقد شهدت هذه الطرق - من قبل - أمجادا عسكرية لا تزال ملء الافواه .. وأنا كشقيقة لاحد الجنود أحفظ منها الشيء الكثير !

وجاوزنا الجبل ، واذا نحن نحاذى نهرا كبيرا قامت على جانبيه بقايا غابات استؤصل أكثر أشجارها ليستخدم وقودا لمصانع عرفتها تلك البقاع فى وقت ما من تاريخها المجيد . ولمحت من بعيد صخورا يتساقط من فوقها الماء غزيرا دافقا - فى قوة وعنف - حتى اذا ما بلغ سفحها ، تهادى الى النهر وئيدا ، وكأنه قائد مهزوم ألقى سلاحه . وبدت لعينى بلوطة ضخمة - قرب تلك الصخور - رائعة المنظر ، كثيرة الاغصان ، وارفة الظل . ووددت لو اقتربنا منها ، لاستمتع بمرآها عن كثب .. ولاحظت أن رونالد يحذرنا من الاقتراب منها كثيرا .. **وبدا لى أنه كان يمسك عن شيء لا يريد البوح به ، فلما استوضحته جلية الامر ، قال ان هذا المكان يسكنه شبح من الجن ويتراءى للكثيرين .. شبح ساحرة أو جنية .. لست أدرى !** ورغبت اليه فى المزيد من الايضاح . ولكنه قال ان الحديث فى هذه الامور انما يكون بعيدا عن مكانها !

ولم أمض فى الالحاح أزاء اصراره على الصمت .. حتى

اذا أصبحنا على بعد خمسين مترا من البلوطة ، تراءى لنا كوخ حقير يخيم عليه البؤس والشقاء .. كوخ لا يتجاوز ارتفاعه أربع أقدام ، ذو جدران قديمة بالية - لا أثر عليها لاى طلاء - وسقف متهدم . ولم نشهد داخل الكوخ أثرا لحياة ما ، اللهم الا شاة كانت تزدرد طعامها بينما راحت أمها تقفز فى الهواء ، قرب الكوخ . وتساءلت : أية جريمة اقترفها ساكن هذا الكوخ الحقير ، حتى حق عليه أن يقيم بعيدا عن الناس ؟ ! . فأجاب رونالد : « **جرائم عديدة يا سيدتى .. والساكن ليس رجلا ، بل امرأة .. امرأة آثمة ، ارتكبت وأغرت بارتكاب آثام عديدة ، نعرف بعضها ولا يعرف الا الله ما خفى منها .. ان هذه المرأة تكون عادة هنا فى مثل هذا الوقت من كل يوم ! »**

وعندما ازددنا قربا من البلوطة ، رأينا امرأة جالسة عند جذعها ، تعلو وجهها كآبة وشحوب ، وقد ارتدت معطفا من الصوف القرمزى السميك ، ووضعت فوق رأسها غطاء رقيقا أحاط برقبتها وتدلى على كتفيها على نحو ما تفعل نساء الاقليم . وكانت شاردة الذهن .. وفهم رونالد من نظرة فاحصة ألقيتها عليه ، أننى كنت أتهيب الاقتراب منها ، فقال : « انها يا سيدتى غير مؤذية ، فلا هى شريرة ولا مجنونة .. ألا ليتها كانت مجنونة ، اذن لكانت آلامها أهون وأخف ! » . ثم راح يقص على فى كلمات وجيزة قصة هذه المرأة التى سأرويها تفصيلا بعد حين .. ووجدتنى أشفق عليها كل الاشفاق ، وأحسست نحوها بشعور انسانى غمر كيانى كله ، فتقدمت منها بخطى وئيدة ، لعلى أستطيع أن أسرى عنها ، وأدخل على نفسها شيئا من العزاء والسلوى .

وكان أهل الاقليم - على ما رواه لى رونالد - يسمون هذه المرأة « قعيدة الشجرة » ، ويعتقدون أنها طالع شؤم لكل من يقترب منها أو يقطع خلوتها ، اذ أنه لا يلبث أن

يتعرض لعدوى بؤسها وشقائها .. وخشى رونالد أن يصيبنا مكروه اذا نحن خالفنا هذه العقيدة الشائعة ، ولكنى أصررت على المضى .. ولست أدرى بأية شجاعة تقدمت نحوها !

ولم تحفل ((ايلسبا)) ـ وهذا اسم المرأة ـ بقدومى ، بل نظرت الى بازدراء .. أليست بما كانت تحتمل من عذاب ، أعلى مكانة ، وأسمى مرتبة ، وأصقل روحا ، من أولئك الذين لم يعرفوا قيمة الالم ، ومدى سمو النفس البشرية به ؟ ! ..

وكانت متوسطة القوام ، يشع من عينيها السـوداوين بريق جذاب ، ويعلو رأسها شعر يميل الى السمرة ، صففته بعناية !

وبدا عليها زهد شديد ، كان يشى بغير قليل من الاضطراب النفسى ، فسألتها عما كان يحملها على المقام فى هـذا المكان الموحش ، فقالت : ((يا ابنة الغريب ، لقد روى لك قصتى !)) .. ولم تزد ، فأيقنت أنها تريد اقتضاب الحديث ، ومددت يدى اليها بقطعة نقود ، اذ كان رونالد قد أبلغنى أنهـا تعيش على الصدقات . ولكنها لم تمد يدها ، فوضعت النقود على ركبتيها ، وقلت : ((ليغفر لك الله ، ولتعنك السـماء !)) .. فانفجرت تناجى وحيدها ـ الذى كانت قد ثكلته ـ مناجاة تتقطع لها نياط القلوب !

* * *

واذا كانت ((ايلسـبا)) فى شيخوختها على هـذه الحال التى عرفت ، فانها شهدت ـ فى شـبابها ـ أياما وأعـواما مجيدة استمتعت فيها بلذائذ الحياة وبصنوف من الترف ، كما لم تستمتع امرأة سواها . ذلك أن زوجهـا ((هاميش ماك ـ تافيش)) كان زعيما من زعماء القبائل الجبلية ، قوى السلطان ، مرهوب الجانب . كان على مثال أقرانه من الزعماء ، يرى من العار أن يستغنى الانسان عن كل شىء يمكنه أخـذه عنوة واقتدارا ! .. وكان سكان السهول المجاورة يدفعـون

له جعولا دورية اتقاء لشره والتماسا لحمايته عملا بالقـــول المأثور : « داهن الشيطان ولا تقاتله » !

على أنه بالرغم مما عرف عن سطوة « هاميش ماك ـ تافيش » ونفوذه ، فان حياته لم تخل من أيام عصيبة . ذلك أنه مـن الطبيعى أن يخلق هذا النوع من الحياة خصومات وعداوات ، تنشأ عنها مطاردات واشتباكات مسلحة . ومن ثم فقد عرف « تافيش » انتصارات وغنائم ، كما عرف ضائقات وهزائم . وكانت « ايلسبا » الى جانبه فى الحالين ، تشاركه نعماء الحياة كما تقاسمه بأساءها ، بل انها كانت تحمل السلاح وتخوض المعارك الى جانبه فى بسالة فائقة ووفاء نادر !

ولـمـا قوى سلطان « السكسون » فى تلك البلاد ، وانتشرت مراكز البوليس فى المنطقة الجبلية ، تناقص نشاط العصابات الثائرة على نفوذ الدولة ، فقلت الى حد كبير أعمـال الارهاب والسطو على الاملاك الخاصة . وكان « ماك ـ تافيش » أحد الزعماء الذين راحت الحكومة تراقبهم عن كثب وتعمـل على تجنيب الاهلين شرورهم .. وبالاضافة الى القيود التى فرضتها الاحوال الجـديدة على تحـــركات « ماك ـ تافيش » ، فان « ايلسبا » وضعت فى ذلك الوقت غلاما ، فاضـطرت الاسرة الى الاقلال كثيرا من جولاتها واغاراتها على الآمنين .

وجاء أخيرا اليوم المحتوم الذى حاصرت فيه فصيلة مـن الجند « ماك ـ تافيش » فى الموقع الجبلى الضـيق الذى كان يتحصن فيه ، وأطلقت الفصيلة النار على الموقع . ونشبت بين « ماك ـ تافيش » والجند معركة حامية ، وقفت فيهـا « ايلسبا » الى جانب زوجها ، تطلق الرصاص على الجنـد ، وتستبسل فى الذود عن الموقع والدفاع عن حياة الاسرة .. وقتل من الجند ثلاثة وجرح كثيرون . **وأخيرا نفدت ذخـيرة « ماك ـ تافيش » ، فاضطر الى أن يحشو بندقيته بما كان لسترته من أزرار فضية . وأدرك الجند ان خصمهم عـلى**

وشك التسليم فضيقوا عليه الخناق ، حتى اذا عجزوا عن أسره حيا ، أردوه قتيلا ! .. وكانت ايلسـبا تود لو لقيت مصير زوجها ، وسقطت فى المعـركة ، لولا ابنها .. الامل الوحيد الذى بقى لها ، والذى حسبت أنه لا بد معيـد مجد أبيه وآخذ بثأره يوما ما !.. وانكمشت حياة « ايلسبا » ، فلم يبق لها من حطام الدنيا سوى بضعة رؤوس من الغنم تطلقها فى المراعى الجبلية وتعيش عليها .

ولم تكن تدرك التبدل الكبير الذى حدث فى المنطقـة نتيجه لانتصار القوات المدنية وعودة هيبة القانون ، ولهذا فانها كثيرا ما كانت تهبط الى الاراضى الواطئة ، تطلب من القاطنين فيها زادا ومالا . ولم تكن تطلبهما تسولا ، وانمـا قسرا .. تماما كما كان يفعل زوجها من قبل ! .. وكانوا هم يعطونها ماتطلب خشية شرها حينا ، واتقاء شؤمها أحيانا ، فقـد كانت فى نظرهم امرأة حقودا وساحرة مؤذية !

* * *

وكبر « هاميش » ـ الابن ـ ونما جسـمه . وكانت له سمات أبيه ، وان لم يبلغ مبلغه من العنف والبأس .. فقد ورث عنه الشجاعة والنظر الحديد وقوة الشكيمة ، ولكنه لم يرث عنه الميل الى المغامرة والى الحياة الجبليـة والحـرية المطلقة التى لا تعرف غير شريعة الغاب ، والتى لا تتـورع عن الغصب والقتل ـ اذا اقتضى الحال ـ للحصول على ما تريد ، ولو كان مملوكا للآخرين . وكثيرا ما كانت « ايلسبا » تحدث ابنها عما تسميه أمجاد أبيه وانتصاراته ، وتقول له انه أصبح معقد آمالها فى اعادة مجد الاسرة . بيـد أن الفتى لم يكن يشارك أمه آراءها ، فان نظرة الشباب الى الامور الراهنـة تختلف عادة عن نظرة الشيوخ اليها ، اذ أن الشبان واقعيون يرمقون المستقبل ، بينما يعيش الشيوخ على المـاضى . ومن

ثم فقد كان الفتى « هاميش » يميل الى كسب عيشه وعيش أمه من طريق عمل شريف يؤديه ، مفترقا بهذا عن ماضى أسرته ، مدركا الاوضاع الراهنة فى البلاد ادراكا سليما يغاير ادراك أمه لها ، لان هذه كانت تجهل الى حد كبير حقيقة هذه الاوضاع

وتاق الفتى الى الالتحاق بعمل منظم يبنى به مستقبله ويرعى أمه ، ولكن هيهات أن ترضى أمه بهذا ، فقد رأت فيه جرحا لكبريائها ، ومذلة لها ، ونبذا للحياة الحرة الطليقة التى كانت تحياها ! .. كانت تريد ابنها على أن يسلك فى حياته السبيل الذى سلكه أبوه قبله ، بيد أنها كانت تشفق عليه وتود لو تجنبه المصير الذى لقيه زوجها .. وكانت كلما همت بأن تحرضه على ذلك ، تمثلت أباه وقد وقع فى أيدى الجند ، وخضب دمه تربة المكان الذى حوصر فيه ، فتشفق عليه أن يصيبه مكروه وهى أشد ما تكون حاجة اليه وأحرص على حياته منها على حياتها . **أما الفتى فكان يكن لامه احتراما بالغا ، ويتمنى لو أنقذها وأنقذ نفسه من الضيق الذى كانا يعيشان فيه ، ولو انطلقا معا الى الدنيا الواسعة فى سعى شريف الى عيش كريم . على أنه لم يكن ليجهل رأى أمه فى هذا النوع من الحياة ، فتفاقم الخلاف بينهما حتى لقد هم الفتى مرارا بأن يهجر أمه ويتركها ، لا فريسة للعوز والفاقة ، بل عزيزة فى دارها يوفر لها بعمل ساعديه كل وسائل العيش الناعم !**

وكان من عادة « هاميش » أن يخرج للصيد من وقت لآخر . وكثيرا ما كانت أمه تؤنبه اذا ما أطال التغيب عن الدار . وذات يوم ، عاد من الصيد بعد غياب طويل ، فلقيته « ايلسبا » منكرة عليه غيابه ، فرد عليها غاضبا محنقا .. فاشتدت — بدورها — فى تأنيبه ، ورمته بكلمات عنيفة أثارت حفيظته على هذه الام التى كانت تأبى الا أن تخضعه وتذل كبرياءه . وأمسك الفتى ببندقيته التى كانت مسندة الى ركن من أركان

الكوخ ، وأخذ يداعب زنادها . وقالت أمه : « أطلق الرصاص على أمك ! .. أمك التى حملتك وسط الاهوال ، والتى شهدت من معارك السلاح ما لم تشهده أنت ! » . وقال الفتى : « بالله عليك يا أماه ، هلا اقتصدت من هذه الكلمات المثيرة ، فحاشاى أن أقصد بك سوءا » . غير أن ايلسبا راحت تصب عليه جام غضبها . وهم الفتى بترك الدار وبندقيته على كتفه . فقالت الام : « أتتركنى ؟ ! .. أفأنت تارك هذه الدار ، مخلف أمك فيها وحيدة بغير سند أو معين ؟ »

ولكن « هاميش » لم يستمع اليها ، بل بارح الكوخ و « ايلسبا » تشيعه بالشتائم واللعنات ، متوسلة الى السماء أن تصعقه . **بيد أنها ما لبثت أن استعادت هدوءها وسكينتها ، فندمت أشد الندم على ما صدر منها ، وأخذت تضرع الى السماء أن تنزل صواعقها عليها هى ، وأن تقى ابنها كل مكروه ، وأن تعيده اليها سالما من كل أذى ! ..** وظلت طوال اليومين التاليين تفكر وتقلب الامور على مختلف وجوهها .. وتبينت مدى قسوتها وحدة الكلمات التى رمت بها ابنها ، فلم تنم ولم تتناول طعاما ما . وبينما هى على عتبة الكوخ ، اذا برجل مقبل عليها من بعيد على صهوة جواد . واقترب القادم من الكوخ ثم ترجل وحياها باسمها ، فسألته بلهفة عما اذا كان يحمل اليها نبأ من عند ابنها ، فأجاب الرجل بأن ابنها بخير وأنه قد أوفده اليها بنقود .. بدولارات أربعة . فقالت ايلسبا : « تكلم يا فادريك .. لقد تبينتك الآن ، فقل لى : أهذه النقود ثمن دم ابنى ؟ » . فأجابها : « كلا ، كلا .. لسوف يكون هاميش عندك بعد قليل ، فيشرح لك كل شيء » . قالت ايلسبا : « اذن فقد باع نفسه للسكسون ، وأصبح عبدا لهؤلاء القوم الذين نمقتهم ونبغضهم »

وعاد الرجل من حيث أتى .. عاد « فادريك » الى أملاكه وضياعه ، التى كان يرعى شئونها بنفسه فى هذا الاقليم — فقد

كان من أصحاب الاراضى الذين تطوعوا للعمل لحساب الحكومة — تاركا ايلسبا وقد غاصت فى لجة من التفكير العميق .

* * *

لا ، ان « هاميش » لا يمكن أن يبيع نفسه للسكسون .. لا يمكن أن يحمل السلاح أو يقاتل فى صفوف أولئك الذين تباعد بينهم وبين سكان الجبال عداوة تقليدية ! .. لا ، أن هاميش شبل أبيه الذى سيثأر لموته .. **انه النسر الذى ما أن يعلن نفسه خليفة لماك — تافيش حتى تتدفق عليه جموع الانصار والاعوان الذين عملوا تحت راية أبيه ، فيتخذ منهم أجنحة يرتفع بها ، ويجدد تلك الايام الخوالى التى عرفتها « ايلسبا » الى جوار زوجها !** سوف تولى أوقات البؤس والشقاء التى تعانيها الآن ، وسوف تتبدل محنتها غبطة ويمتلىء قلبها فرحا .. صحيح أنها تشفق على وحيدها « هاميش » من أن يلقى مصير أبيه فى معركة من تلك المعارك التى تنتظره ، ولكنها مع هذا تروم له موتا مجيدا !

هكذا راحت ايلسبا تمنى نفسها وتطامن مخاوفها ، دون أن تدرك أن شبلها كان محوطا — فى ظل الاوضاع التى قوى فيها ساعد الحكومة — بتعقبونه ويحصون عليه حركاته وسكناته . لم تكن لتدرك أن نسرها معرض لان تصوب اليه الطلقات من كل صوب — اذا خرج على هذه الاوضاع — فلا يلبث أن يهوى من عليائه لا محالة .. وانى لها أن تدرك هذا وهى تعيش فى الماضى ؟ ! .. ولقد بعثت فيها هذه الافكار آمالا وطمأنينه ، فتناولت بعض الطعام بعد صوم دام يومين ، وأخذت تصلح من شأن الكوخ — تأهبا لاستقبال شبلها اذا ما عاد مع أنصاره — فنظفته ورتبت أثاثه البالى وزينته ببعض الزهور وجلست تنتظر .

وانتظرت أياما .. وكانت — منذ الصباح الباكر حتى المساء —



ترقب الطريق الجبلى الصاعد ، لا يكاد نظرها يتحول عنه ، وهى تتوقع فى كل لحظة أن تلمح من بعيد غبار سنابك خيل القادمين ، وتسمع صليل سلاحهم . فاذا أقبل الليـــل ، كانت تأوى الى فراشها ، لا لتنام وانما لتسهر مداعبة الامل فى أن يجيئوا آخر الامر .. ولكن ، دون جدوى !

وفى ذات صباح ، لمحت قادما يشق الطريق على متن جواده ، متجها صوب الكوخ .. لمحته فى لباس الجبليين ، وقد ارتفعت فوق رأسه القبعة العالية ، وبرزت فوهة بندقيتــه من وراء ظهره . وأسرع القادم الخطى نحوها ، وان هى الا دقائق حتى كان ابنها بين ذراعيها ! . ولقيته بحنان الام ، فضـمته الى صـدرها وأغدقت عليه دلائل حبها . ثم راحت تصـف على المائدة كل ما كانت قد أعدته من ألوان الطعام . ثم سألته أن يقص عليها كل ما حدث له ، منــذ أن افترق عنها ، مبـدية قلقها عليه لارتدائه زى الجبليين وحمله السلاح مع ما فى ذلك من عصيان للحكومة . فسألها عما اذا كانت لقيت « فادريك » ، وما أن روت له كيف زارها وأعطاها نقودا ، حتى أردفت تحذره من ذلك الرجل . ولكن « هاميش » ذكر لها أن « فادريك » كان يجمع متطوعين للجيش النظامى . وقال الفتى أنه التحق بهذا الجيش ، وما جاء الا ليودعها قبل أن يرحل مع فرقته !

وهتفت ايلسبا : « سأرحل معك » . فقال : « ولكنا سنذهب الى أماكن نائيـــة » . قالت : « لقد صـحبت أباك الى أنأى البقاع ، وكان يقدر خدماتى بل وآرائى أيضـا ، ويقول أنى أعدل اثنين من أقوى رجاله ! » .. فقال الشـــاب : « ولكنا

سنعبر البحر يا أماه ! »٠٠ وكان ردها : « لكم ألفت ركوب متن الماء ٠٠ وما أكثر ما خضت الانهار والبحـيرات مع أبيك فى رحالاته ومغامراته الناجحة »

وعاد الشاب يقول : « ليس الامر أمر أنهار وبحيرات ، فان علينا أن نعبر المحيط لنقاتل الفرنسيين فى أمريكا » . فصاحت ايلسبا : « تعبر المحيط ؟ ! » ٠٠ قال : « أنت تعرفين يا أماه أننا نعيش هنا عيش الكفاف ، ونلقى عنتا شـديدا فى أمور معاشنا ، فلا نخرج من ضائقة الا لنقع فى أخرى ٠٠ وكان لا بد من السعى الى حياة أفضل ، ومن كفالة مستقبلنا على نحو آمن وأضمن . ولعل هذا أن يشفع لى عندك فيما فعلت ! » ٠٠ فهتفت الام والهة : « واذن فستتركنى أموت هنا فى شيخوختى جوعا وعوزا ! »

ـ بل ستكونين أيسر حالا بكثير ٠٠ ستكون لك دارك الخاصة ، تتوافر فيها كل أسباب راحتك ، وترعين فى فنائها غنمك ٠٠ وستتناولين أجرى الذى سيتيح لك الانفاق عن سعة . أما أنا فسأتناول ـ فوق هذا الاجر ـ نصف دولار فى كل يوم ، وسأرحل جنديا وأعود ضابطا ، دون أن أتكبد سوى القتال بشجاعة الى جانب أقرانى

ـ ألم أخبرك أن فادريك غير جدير بأن يكون موضع ثقتك . أتحسب أنه سيظل عند وعده الذى قطعه لك بصدد ما سيقدمه لى ؟

ـ لست أشك فى هذا ، فان فادريك يعرف تماما أنى عائد ومحاسبه على كل ما يفعل !

وأحست « ايلسبا » من حديث هاميش مقاومة لآرائها لم تعهدها من قبل ، فتحولت تضرب على وتر حساس ٠٠ ذكرته بالعداء الدموى بين قومها الجبليين وبين « السكسون » ، وأفاضت فى الحديث عما بينهما من خصومات ، وكيف أنه لا يليق به الهرب من هذه المعركة والتنكر لماضى الآباء والاجداد .

ولكن هاميش أجاب : « يجب أن تعرفى يا أماه ان القبائل الجبلية قد مزقت شر ممزق ، وأن زعماءها أصبحوا بين قتيل وجريح وأسير ، فلم يعد أمل فى عودة سطوتها ونفوذها بعد أن قبضت الحكومة على زمام الامور بيد من حديد » . واستطرد يقول : « أن « باركالدين » على رأس فصيلة من مائة جندى كلهم من رجال الجبال .. وسنرتدى ملابسنا التى ألفناها ، ونحمل أسلحتنا التى عهدناها ونقاتل أعداء البلاد جنبا الى جنب ! » ..

* * *

وهكذا ألفت ايلسبا أن ابنها كان يحطم حججها وأسانيدها كما تتحطم الامواج أمام الصخر . ومدت يدها فتناولت كأسا من الشراب قدمته للشاب قائلة : **« اشرب نخب ذكرى أبيك وأجدادك ، وذكرى أمك أيضا لانها سوف لا تجد بعد رحيلك ما يدعوها الى التشبث بالحياة ! »** .. وسألته كم من الوقت يملك أن يقضيه معها قبل أن يفترقا فراقا قد يكون الى الابد ، فأخذ هاميش يهون عليها ، وأجابها بأنه راحل فى ساعة مبكرة من صباح آخر يوم من أيام سبعة ، هى كل الاجازة التى منحت له للتأهب للسفر . فقالت الام : « رحم الله أيام أبيك الذى كان طليقـا كالهواء ، لا يسـأل من أين هو آت ولا الى أين يذهب ! » .. ثم سألته : « ماذا يكون ان أنت لم تعد فى الموعد المضروب لك ؟ »

ـ أقدم الى المحاكمة العسكرية كهارب من الجندية ، ويحل بى العقاب المقرر لهذه الجريمة المزرية ، ولا أعود أستطيع أن أرفع رأسى بين أقرانى

وأدركت ايلسبا تصميم ابنها على الرحيل فى الموعد المحدد ، فلم يسعها ـ فى النهاية ـ سوى النزول على رأيه ، والرضى برحيله ، وانفاق الايام القليلة الباقية فى الاستمتاع بوجوده الى جانبها ، والتزود من الحب لفراق طويل . وكانت هناك

نساء أخريات قد التحق أبناؤهن كهاميش بخدمة الجيش .. وكن يختلفن من وقت لآخر الى « ايلسبا » ، فيتحدثن معها عن المساكن التى أعدت لاقامتهن جميعا فى ضياع « باركالدين » . وأبدت « ايلسبا » ارتياحها الى ما سمعت منهن . **ولكن عاطفة الامومة كانت تطغى عليها – فى الواقع – لتفسد تفكيرها وتعمى بصيرتها . ومن ثم راحت تفكر جاهدة فى استبقاء ابنها الى جانبها بأى ثمن .. لو أن هاميش تخلف عن اللحاق بفرقته فى الموعد المحدد فسيوقع عليه عقاب بدنى يصمه بالعار ، فهل من سبيل الى تفويت هذا الموعد عليه مع تجنيبه العار ؟!**

وظلت « ايلسبا » خمسة أيام ، أسرفت خلالها فى تدليل ابنها . فلما كان اليوم السادس ، خرج « هاميش » للصيد فى الصباح . وفيما هو عائد خلال الدروب الجبلية الملتوية المؤدية الى الكوخ – وقد مالت الشمس الى الغروب – اذا به يلمح طيفا يدنو منه فى خطى وئيدة .. طيف رجل فى لباس رجال أعالى الجبال – اللباس المحظور بأمر الملك – وقد تمنطق بسلاحه ، متحديا القانون الجديد .. ومن الخرافات الشائعة فى تلك المناطق أن أطياف الموتى تظهر للأحياء ، وأنه ينبغى عدم الاقتراب منها ، بل يجب تركها تعلن عن شخصيتها وتقول ما تريد . وعملا بهذه الخرافة ، ترك « هاميش » الطيف يدنو منه .. وخيل اليه أنه يرى أباه ، وانه يسمعه يحذره من العودة الى الكوخ ، وينصحه باللحاق توا بوحدته . وكأنما كان الطيف يخشى على الشاب أن يتأخر عن موعد لحاقه بفرقته ، اذا هو عاد الى أمه !

على أن هاميش واصل سيره ، مطمئنا الى انه قد عقد العزم على الرحيل فى الصباح الباكر ولن يعوقه شىء . ووجد أمه قد أعدت له طعاما شهيا وشرابا ، احتفالا بليلة الوداع . وجلسا الى المائدة يتناولان العشاء ، فشرب هاميش كأسه حتى الثمالة ،

اذ كانت التقاليد الخرافية توحى بأن بقاء فضلة فى الكأس نذير شؤم !

وقال الشاب وهو يضع الكأس فارغة على المائدة : « **ان هذه الخمر طيبة المذاق يا أماه ، ولكنها تبعث فى شاربها استرخاء ، ورغبة فى النوم** » . فقالت أليسبا : « نم يا بنى بعض الوقت ، فما زالت أمامك ثمانى ساعات قبل أن يحين موعد رحيلك » .. ولم يستطع أن يقاوم أغراء النوم ، فاستلقى على فراشه ، وسرعان ما راح فى سبات عميق . واذ ذاك ، فركت ايلسبا يديها وابتسمت لنجاح خطتها !

ولا شك أن القارىء قد أدرك هذه الخطة ، فان ايلسبا وضعت منوما فى قدح هاميش ، حتى يقع فى نوم طويل عميق يفوت عليه اللحاق بفرقته فى الموعد المضروب له .. اذ كانت بحكم البيئة التى عاشت فيها ، تعرف الشىء الكثير عن فعل بعض الحشائش والاعشاب ! .. وبينما كان هاميش مستغرقا فى نومه ، كانت هى شبه ساهرة ، لا تكاد تغفو اغفاءة خاطفة حتى تنهض منزعجة ، فتدنو من فراش ابنها لتتحقق من أنه ما زال نائما .. حتى فاته الموعد ، فأحست بغبطة تملأ جوانحها ، فقد أيقنت من أنه لم يعد له سوى أن يبقى .. يبقى معها ، لا طوعا بل كرها ، فهو لا يمكن أن يسلم نفسه ليوقع عليه العقاب البدنى الذى كان ينتظره !

* * *

ولما صحا هاميش من نومه ، أقبل على أمه مودعا ، فأدركت أنه لم يفطن الى أنه نام يوما وليلتين . وخشيت أن يكون قد أصابه أذى من المخدر أثر على عقله ، وأحست شناعة فعلتها وسوء تدبيرها فحاولت الاعتذار لابنها عما فعلت ، قائلة : « أغفر لى يا بنى واصفح عن أمك .. لم يعد فى مقدورك أن تصل الى وحدتك فى موعدك فقد فات الوقت ! »

.. وذهل هاميش ، ولم يصدق ، واعتراه شعور غامض فلم يدر ما هو فاعل .. وقالت أمه : « هذا هو السيد « تيرى » يصعد الطريق فى جولته المألوفة ، فسله عن اليوم والشهر ان كنت فى ريبة مما أقول »

وأسرع هاميش الى خارج الدار فاستوقف الرجل ، وسأله عن اليوم . **وما أن سمع جوابه ، حتى بهت . وسقط زمام الجواد من يده ، وقفل عائدا الى الكوخ ..** وهم السيد تيرى أن يلحق به — بعد أن رآه على هذه الحال مغتما مهموما — لعله أن يعينه على تفريج أزمته النفسية ، غير أنه ذكر أن هاميش هو ابن « ماك تافيش » قاطع الطريق المعروف ، وانه على أى حال ليس واحدا من أعضاء طائفته وانما كان يتبع طائفة أخرى — فقد كان الرجل من قساوسة الجبال — كما تذكر أن أمه لا تدين بعقيدة ، وان الخرافات والاوهام تستبد بها ، ولا هم لها سوى ممارسة السحر والتعاويذ . ولهذا مضى القس فى طريقه .. ولكم ندم السيد « تيرى » فيما بعد على انه لم يطع هاتفه الاول ، وعلى أنه قصر فى أداء هذا الواجب الانسانى . ذلك أن الحادث الرهيب الذى وقع بعد قليل ، ما كان ليقع ويؤدى الى ما أدى اليه ، لو أن القس كان حاضرا وتوسط فى الامر نشدانا للسلام !

فما ان بلغ « هاميش » الكوخ حتى ارتمى على الفراش فى بأس قاتل ، وهو ينتحب مرددا : « لقد ضعت ، ضعت الى الابد ! » . وراح يسخط ويلعن ويصعد الزفرات من صدره المحموم . ورأت « ايلسبا » انه ليس من الحكمة أن تقف فى وجه هذه الثورة العارمة ، وأن من الخير أن تحاول أن تهدىء من حدتها أولا ، ثم تسعى الى أن تنفذ الى قلب ابنها ، وتقنعه بمجابهة الامر الواقع فى رصانة وهدوء . وقالت : « هون عليك يا بنى ، وانظر بعين الروية فيما فقدت وما ربحت .. لقد فقدت العمل تحت راية السكسون فى ذلة وهوان ، وفقدت

ثروة تخيلت انك واجدها فى تلك البلاد النائية ، وان هى فى الحقيقـة غير أوهام . ولكنك كسبت البقـاء فى أرض آبائنا وأجدادنا طليقا حرا بين هذه الجبال والتلال التى شـهدت انتصاراتنا وأمجادنا ! »

وضاق هاميش ذرعا بحديث أمه ، فراح يتأوه ويتنهد قائلا: « لقد فقدت كل شىء ولا أدرى ماذا أنا قائل لهم ! » . فقالت: « دعنى أتولى تدبير الامور .. سأقول لهم أن ابنى سقط من عل الى فجوة فى الجبل لا قرار لها ، وأنه لا سبيل حتى الى العثور على جثته .. وسـنختفى عن الانظار ونقيم عند أمى ، بعيدا عن هذا المكان ! »

ولم يتركها « هاميش » تسترسل فى حديثها ، بل عاد الى التنهد ، يعبر به عن اليأس الذى ملأ قلبه وغمر كل كيانه ، وتحولت الام من التدليل الى الشـدة فراحت تقول : « ان هذا الذى تفعل لا يصـدر الا عن صبى غـر .. واذا كنت تأبى الا أن تبقى حيث أنت فى انتظار رسـل القائد ، فلتبق وحدك ، ولن تشهد عيناى استسلامك لهم .. لقدرأيت الموت مرارا ولكنى لم أر العار مرة واحدة ! »

* * *

وبرحت ايلسـبا الدار هائمة على وجهها .. سارت فى الدروب الجبلية على غير هدى .. لم تتجـه قدما فى خط مستقيم ، والا لابتعدت كثيرا عن الكوخ ، ولكنها سـارت فى ملتويات ومنعرجات ، كأنما كان يجتـذبها ذلك الكوخ الذى تركت فيه بعض ذاتها . وعندما تنفس الصباح عادت أدراجها الى البيت ، وكان هاميش لا يزال نائما . على أنه لم يلبث أن استيقظ ، فقال لامه : « لماذا عدت يا أماه ؟ » . قالت : «عدت كما تعود الهرة البرية الى صغارها » . ثم راحت تستعطفه : « اغفر لى يا بنى !.. اصفح عن زلتى .. ان قلبك ليحدثك

بأنى لم أفعل ما فعلت الا بدافع الحب لك ! » .. ولكن قناة هاميش لم تلن فجثت أمامه ايلسبا التى لم تعرف الهزيمة يوما ، وراحت تصيح : « اشهدى أيتها السماء وانصتى يا جبال . انى أشهدك على وعلى وحيدى .. انى أتوسل اليك يا بنى أن تترك هذا المكان .. أتركه بحق ذكرى أبيك « ماك – تافيش » العظيم ، أو اتركه بحق آلام أمك التى حملتك جنينا وارضعتك طفلا ورعتك غلاما وأنشأتك رجلا ، أو فاتركه من أجل هذه التى دنت نهاية أيامها وليس لها من أمل فى الحياة سواك ! » .. وأجاب هاميش : **« ان حياتى يا أماه ملك لك ، لانك أنت التى أعطيتينى الحياة ، ومن حقك على أن أبذلها رخيصة فى سبيلك . أما شرفى فليس ملكا لك ولا لى وانما هو تراث الماضى التليد الذى ليس لنا كلينا أن نفرط فيه ! .. هنا ارتكبت جريمتى ، وهنا سأبقى لالقى جزائى الحق ! »**

وسطعت الشمس فى صبيحة اليوم التالى ، فانصرف كل من ايلسبا وهاميش الى عمله . فأخذت هى ترتب البيت وتعد الطعام ، بينما انهمك هو فى اعداد أسلحته وتنظيفها . ثم تناولا وجبة الصباح . وقدمت له فى نهايتها قدحا من الشراب ، ولكنه أعرض عنه اذ تمثل فيه النكبة التى حلت به .. وألحت عليه أمه فى رفق ، فرفض فى اصرار وبرح الدار ، فلبث على عتبتها وسلاحه فى يده فى انتظار ما يحدث له . وأقبلت أمه وربتت على كتفه ثم قالت : « فيم انتظارك الآن ؟ أنهم لن يجيئوا قبل المغيب ، وأنت تعرف المسافة بيننا وبين المعسكر ! » .. ورغب هاميش الى أمه أن تتركه وشأنه ، ولكنها مضت تقول له : **« سألقاهم معك ، وستعرف أن وقوفى الى جانبك لن يكون بغير جدوى . سألقاهم بسلاحى كما لقيت من قبل أعداء أبيك ! »**

ورجاها هاميش مرة أخرى أن تمسك عن بذل النصح اليه ، فانصرفت عنه ، وتركته غائصا فى تفكير عميق .. فقد

خطر له أن يمثل أمام « باركالدين » ليطلعه على جلية الامر ، ويشرح له سبب تخلفه عن اللحاق بفرقته ، عسى أن يقبل عذره ويعفيه من العقاب البدنى المزرى . غير أنه — الى جانب هذه الرغبة — راح يفكر أيضا فى كيف يلقى رسل «باركالدين» الذين كانوا وشيكى الحضور للقبض عليه . كان يعرف « آلان بريك » ، الذى سيجىء على رأس الفصيلة .. وربما استطاع هذا الصديق أن يشفع له عند القائد ، فيجنبه هوان العقاب البدنى ومذلته . **ولكن ، ماذا يكون لو أنه أبدى مقاومة لهم ، واضطرهم أزاء هذه المقاومة الى قتله ؟ .. ألا يحسم هذا كل الامور ويضع حدا الى الابد لهذا الذى يعانيه ؟ !**

وأقبل المساء ، وامتدت ظلال الجبال الشاهقة فغمرت المكان ، وبدت فى الافق أطياف الجند وهم يهبطون المرتفع المطل على الطريق المؤدى الى الكوخ ، وقد لمعت أسلحتهم فوق أكتافهم . كانوا خمسة رجال بقيادة « آلان بريك » .. وتقدموا نحو الكوخ بخطى عسكرية . فأشارت ايلسبا على « هاميش » بأن يدخل الدار ويطلق عليهم النار من النافذة الصغيرة المطلة على الطريق ، ولكن الشاب ظل فى مكانه وبندقيته فى يده . واقترب الجند فقال له القائد : « هاميش ماك — تافيش ، ألق سلاحك وسلم نفسك ! » . وأجاب هاميش : **« مر جندك بألا يقتربوا ، والا فقدنا دماء عزيزة علينا جميعا ! »** .. وكرر عليه القائد الامر بالاستسلام مضيفا اليه : « اذا أنت لم تقاوم فسأبلغ القائد أننى وجدتك فى الطريق الى المعسكر »

— **هل تعدنى بألا يقع على عقاب بدنى ؟**

— أنت تعرف أن هذا ليس من سلطتى

واقترب « بريك » ، ومد يده وكأنه يريد أن ينحى بندقية هاميش ، ولكن هذا أطلق عليه النار فأرداه قتيلا . وتقدم الجند فأمسكوا به . وما أن رأت ايلسبا أنهم كانوا يضعون السوارين الحديديين حول رسغيه ، حتى تولتها

ثورة جارفة ، فراحت تقذف الجند بوابل من اللعنات . واذ ذاك أمسك بها اثنان منهم ، بينما عنى الآخران بالحفاظ على هاميش الذى أذهله ما فعل ، فلم يبد أية مقاومة . وسرعان ما اقتيد الى مركز القيادة ، حيث استجوبه القائد فتأثر تأثرا عميقا لما قصه عليه هذا الجندى الشجاع ، الذى كان ضحية بريئة لعاطفة الامومة ، ولحيلة خبيثة لجأت اليها أمه لمنعه من اللحاق بفرقته ، بغية ابقائه الى جانبها لتحقيق مطامحها ، ومآربها العدوانية . **ولكن ماذا يجدى عطف القائد أزاء مافعله هذا الجندى التعس الذى هرب من الجندية ، وقاوم الجند الذين أرسلوا للقبض عليه ، وقتل رئيسهم ؟!**

وجرت المحاكمة سريعة خاطفة ، ثم صدر الحكم باعدام هاميش . وكل ما استطاع قائد كتيبته أن يحصل عليه لصالح هاميش ، هو أن يموت ميتة عسكرية ، فلا يشنق ، وانما يعدم رميا بالرصاص !

* * *



وفى ذلك الحين ، تصادف أن مر الكاهن « تيرى » بالمعسكر ، وعلم بما حدث ، فسعى الى هاميش فى زنزانته . ووجده ثابت الجنان ، بادى الندم ، مؤمنا بأن العقوبة التى قضى بها عليه قصاص عادل !.. وشد ما كان حزن هذا الكاهن الذى أحس بوخز الضمير يأكل قلبه لتقصيره فى أداء واجبه ، وقعوده عن مرافقة هذا الشاب الى داره حينما

لقيه فى صبيحة ذلك اليوم المشئوم . فقد كان من المحتمل ـ لو أنه فعل ـ أن يمنع وقوع ما حدث .. **وعبثا حاول استصدار عفو من القائد الاعلى عن هذه الجريمة ، فقد ذهبت جهوده هباء . وحدد لتنفيذ الحكم فجر اليوم التالى !**

وحين تنفس صبح اليوم التالى ، وانطلقت الاشعة الذهبية تضىء الربى وتنعكس على السهول ، بدت هناك فوق المرتفعات الجبلية صفوف الفرقة الفتية ، تتقدمها موسيقاها تعزف اللحن الجنائزى ، فتتلاشى دقاتها الوئيدة مع وقع أقدام الجند وهم يهبطون الى حيث مركز القيادة . واصطفوا فى فناء المركز .. وكانوا موزعى الشعور . فان « آلاز بريك » ـ الذى قتله هاميش ـ كان أقرب الرفاق الى قلوبهم لبسالته ودماثة أخلاقه ، كما أن هاميش نفسه كان جديرا برثائهم !

وتقدم الشاب هاميش حاسر الرأس ، مغلول اليدين ، شاحب الوجه . ولكنه كان ثابت الخطى ، شجاعا ، يشع من عينيه بريق أخاذ .. تقدم والى جانبه الكاهن « تيرى » ، وأمامه التابوت الذى أعد لجثمانه . ووضع التابوت على الربوة ، وتقدم هاميش بينما كان رجل الدين يشجعه ويبذل له آخر ارشاداته . ثم قال له : « هل من خدمة أستطيع بعد أن أبذلها لك ؟ » .. فأومأ الفتى الى أزرار سترته الذهبية . وانتزعها الكاهن ، فقال له هاميش : **« أمى يا ابتى .. اذهب اليها واعطها هذه الازرار ، وقل لها ما ينبغى لها أن تعرفه عنى .. قل لها أن هاميش واجه الموت مرتاحا .. وداعا يا أبت ! »**

وما ان ابتعد الكاهن قليلا ، متثاقل الخطى ، لا تكاد قدماه تقويان على حمله ، حتى تقدم هاميش الى حيث كان تابوته فجثا عليه . ولم تمض لحظة حتى دوى رصاص الجند ، فرجع الصخر صداه .. وقضى هاميش دون ان يحس آلام

اللحظة التى طوت صفحة حياته

* * *

وبعد أن شاهد الكاهن هـــذه الاحداث ـ التى كان لها فى نفسه وقع أليم ـ اتخذ طريقه الى داره . وأخـذ يتأمل كل ما جرى تحت سمعه وبصره .. ان عدالة الله تأبى الا أن يكون الدم ثمن الدم ، وهى اذ تنقض كالصاعقة ، لا ترحم ولاتبقى ، حتى على مثل هذا العود أنغض الذى كان يرجى أن يصبح شجرة مديدة الظل يانعة الاغصـان .. كان لا بد من هـذه الشدة لاخضاع أولئك القوم للنظـام وللقـانون ، بعد طول عبثهم بالنظام وبالقانون ، وكان لا بد من ضحية تضحى على مذبح الطاعة العسكرية .. ولكن الذى كان يدعو الى الحـزن العميق هو ان تكون الضحية ممثلة فى هذا الفتى الباسل !

وقرب الظهيرة ، كان رجل الدين قد قطع نصف الطـريق الجبلى المؤدى الى داره . وأراد اختصار الطريق ، فعرج على دروب ضيقة موحشة ، لا يطرقها سوى نذر من المارة عـلى أقدامهم حينا وعلى ظهور جيادهم أحيانا .. وكان كثير مـن الخرافات منتشرا بين أهل هذه المنطقة ، يتناقلونها مؤمنـين بها . ومن هذه الخرافات أن روحا شريرا كان يظهـر فى تلك الاماكن ، بين الحين والحين ـ وعلى الاخص عند انتصـاف النهار ، أو انتصاف الليل ـ فيلحق الاذى بمن يطرق هـذه الدروب .. بل لقد ذهبت الخرافة الى حد القول بأن الروح كانت لامرأة ، فأطلق عليها اسم « **ذات المعطف القـرمزى** » ! .. على أن الكاهن كان كثيرا ما يسخر من هذه الخرافات ، وكثيرا ما يبذل لمن يرددونها النصح بعدم تصديقها !

واذ طافت هذه الخرافة بذهن القس ـ وهو ماض فى طريقه ـ ارتسمت على شفتيه ابتسامة نمت عن سخرية .. على أنه حين أوغل فى الدروب الضيقة ، التى لم تكن تبلغها أشـعة

الشمس ، والتى أضفت عليها الوحشة سمة العزلة المخيفة والانقطاع عن العالم النابض بالحياة ، ذكر ما كان يقال من أن الارواح الشريرة تطيب لها السكنى فى مثل هذه الاماكن المنعزلة الجرداء ! .. **وبينما هو على تلك الحال من التفكير والتأمل ، اذا بصوت امرأة يشق أجواز الفضاء ويناديه باسمه : « ميشيل تيرى .. ميشيل تيرى ! أين أنت ؟ » . وخيل للرجل أنه يسمع صوت ذلك الروح الشرير الذى يقولون عنه ، وقد جاء ليعتدى عليه جزاء له على انكاره الخرافة . على أنه أجاب على النداء فى ثبات : « من الذى ينادينى ؟ » . فأجاب الصوت : « أنا الهائمة بين الحياة والموت ! »**

وبدت امرأة فارعة القوام ، برزت من بين حطام الصخور المتراكمة على جوانب الطريق الذى كان يسلكه . وتبينها الكاهن فاذا هى « ايلسبا » ، فشد زمام جواده . وتقدمت المرأة نحوه صائحة فى وجهه : « يقولون عنك فى هذه البلاد أنك أحد الآلهة ، فكن لى الها ، وقل أن ابنى بخير .. قل انه حى يرزق ، أتبع دينك وأعبد الرب الذى تعبد ! » .. وأجاب الكاهن فى رفق واشفاق : « أيتها المرأة ، ان الله لا يساوم على دينه وانما يطلب العبادة خالصة لوجهه ذى الجلال » .. وقالت ايلسبا مقاطعة : « صه أيها الكاهن ، أجئت لتسمعنى فصلا من كتابك المقدس ؟ .. لقد دالت دولتكم أيها الكهنة ، وتقلص نفوذكم ، ولم تعد لكم تلك السطوة التى كنتم تسودون بها على الاقوياء ، حينما كنتم توهمونهم بأن مصائرهم فى أيديكم .. وما دام ليس ثمة عون يرجى منك ، فاليك عنى ! »

وأجاب الكاهن فى رفق : « الحق أيتها المرأة التعسة ، انه لو اجتمع كافة الكهنة بسطوتهم التى تقولين عنها ، وبذلوا لك كل عون فى مقدورهم ، لما استطاعوا أن يدخلوا على نفسك شيئا من العزاء أو السلوى . أن ما لدى من أنباء لهو أسوأ الانباء » . وقالت : « اعرفها ، لقد حكم على ابنى بالاعدام » .

فقال : « ونفذ الحكم ! » .. ورفعت ايلسـبا رأسها نحو السماء ، وصاحت بصوت أشبه ما يكون بنعيق البوم : **« محال ، محال ، محال على بنى البشر أن يقضوا وينفذوا قضاءهم فى نفس اليوم ! .. أنت تخدعنى .. ألك من الشجاعة ماتستطيع معه أن تقول لى انى قتلت ابنى الاوحد ؟ » ..**
فقال الكاهن : « وددت لو كانت لدى أنباء غير هذه ، وكم يحز فى نفسى أن هذا الذى أنبأتك به هو ما حدث ! »

وضمت ايلسبا كفيها وانفجرت تقذف الكاهن بأقسى الالفاظ وأشنع اللعنات ، كما لم تفعل بأى مخلوق من قبل .. ومنذ تلك اللحظة ابتعدت ايلسبا عن العالم وعاشت منطوية على نفسها نهبا لآلامها لا يعنيها من أمور الدنيا كثير أو قليل

* * *

وتلك كانت حياتها .. أما موتها فسر غامض ، أحسب أنه ليس فى مقدورى كشفه للقراء . فكل ما عرف عنها بعد ذلك ، هو أنها قضت أربعة أعوام فى تلك العزلة القاتلة ، تجانب كل لقاء ، وتمسك عن التحدث الى أى انسان ، وتنفق سحابة نهارها جالسة الى جذع تلك الشجرة التى اتخذتها رفيقها الوحيد .. وكان بعض أهل الخير يعنون من بعيد بحالتها وبتوفير أسباب معاشها ، قدر ما كان يسمح به كبرياؤها وتعففها واعتزالها الناس . فلما ساءت حالتها الصحية وألح عليها المرض ، عهد أولئك الخيرون الى امرأتين بالتردد عليها والعناية بها ، حتى لا تفارق هذه الدنيا وحيدة محرومة من كل عون .

وفى أحد أيام شهر نوفمبر ، جاءت المرأتان الى الكوخ ، فوجدتا ايلسبا مضجعة على فراشها خائرة القوة ، غائرة العينين ، شاحبة الوجه ، فى حالة من الاعياء الشديد تبعث الخوف والقلق .. وبادرتا الى العناية بها ، فأوقدتا

نارا وأعدتا طعاما ، وجهدتا فى أن تسريا عنها وتشجعاها . ورأتا أنه لا بد لهما من قضاء الليل معها .. على أنهما أحستا قرب منتصف الليل باعياء شديد ، فداعب الكرى أجفانهما ، واستسلمتا راغمتين الى سنة من النوم .

فلما استيقظتا – قرب الفجر – لم تجدا ايلسبا على فراشها . بل أنهما لم تجداها فى الكوخ . وخرجتا تبحثان عنها قريبا من الدار فلم تجدا أى أثر يدل عليها ! .. ولم يكن فى وسعهما أن تواصلا البحث فى هذا الوقت الباكر ، بل كان لا بد لهما من أن تنتظرا طلوع النهار . وإذ بدا قرص الشمس يرتفع فى السماء ، راحتا تبحثان عن « ايلسبا » فى كل مكان – حول الكوخ – وقدم الكاهن تيرى .. فلما علم باختفاء ايلسبا أمر سكان القرية جميعا بأن ينتشروا فى كافة الارجاء بحثا عنها . ولكن أحدا لم يعثر عليها حية أو ميتة !

واختلفت الروايات عن اختفاء ايلسبا . فالذين يؤمنون بالجن قالوا : « ان الروح الذى كان يسيطر عليها لابد أن يكون قد اختطفها روحا وجسدا » ! . والذين لا يؤمنون بالخرافة قالوا : « انها ولا بد قد تخلصت من حياتها بالقاء نفسها فى أحد الجداول المجاورة ، أو من أعلى صخرة من الصخور القريبة .. ولو أمكن الوصول الى قاع تلك الجداول والى أعماق تلك الفجوات الجبلية السحيقة ، لامكن العثور على جثتها ! »

أما الكاهن تيرى ، فكان له رأى خاص .. هو أن تلك المرأة التعسة ضاقت بالمرأتين اللتين كانتا تبذلان لها المساعدة والعون ، وأبت الا أن تقضى ساعاتها الأخيرة بعيدا عن الانظار ، حتى لا يطلع أحد على آلامها .. ومن ثم كان رحيلها عن الدار خفية وفى جنح الظلام ، الى حيث قادتها قدماها الواهنتان وجسمها المتداعى ، وهناك لفظت أنفاسها الاخيرة فى مكان لا تقع عليه الابصار !


NEW LIGHT
ON SEXUAL
KNOWLEDGE
& THE
KINSEY REPORT
أضواء على الجنس
بحوث أجريت على أساس أعظم دراسة
جنسية أجريت فى تاريخ البشرية.. وهى
تقرير الدكتور "الفريد كينزى" وزملائه

عودة الى تقرير ((كينزى))

◆ لم يثر كتاب ضجة عالمية ، فى مختلف الأوساط والطبقات ، قدر ما فعل كتابا « السلوك الجنسى لدى الذكر » و « السلوك الجنسى لدى الأنثى » .. وهما الكتابان اللذان تضمنا تقرير العالم الامريكى المرحوم « الفريد كينزى » عن البحوث التى قام بها وجيش من زملائه ومن الأعوان والاخصائيين ، فى ميدان « الجنس » .. ولقد قدم لك « كتابى » ملخصا وافيا ـ كان أول وأهم مانشر بالعربيـة عنه حتى اليوم ـ فى الأعداد من ٥٢ الى ٧١ . وهو اليوم يقدم لك ملخصـا لبعض البحوث التى آجريت ، على آسـاس هذا التقرير الخطير ، على أن نوافيك ببحوث أخرى ـ فى هذا الصـدد ـ بين الحين والحين . ففى الصفحات التالية ، يلخص « كتابى » لك بحثا قام به الدكتـور « كليلان فورد » ـ مساعد أستاذ البشريات بجامعة (ييل) ـ عن « الجنس لدى القبائل البدائية » ، اشتمل على أغرب التقاليد والعادات الجنسية فى المجتمعات المتخلفة .. وبحثـا عن « الدين والجنس » ، قام به أحد كبار رجال الدين ، وهو الدكتـور « فردريك كويشر » ، مدير مجلس التعليم الكلينيكى لطلبة اللاهوت بالولايات المتحدة وكندا

◆ **لقد** ظل ((الجنس)) ملازما للانسان منذ الخليقة ، وقد رافقه فى تطوره وارتقائه .. ولكن ثمة شيئا آخـر كان يلازم ((الجنس)) و ((الانسان)) طيلة الاجيال والقرون ، كذلك .. هذا الشيء هو الشعور الواهم بأن سلطان الانسان على الجنس فى ازدياد ، وأن تقدم الحضارة يزيد من مقدرة الانسان عـلى السيطرة على الجنس ، حتى انه يزداد مقـدرة على البقاء فى طهر جنسى الى الزواج .. ولكن الانسان نفسه لا يميـل الى تحقيق ذلك ! .. فالواقع أن الرأى العـام ـ لدى البشر ـ فيما يتعلق بالجنس شيء ، وممارسـته الشخصية للجنس شيء آخر . وقد عرف الاطباء والمحللون النفسيون هذا منـذ وقت ، ولكن الرأى العام لا يزال فى جهل به !

والذى يجب أن نذكره ، أن الدكتـــور كينزى حين عالج الجنس فى كتابه « السلوك الجنسى » انما كان عالما ، وليس اخلاقيا .. فلم يكن من شأنه أن يبحث فيما اذا كان سـلوك العينات التى فحصها طيبا أو فاسدا ، اخلاقيا أو غير اخلاقى ، اثما أو طهرا .. **انما كان همه أن يكشف عـن الجنس : متى يبدأ النشاط الجنسى ، ومعدل مرات حدوثه ، ومدى بقائه . وفى خلال بحثه هذا ، اكتسب بيانات عظيمة القيمة للفـرد والمجتمع . فبين اننا لا نمارس ما ندعو اليه .. كما أن رواج كتابه قد كشف عن مدى اهتمامنا بالجنس !**

ولقد أثبت كينزى أن كل انسان عادى ، فريسة أو سـيد ــ كيفما يتراءى لك ــ لدافع وقوة جنسيين طاغيين .. وهذه القوة الجنسية تبدأ فى سن مبكرة ، وتظل الى سن متأخرة ، وتحفز الانسان بطرق عديدة . فهى تحدد قدرا كبيرا من سلوكه ، اذ تؤثر على اتجاهه الفـــكرى .. فهى التى تجعله مزهوا ، وهى التى تجعله حزينا ، وهى التى توحى اليه بأنه مذنب ، وهى التى توحى اليه بأن يخجل .. هى التى تمنحه الشعور بالقوة ، أو تبث فيه الشعور بالضعف .. فالجنس ذو دور خطير فى طبيعة الانسان .. ومع أن طبيعة الانســان لا تتغير ، فان سلوكه كثيرا ما يتغير !

الجنس لدى القبائل البدائية

للدكتور « كليلان فورد » ــ مساعد أستاذ البشريات بجامعة (ييل)

• **الى** أن ظهر تقرير « كينزى » ، لم نكن نعلم عن الجنس أكثر مما نعلم عن الكواكب ، أو عن قبائل « الهوتينتوت » فى أفريقيا الجنوبية .. فلقد تيسر ــ لاول مرة ــ قدر كبير من البيانات الحقيقية ، القائمة على الواقع ، والتى تثبت أن الذكر

الامريكي ليس ملاكا ، وانما هو يشبه كل الشـــبه غيره من الآدميين ـ فى المجتمعات الاخرى ـ من حيث السلوك الجنسى .. ذلك لان العلم قد كشف من قبل عن أن المميزات القائمة على وظائف أعضاء الجسم ـ لدى المخلوقات البشرية ـ واحدة فى أصلها وجوهرها .. وما الفوارق التى تبدو بين سلوك قوم وقوم ، الا فوارق قائمة على عوامل اجتماعية أو ثقافية !

ويبدو فى مجتمعنا ميل كبـــير الى عدم اعتبار الانســـان حيوانا ، أو النظر الى سلوكه على أساس التركيب الحيوانى له . **ولكن تقرير « كينزى » أظهر بجلاء أن ميـــول الانسان الى السلوك الجنسي فى أمريكا ـ كما فى غيرها من البلدان ـ انما ترجع الى أعمق أعماق طبيعته العضـــوية ، وانها لذلك ذات سلطان قوى ، بحيث لا يمكن كبحها أو السيطرة عليها ، الا بعناء .. والحقيقة البارزة الغالبة فى بحوث علماء الاجناس ، هى انه ليس من المستحيل على أى مجتمع ، أن يحد السلوك الجنسي البشرى ، بحيث يقتصر على نوع معين من النشاط ، وعلى شريك جنسى معين** .. وفى هذا تختلف المجتمعات بعضها عن بعض ، اذ أن مقاييس السلوك الجنسى ـ أو المثـــل التى تتخذ قياسا له ـ تتباين من مجتمع الى آخر .. بل أن تقرير « كينزى » بين انها تختلف من طبقة او طائفة الى طبقـــة او طائفة أخرى ، فى المجتمع الواحد .. وهذا التباين فى السلوك الجنسى أشد وأظهر من التباين فى أى سلوك آخر . ومن ثم ، يحسن بنا ان نستعرض ما يجرى فى مجتمعات العالم .

عشائر بدائية تفرق بين الحب والجنس

• **تدل** البحوث على أن النشاط الجنسى بين صغار الاطفال أمر شائع فى كثير من المجتمعات . فبـــين قبائل « القازاق » ـ فى آسيا الوسطى ـ و « الياقوت » فى سيبريا ، نجـــد أن الكبار كثيرا ما يجرون بأنفسهم عمليـــة الاستمناء (العـــادة

السرية) لاطفالهم الرضع ، كوسيلة لتهدئتهم وتدليلهم .. فى حين أن قبائل « الناما » — وهى فرع من عشائر « الهوتينتوت » ، فى أفريقيا الجنوبية — و « البولينيزيين » تبيح للصغار — من الجنسين — وسائل استثارة أنفسهم من الناحية الجنسية .
ومع أن بعض المجتمعات تنظر فى استنكار الى الاستنماء ، الا أنها تبيح للصغار الجماع بين الجنسين فى لعبهم ، تقليدا للكبار .. بل ان قبائل « آينو » — فى اليابان — والكاريبيين فى أمريكا الجنوبية ، و « الارونتا » فى استراليا ، و « الماساى » فى أفريقيا ، و « التروبرياندر » فى جزر المحيط الهادى ..
كل هذه المجتمعات تشجع الذكور والاناث البالغين على الاتصال الجنسى أثناء اللعب ! .. وفى بعض هذه المجتمعات ، ابتكرت أساليب للجماع تقلل من احتمالات الحمل ، وان لم تعلق أهمية تذكر على ذلك ! .. بل ان الفتاة التى تحمل قبل الزواج فى عشائر « البوكابوكان » فى (بولينيزيا) ، تعتبر مرغوبة عن سواها كزوجة ، لانها أثبتت خصبها !

وفى مجتمعات أخرى ، لا تشجع ألوان النشاط الجنسى بين البالغين غير المتزوجين ، ولكن العلاقات الغرامية قليلا ما تلقى اعتراضا من الاهل .. ذلك لان الاستنكار العام لا يؤدى الا الى اللقاءات السرية . ومن ثم نجد أن العلاقات الغرامية بين الجنسين — فى هذه المجتمعات — تجرى جهارا ، دون أن تلقى لوما أو معارضة . على أن ثمة مجتمعات قلائل — مثل « الناما هوتينتوت » — تفرض قيودا شديدة على علاقات البالغين من الجنسين ، وان كانت تشجعها بين الاطفال ، كما قدمنا .. وتؤدى هذه القيود الى انتشار الاستمناء

تبادل الزوجات فى المواسم والاعياد

• **كذلك** تتباين فنون الجماع وأساليبه من مجتمع الى آخر . فالمداعبات التى تسبق الجماع نادرة فى بعض المجتمعات ،

ومتفشية فى مجتمعات أخرى . وهناك مجتمعات لا تعرف التقبيل كجزء من الجماع الجنسى ، كما أن هناك مجتمعات تنظر اليه باشمئزاز واستهجان . **ومن العادات المتفشية بين أقوام ((الآينو)) ـ فى اليابان ـ و ((التودا)) فى الهند ، عض جلد العنق أثناء الجماع . أما ((التربرياندر)) ـ فى جزر المحيط الهادى ـ فيتفشى بينهم عض الشفاه والخدود .. بل وأهداب العينين !** .. ولا تميل أقوام ((الليبشا)) ـ فى الهند ـ و ((الليسو)) فى (نيو ايرلند) الى تحسس أجسام الجنس الآخر ، أثناء الجماع .

ويسمح للرجال المتزوجين بقدر من الاتصال الجنسى بأناث غير زوجاتهم ، فى كثير من المجتمعات . بل أن هناك مجتمعات تحرم الزنا على المتزوجات تحريما باتا ، ولكنها تتساهل فى مطالبة الازواج بالوفاء . وكثير من الشعوب تبيح للرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة ـ فى وقت واحد ـ اذا استطاع الانفاق !

وفى بعض المجتمعات ، يعتبر اعارة الزوجة للضيف مظهرا من مظاهر الافراط فى الحفاوة ، كما أن تبادل الزوجات ـ لليلة أو اثنتين ـ من العادات الشائعة بين عشائر ((الشوكتشى)) فى سيبريا ، و ((الماساى)) فى أفريقيا ، والاسكيمو .. وهناك أقوام تبيح العلاقات الجنسية اباحة تامة فى المناسبات والاعياد .. فعشائر ((الايفوجو)) ـ فى جزر الفلبين ـ تعتبر موسم الحصاد مناسبة للمتزوجين ـ من الرجال والنساء ـ كى يتحرروا من الوفاء الزوجى ، لاشباع نزواتهم الجنسية !

كهنة يتزوجون رجالا مثلهم !

• **وتحرم** معظم المجتمعات الاتصال الجنسى بالمرأة فى فترة الحيض الشهرية ، وقبيل الوضع ، وعقب الوضع بمدة . ولكن بعض المجتمعات تمد فترة التحريم الى ما بعد فطام الوليد . وهناك مجتمعات تحرم الاتصال الجنسى فى مناسبات غريبة

كالحرب ، وكبعض مواسم الصناعة . فقبائل « الازانده » الافريقية تحرم الجماع على الزوجين قبل صناعة الاوانى الفخارية ، بينما تحرمه قبائل « الهوبى » الهندية قبل الانطلاق لجمع الملح أو لصيد الوعول .. ويمتنع رجال عشائر « الكوكيوتل » عن الجماع قبل أنهماكهم فى صناعة القوارب .. على أن فترات التحريم هذه تسبقها فترات اباحة فى كثير من هذه المجتمعات

والعلاقات الجنسية بين أبناء الجنس الواحد – اللواط والسحاق – تلقى تشجيعا فى بعض مجتمعات . بل أن عن الرجال – فى بعض المجتمعات – من يتخذون زى النساء وعاداتهن وأخلاقهن . وكثيراً ما يكون هؤلاء الرجال من الكهنة ذوى النفوذ ، أو السحرة الذين يخشى شرهم . بل أن كهنة عشائر الياقوت – فى سيبريا – يتزوجون من رجال مثلهم ، ويلقون احتراما عظيما من أعضاء طائفتهم ! .. وعلى النقيض من هذا ، نجد أن الاتصال الجنسى بالحيوان مستهجن فى أغلب المجتمعات . فهو مثال يشير الى وجود بعض مقاييس جنسية عامة ، بين الثقافات على تباينها !

ومن أهم ما يلاحظ – من الناحية الاخرى – أن المقاييس الجنسية تتباين بين أقسام المجتمع الواحد ، كما بين تقرير كينزى بوضوح مدعم بالادلة . وهذا التباين – وكذلك التشابه فى نواحى أو مقاييس جنسية أخرى – ذو قيمة كبيرة فى دراسة الحضارة فى المجتمع .. **وقد كانت أبرز نتائج الدراسة التى أجراها « كينزى » – فى هذا الصدد – أن التباين يرجع الى عوامل ثقافية ، ولا يرجع بحال من الاحوال الى عوامل عنصرية أو الى الوارثة البيولوجية** . ففى الطبقة الواحدة – أو الطائفة الواحدة – من المجتمع ، تتشابه المقاييس الجنسية لانها تقوم على تقاليد متوارثة ، ولان الظروف الاجتماعية والتربوية والتعليمية واحدة .

وفى بعض المجتمعات ، وضعت خطط لتوحيد الثقافة الجنسية . **والتعليم هو أهم أداة فى هذا المجال . اذ أن المناهج التعليمية توحد ما يزجى الى النشء من معرفة تتعلق بالشؤون الجنسية .** وبتوفير المعرفة القائمة على التجربة والاختبار – لا سيما فى فنون وأساليب النشاط الجنسى – يمكن لكل ثقافة أن تتخلص من الشوائب القائمة على الجهل والمعرفة الخاطئة ، فى الميدان الجنسى .

الدين والجنس

للدكتور فردريك كريشر

مدير مجلس التدريب الكلينيكى لطلبة اللاهوت بالولايات المتحدة وكندا

• **لعل** الضجة التى قوبل بها تقرير « كينزى » مردها الى أن عالم الجنس ظل محرما الى سنوات غير بعيدة . ومع أن الانسان لم يحجم عن محاولة كشف طبيعة العالم المحيط به ، الا أنه كان يبدى ترددا عجيبا ازاء البحث فى طبيعة عالمه الداخلى .. فهو قد أبدى استهجانا عندما بين له « داروين » احتمالات أصل نشأته وتكوينه .. وهو قد سفه « فرويد » وتلاميذه حين طالعوه – لاول مرة – بما كشف له حياته النفسية .. وهكذا كان الحال عندما صارحه « كينزى » بما خرج به من أبحاثه بصدد سلوكه الجنسى .

والذى يعنينى هنا – كرجل دين – مسألتان .. أولاهما : هل يهتم الدين والكنيسة بمادة تقرير كينزى ؟ .. أما الثانية فهى : ما كنه هذا الاهتمام ؟

ومن الناس من يرون أن ليس للدين أى شأن بالسلوك الجنسى ، لان الدين – فى رأيهم – شىء منفصل عن الحياة

المادية ، أو مجرد طقوس وعبادات للاتصال بالخالق . ولكن الدين ـ فى الواقع ـ جزء لا يتجزأ من حياة الفرد ، وهو لذلك يهتم بكل نواحيها ، لا سيما الناحية الشخصية ، والناحية الاجتماعية .. وبالنسبة لمن يؤمنون بهذا ، نجد أن النتائج التى اهتدى اليها « كينزى » تستلزم دراسة وعناية .. ذلك لانهم يصبون الى الحقيقة ، والحقيقة وحدها هى وسيلتهم الى التحرر والخلاص ! .. ولقد عنى « كينزى » وزملاؤه بايراد الحقائق ، دون أن يحكموا عليها بما اذا كانت طيبة أو خبيثة ، ودون أن يفضلوا وسيلة من وسائل التفريج الجنسى على غيرها ، أو أسلوبا ومقياسا على آخر . ذلك لان الامر لا يعنيهم كباحثين علميين فى نطاق معين

الدين يهتم بالجنس ليرعى حياة الثمرة

ولكن الامر يعنى كل فرد فى حد ذاته ، فان تفضيل وسيلة من وسائل التفريج كالاستمناء مثلا ، على الوسائل الاخرى ـ كالاحتلام أو الجماع بدون زواج ، أو الاتصال الجنسى بالحيوان ـ مسألة تتوقف على الدوافع النفسية ، وتتصل اتصالا مباشرا بالضمير .. ومن هنا تصبح ذات علاقة بالدين . **فعندما يشعر الفرد بأن قوة طاغية تجتاحه ، فلا يملك ازاءها سوى الاستسلام للتيار ، وهو يشعر ـ فى الوقت ذاته ـ بنتائج غير مرضية ، أو لا ترتاح اليها نفسه .. هنا يكون الدين شأن ، كما أن له شأنا فى النشاط الجنسى اذا لم يقم فى نطاق الزوجية ، والنشاط الجنسى للرجل المتزوج مع غير حليلته ..** وهكذا . فلقد سبق الدين الباحثين الى القول بأن أية علاقة بين فردين يمكن أن تنطوى على درجات متباينة من الشعور الايجابى ، وأن العلاقة التى تكون مرغوبة أكثر من سواها ، هى التى تحمل الدرجة العظمى من هذا الشعور الايجابى .. بل أن الدين يذكر « الحب » ـ فى هذا الصدد ـ

فى حين أهمله « كينزى » وزملاؤه .. وعلى هذا الضوء ، يحكم الدين بأن الجماع مع مومس أقل قيمـة من مجامعة شريكة العمر !

والجماع الجنسى يؤدى – غالبـا – الى انجاب الاطفال . والمجتمع يكاد يقتصر فى اهتمامه بالطفل عند حـد رغبته فى البقاء والاستمرار . **وكذلك الدين – كهيئة أو نظام اجتماعى – يرغب فى البقاء والاستمرار ، ولكن اهتمامه بالنسل لا يقف عند حد الاطمئنان الى مولد الطفل ، أو الاكتراث بعدد الاطفال، وانما هو يعنى بأكثر من هذا .. انه يعنى بنوع الحياة ، لا بعدد الاحياء .. بالكيف ، لا بالكم !** .. فهو لا يقنع بالاطمئنان الى مولد طفل، لن يلبث أن يكون شخصا بالغا ، ثم يهرم ويموت .. وانما هو يهتم بالاطمئنان الى أن كل فرد فى المجموع يستطيع أن ينمو ويتطور فى يسر وسهولة .

مثال ذلك ما ثبت من أن الطفل يحتاج الى نوع معين من الحب والاستقرار، فى علاقاته بالكبار، حتى يحظى بأعظم قسط من النمو والتطور . والاسرة ، هى المورد الوحيد الذى يبدو قادرا على توفير هذا الحب والاستقرار للطفل . ومن ثم يهتم الدين بالاسرة أكثر من اهتمامه بالاب والام ، فى حد ذات كل منهما ، فهو يضع أصولا للزواج والطلاق !

الجنس نعمة من الله

• **ولما** كان الجماع يسبق انجاب الاطفال ، لذلك يصر الدين على أن يكون الغرض من الجماع بين الجنسين ، هو انجاب النسل .. وهنا يحسن أن نقارن بين النشاط الجنسى للانسان والحيوان . فمن المعروف – عن يقين – أن الانسان هو الحيوان الوحيد الذى يستطيع أن يمضى فى الجماع فى غير المواسـم القصيرة المحدودة للحيوان (مواسم العشـار) . كذلك من المعروف أن الذكر – انسانا كان أو حيوانا – يصل الى سورة

الشهوة - أو ذروة اللذه - أثناء الجماع ، فى حين أن الانثى - من البشر - هى الانثى الوحيدة التى زودت عندما خلقت بما يكسر هذه السورة ، أو يرد فعلها .. **وهذا يوحى بأن الخالق كان يهدف الى أغراض أخرى - الى جانب النسل - حين منح الانسان نعمة « الجنس » ! ذلك لان « الجنس » نعمة من الله !** .. وهذه حقيقة لا يتقبلها على علاتها رجال الدين ، فى كل مكان .. بل أن كثيرا منهم يرون أن الجنس أداة شر ، ووسيلة من وسائل الشيطان .. ولعل ما يدعوهم الى هذا ، يتمثل فى ان كثيرا من علل البشرية - كهتك العرض ، وأنجاب الاطفال غير الشرعيين ، والطلاق ، والجنون ، والجريمة - تتصل فى أحيان كثيرة بألوان من النشاط ذات طابع جنسى .

ولكن الاحرى بهم أن يروا فى هذه العلل ما ينبههم الى أن الجنس - كنعمة من الخالق - يجب أن يتطور وينمو فى مراحل منتظمة ، خاضعة للرقابة . ذلك لان معظم العلل الناشئة عن الجنس ، انما ترجع الى تأثر المرء - منذ طفولته - بالثقافة التى يمليها عليه أبواه ، وبالمنع والحظر ، اللذين قد يؤديان الى التضارب بين رغباته وبين ماهو مفروض عليه ، وعدم استطاعته التوفيق بين الناحيتين .. **ولكن الدين اذا نظر الى الامر نظرة بناءة ، مرشدة ، استطاع أن يحول دون تفشى هذه العلل . وذلك بأن يأخذ فى اعتباره حقائق الكيان الانسانى ، وبأن ينظر الى احتمالات الخير واحتمالات الشر فى الطاقة الجنسية التى وهبها كل فرد من أفراد النوع البشرى . ثم يعمل على أن يعزل المؤثرات التى تنحو بهذا الحافز المانح للحياة - وهو الجنس - الى أن يكون حافزا مدمرا** .. وبالتالى ، يعمل على ازالة العراقيل التى تعترض نمو الفرد نموا كاملا شاملا من جميع النواحى ، والتى تمنعه من أن يساير بقية الجماعة التى يعيش فيها .

عندما ينظر الدين الى الانسان .. كانسان !

• **بهذا** يستطيع الدين أن يدرك الطاقة الجنسية لدى الطفل ولدى المراهق ، وأن يرشد كلا منهما الى الطريق الصحيح للنضوج . وبدلا من أن يخلق الدين فى الصغير ضميرا صلبا يابسا ، يجب أن يعنى أولا بأن يعرف أن الخير لا يتمثل فى أوامر ونواهى ، وأن الخير ليس أعمالا تؤدى وأعمالا تجتنب ، وانما الخير هو كل ما يولد الحب، والثقة ، والطمأنينة ، وسلام النفس ، وحسن النية بين الافراد ، وبين الجماعات .. هو كل ما يساعد على اظهار الشعور الايجابى المتبادل ، فى حرية ويسر .

ومثل هذا الاتجاه من الدين ، يجب أن يعترف بأهمية العامل الانسانى فى تنمية الشخصية ، وأن يدرس الحاجات الداخلية فى نفس الفرد ، ومدى المؤثرات التى تتعرض لها هذه الحاجات ـ أو الرغبات ـ والتى تتولد عن التربية والنشأة ، ومفعول هذه المؤثرات .. وهل فى وسع بعض نواحى النشاط الاخرى فى حياة الفرد ـ لا سيما الاهداف التعليمية ـ أن تحل محل السلوك الجنسى ؟ .. وبمعنى آخر ، هل هناك غايات يمكن أن تقتبس من نواحى النشاط الاخرى ، لتمكين الفرد من التسامى ؟

على هذه الاضواء نرى أن « كينزى » وزملاءه قد أدوا خدمة كبرى ، اذ سلطوا الاضواء على قدر كبير جدا من الحقائق المادية ، فخطوا بذلك خطوة واسعة أولى نحو دراسة ترمى الى كشف الحقيقة .. وقديما قال نجار الناصرية :

« لسوف تعرف الحقيقة ، ولسوف تجعلك الحقيقة حرا »!



بطلة.. من الهند!

مأساة ملكة هندية تآمرت عليها الأحداث
للمؤرخ الفنان العالمي "فورتوناتو ماتانيا"



تلخيص : محمد بدر الدين خليل

.. برغم أنها كانت ملكة !

◆ فى الأنباء أن الملكة السابقة « نازلى » ، رأت أن تختم حياتها بنقيصة جديدة ، فتحولت عن دينها الى دين آخر ، لا عن عقيدة واقتناع ، ولا عن ايمان وتقرب الى الله — فان أعمالها لا تدل اطلاقا على استعداد للتكفير عن ماض ملىء بالمثالب — وانما .. هو لون من ألوان الانحلال والضلال .. ومن الصدف الطريفة ، أن تكون قصة المؤرخ الفنان العالمى « ف. ماتانيا » ، لهذا الشهر ، عن ملكة .. وملكة شرقية ، ولكن .. ما أبعد الفارق بين « تشاند » الهند ، و «نازلى» ! .. لقد كانت « تشاند » ملكة ، ولكن الملك لم يفسدها ، والسلطان لم يزغ بصيرتها .. ولقد تعرضت « تشاند » للغدر ، فلم تكفر بشعبها ، ولم تهجر وطنها ، ولم تتنكر لعقيدتها ، وأثبتت أن النفس النبيلة لا يمكن أن تجحد نبلها .. ولو صارت صاحبتها ملكة !

حدث أثناء جولتى فى الهند ، أن شهدت راقصة هندية ، هفا فنها بمشاعرى ، فرسمت لها صورة تخطيطية بالقلم الرصاص .. ثم نسيتها فى زحمة الحياة والعمل ، الى أن قدر لى بعد خمس وعشرين سنة ، أن أعثر على الرسم بين أوراقى . وفيما كنت أتأمله ، رنت فى ذاكرتى أصداء الاغنية التى كانت الراقصة ترددها ، أثناء رقصها .. أغنية « الملكة تشاند » . وأوحى الى جمال القصة بأن ابحث عن حقيقتها .. وخرجت من بحثى بالقصة التى أقدمها فى هذه المرة :

عروس وملكة .. فى التاسعة من عمرها !

• **كان** يوما حافلا بالامل والرجاء ، حين اجتمع المبعوثون المختارون ، ليتباحثوا فى عقد هدنة .. وقبل أن ينتهى أسبوع واحد ، لم تعقد الهدنة فحسب ، بل أن السلام الذى قام على أساسها ، عززته صداقة وزيجتان .. **فقد زف ابن « نظام شاه » الى أخت أمير (بيجابور) ، كما تزوج هذا الاخير من**

الاميرة ((تشاند)) ، ابنة ((نظام شاه)) ، فأصبحت ملكة .. كما كانت زوجة الامير تلقب .. وحول هذه الاميرة تدور قصتنا ..



رسم الراقصة التى أنشدت أغنية الملكة ((تشاند))

كانت فى التاسعة من عمرها حين زفت الى الامير، وليس هذا بعجيب ، ففى أوروبا كانت أطماع الملوك تحملهم على أن يزوجوا بناتهم وأبناءهم فى الطفولة ، ليضمنوا عروشا جديدة لاولادهم .. فضلا عن أن طبيعة الشرق تضاعف من فورة النمو والنضوج .. وكيفما يكن الامر ، فان الاميرة ((تشاند)) زفت الى أمير (بيجابور) ، وهى فى التاسعة من عمرها . ووصلت الى حفل الزفاف على ظهر فيل ، فبهرت عينيها الصغيرتين مظاهر الترف والبذخ ، التى تتسم بها عادة حفلات الشرق . . لا سيما اذا كانت الحفلة لزفاف أمير حاكم !

وسرعان ما أحب الامير عروسه الصبية ، وأحبت ((تشاند)) زوجها ، فلم تعد تفارقه ـ فى السنوات التالية ـ بل باتت زميلته التى لا تنفصل عنه .. فكانت تذهب معه أينما ذهب ،

وكانت تشاركه حياته بكل ما فى المشاركة من معنى ، حتى أنها كانت تسهم معه فى أعماله ، وتحل محله فى تصريف بعض شؤون الحكم !

أنوثة مع قوة .. ورقة مع عنف !

• **وأبدت** الملكة « تشاند » براعة وحذقا . ولكنها كانت ذات ولع طبيعى بالرياضة والصيد والقنص بوجه خاص .. وقد تطور بها هذا الولع الى الشغف بالمبارزة والنزال وألعاب الحرب ، حتى أصابت تفوقا فى تصويب السهام والنشاب ، وحتى بزت رجال الحاشية فى المبارزة ، وباتت قادرة على أن تروض أشد الجياد جموحا واستعصاء على الراكب ! .. **وكانت تعتد بمهارتها هذه وتعتمد عليها ، اذا ما خرجت الى الصيد ، فكم أوقعت الذعر فى قلوب مرافقيها ، بما كانت تقدم عليه من جرأة واستهتار ! .. وكثيرا ما كانت تستدرج نمرا ، حتى تغريه بأن يثب على الفيل الذى تركبه ، لتستقبله برمح يغوص فى أحشائه وهو يهبط على الفريسة التى ظن أنها له لا محالة !**

ولكنها لم تقنع بهذا ، فكثيرا ما كانت تخرج مع زوجها فى المناوشات التى يشترك فيها جيش الامارة ، فتشترك اشتراكا فعليا فى القتال ، وتبدى براعة تخلب ألباب الرجال !

وكان من الطبيعى أن تنمو عضلات الملكة بهذا المران والنشاط . بيد أن هذا لم يكن قط على حساب أنوثتها . اذ كانت أنوثتها تنمو وتنضج باطراد ، فتبرز فتنتها ، وتضاعف من سحرها .. حتى لم تكن فى الامارة أنثى تفوقها ! .. وهكذا قدر لتشاند أن تكون فى المقدمة دائما ، مبرزة على الرجال والنساء معا ! .. وليس هنا مجال تعداد مواهبها وصفاتها ونواحى الكمال فيها ، فان هذا جدير بأن يشغل صفحات كثيرة ،



.. وكيفما يكن الامر ، فان الاميرة ((تشاند)) زفت الى أمير (بيجابور) وهى فى التاسعة من عمرها .. ووصلت الى حفل الزفاف على ظهر فيل فبهرت عينيها مظاهر الترف والبذخ !
(لوحة بريشة الفنان العالمى ماتانيا)

وينأى بنا عن قصتنا الاصلية ! .. **بيد أن هذا لا يثنينا عن أن نذكر أنها كانت فنانة ذات استعداد فطرى ، تجيد العزف على « الفينية » ـ وهى اداة موسيقية ـ وتقرض الشعر !**

وفى هدأة الاصيل ـ بعد التخفف من أعباء الاعمال ـ أو فى سكينة الليل ، فى الامسيات الحارة التى يخرج فيها الناس الى شرفات دورهم وحدائقهم ، كانت أنغام « الفينية » كثيرا ما تسرى متجاوزة أسوار قصر الامير ، وقد راحت الملكة تعزف لترضى هوايتها الفطرية ، ولتسرى عن زوجها الحبيب !

وعلى هذا النحو سارت حياة « تشاند » .. حياة جميلة ، بهيجة ، حافلة بألوان النشاط على تباينها ، عنيفها ووديعها .. وما كان لانثى أن تحلم بحياة تفوق هذه !

فى خضم الحكم والسياسة

• **شىء** واحد كان يعكر هناء « تشاند » ، ويشوب سعادتها بشائبة من الكدر .. ذلك هو أن زواجها لم يعقب نسلا ! .. وكانت لا تفتأ ترجو وتنتظر ، عسى أن يشفق عليها القدر ، فيمنحها طفلا تكتمل به هناءتها . ولكن الايام راحت تمر تباعا ، حتى انقضى ستة عشر عاما على زواجها ، ولما يصل الطفل المشتهى . **واذ ذاك فقط ، لم يعد فى وسع الامير والملكة أن يمضيا فى التشبث بالامل ، وأيقنا أن لا سبيل لهما الى ولى عهد من صلبهما . فاضطر الامير ـ وفقا للتقاليد ـ الى أن يختار له خليفة فى الحكم ، فوقع اختياره على أحد أبناء أخته ، وكان يدعى « ابراهيم » .**

ولم يمض طويل وقت ـ عقب ذلك ـ حتى قضى الامير نحبه . فكانت وفاته بداية صفحة جديدة فى حياة الملكة « تشاند » .. بداية مرحلة حافلة بالاعباء ، والمسئوليات ، فقد أصبحت وصية على الامير الصغير « ابراهيم » . ولما

كانت قد اكتسبت — فى حياة زوجها — مرانا على شؤون الحكم ، وخبرة بأمور البلاد ، فانها كانت خير من يصلح لهذه المهمة .. مهمة تسيير دفة الحكم ، ريثما يبلغ الامير رشده .

ولم تكن هذه المهمة بالسهلة ، فان المستشارين الذين حفوا بها كانوا ثلة من المتنافسين المتزاحمين ، الذين تنهش الغيرة قلوبهم . على أن الملكة كانت قد درست شخصياتهم — منذ كان زوجها الى جوارها — وحللت نفسياتهم ، فاستطاعت بالحيلة واللباقة أن تروضهم وتسوسهم ..

المعركة التى لم ينسها الاعداء

، **وكانت** الاعوام الستة عشر التى شاركت فيها « تشاند » زوجها شؤون الحكم ، قد طمأنتها الى أنه ليس ثمة خوف من أى عدو خارجى . فان معركة « القناع » التى أوقع فيها زوجها الهزيمة بأعدائه ، كانت لا تزال عالقة بأذهان هؤلاء .. **وكان الدور الذى لعبته الملكة فى هذه المعركة ، قد أقنعهم بأنها — رغم أنوثتها — لا تقل جرأة وقوة عن أصلب الرجال .. فقد خاضت « تشاند » هذه المعركة ، وكانت لا تفتأ تنطلق الى الصفوف الامامية ، على صهوة جواد أبيض لم يكن أى رام — من رماة السهام — ليخطىء تبينه ..** ولكن أحدا منهم لم يستطع أن يصيبها ، بل ولا أن يرهبها ! .. وكانت حميتها من أهم العوامل التى أثارت حماس جنود زوجها ، وحملتهم على أن يبلوا خير بلاء ، وأن يستبسلوا فى الصراع ، حتى نكلوا بأعدائهم !

تلك كانت أيام لم تغب عن أذهان أعداء الامارة ، فكانت دائما تردعهم عن المجازفة ، وان لم تمنعهم من أن يفكروا ، ويتربصوا انتظارا لفرصة تسنح ، ويتجرأوا — بين الحين والحين —



وكانت تنطلق الى الصفوف الامامية فتثير حمية الجند !
(لوحة من رسم الفنان العالمى : ماتانيا)

فينقضوا بعض المواثيق أو العهــود .. على أن « تشاند » حرصت على أن تتبع سياسة صريحة ، مستقيمة ، أملا منها فى أن تمكنها الحكمة المســتمدة من طول الخبرة ، والامانة المستمدة من فطرتها السليمة ، من أن تتغلب على كل عقبة .. وما خطر لها قط أن الحكمة والامانة سلاحان لا يصمدان أمام المكر والخداع ، فى دنيا السياسة .

الاطماع تنخر الولاء

• **وكان** منبت المكر والخداع فى امارتها ذاتها . فقد دفعت الغيرة بعض الطامعــين من الزعماء – الذين لم يمكنهم حــزم « تشاند » من تحقيق أطماعهم – الى أن ينشروا الاراجيف والاكاذيب بين الرعية .. **والجماهير عادة – لا سيما العامة والجهلة – سرعان ما ينساقون لما تســمعه آذانهم ، وتتناقله ألسنتهم . ولقد استطاعت حكمة الملكة أن تتغلب على دسائس القوم زمنا ، وان زادت هذه الحال من متاعبها فى ادارة دفة الحكم .**

ثم قدر للأحداث أن تتطور فجأة تطورا سريعا ، على غير توقع . اذ أن قيادة الجيش وكلت الى قائد يدعى « نيهونج خان » . ولاول مرة أخطأت فراسة الملكة فى اختيار عون من أعوانها ، اذ أثبتت الايام أن هذا القائد كان من ذوى النفوس الخبيثة ، المتقلبة ، وأن الاطماع كانت تنخر ولاءه للملكة التى وثقت فيه . فسرعان ما تملكته شهوة الحكم ، ووسوست له نفسه أن ينتزع مقاليده من يدى « تشاند » ، ويســتأثر بالوصاية على الامير الصغير ، لعل الفرص تسنح بعد ذلك ، لكى يستأثر لنفسه بالامارة !

وما كان ليستطيع أن ينازل الملكة جهارا وصراحة ، فان

الجهر والصراحة كانا خير سلاحين تجيد « تشاند » تداولهما .. لذلك لجأ الى العمل فى الخفاء ..

الانقسام يغرى العدو بالامارة

• **وفى** تكتم وخبث ، راح « نيهونج » يعمل فى رسم الخطط ، وتأليب الخواطر ، واستمالة الجنود ، وشراء ذمم الضباط والقادة والزعماء .. حتى اذا اطمأن الى موقفه ، أسفر عن نواياه . فأسرعت الملكة « تشاند » تجمع حولها من تبقى من المخلصين والاوفياء .. وبدأ صراع مستميت ، مزق الامارة شر ممزق .. على أن هذا الصراع ظل – حتى ذلك الحين – لونا من ألوان الحرب الباردة ، ولم يكن قد انقلب بعد الى التحام مسلح .. وان كانت الاحداث قد أخذت تتطور بسرعة عجيبة ، حتى أصبحت الارض تهتز تحت قدمى « تشاند » بعنف .. وكان الاوفياء لها – من قادة الجيش – ينفضون من حولها ، اما بحكم ارهاب القائد العام الطامع ، واما تحت اغراء وعوده ورشاويه .. حتى ليكاد يبدو أنه لم يبق من مخلص حولها ، سوى قائد واحد ، يدعى « عباس خان » !

وكانت هذه هى الفرصة الكبرى ، التى طال بأعداء الامارة الخارجيين ارتقابها .. وكان أسرعهم الى ذلك ، هو أقواهم ساعداً ونفوذاً ، وهو الامبراطور « أكبر » ، العاهل المغولى القوى الذى كان يرقب الأحداث الجارية فى الامارة بعين يقظة .. فلما رأى أن اللحظة المناسبة قد حانت ، سار بجيشه جنوبا .

ولم يحدد المؤرخون بدقة ما اذا كان هذا الغزو قد جرى فى سنة ١٥٩٨ ، أو فى سنة ١٥٩٩ . على أن هذا لا يؤثر فى القصة ، على أية حال . فالمهم فى الامر ، هو أن (بيجابور) قد تعرضت للغزو ، وهى منقسمة على نفسها ، موزعة الولاء ،

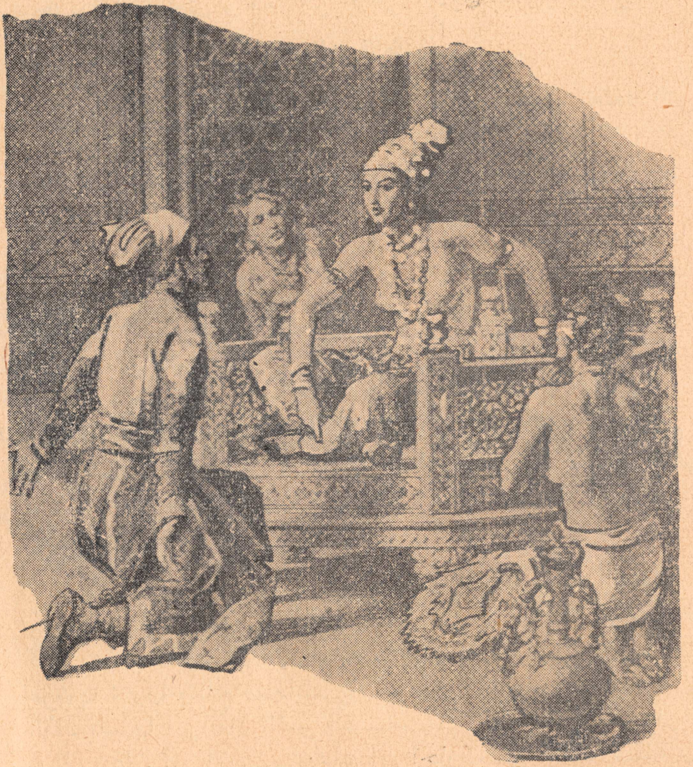
وقد أعمت الاطماع قادتها وزعماءها .. فأخذت معاقلها وحصونها تتهاوى واحدا اثر الآخر ، دون مقاومة تذكر !

فى اللحظات الاخيرة ..

• **وهكذا** سارت جيوش المغولى الاكبر نحو القلعة التى لاذت بها الملكة - ومن تبقى من أوفياء حولها - دون أن تلقى عناء يعرقلها كثيرا . وبدا أن كل مقاومة مصيرها الى فشل ، ولكن هذه القلة من أنصار الملكة - وعلى رأسهم القائد « عباس خان » - لم يرهبوا الموقف ، ولم ينفضوا من حولها ، بل أصروا على أن يمكثوا الى جوارها ، طالما تشبثت هى بالبقاء والمقاومة .

ولم يكن يثير قلقهم ومخاوفهم ، سوى شخص الملكة ذاتها .. كانوا يعلمون أن الصراع جدير بأن يكون حاميا ، مجنونا .. **وكانوا يوقنون من أن نهايته لن تكون سوى الفشل .. فشلهم ، لقلة عددهم وعدتهم .. فكانوا يشفقون على « تشاند » من الاهوال التى ستكتنف هذا الصراع ، ومن المصير الذى ينتظرها عقب الفشل .**

وكان « عباس خان » هو أكثرهم ادراكا لهذه الحقائق ، واشفاقا على الملكة .. فراح يحاول أن يثنيها عن مقاومة لم تكن ثمة جدوى من ورائها .. وبلغ به الامر أن ركع أمام عرشها ، وراح يلح عليها - والدموع فى عينيه - أن تبادر الى انقاذ نفسها ، وانقاذ الامير الصغير . وقال لها فى حرارة : « اننى على أتم الاستعداد لان أحارب من أجلك بالقلة من المخلصين الذين تبقوا تحت امرتى .. **ولسوف أنتقى نفرا من أشدهم ولاء لحمايتك وحماية الامير وأنتما تشقان طريقا الى مكان آمن ، بينما أناضل مع الباقين صونا لشرفنا ، حتى لا يقال اننا أسلمنا البلاد دون نضال !** .. وقد نستطيع أن نحمل



.. وأصغت الملكة الى القائد الوفى وهى محزونة !.. ولكنها أبت ان تتخلى عن مكانها ، وصاحت : ((انه لعار !..))
(لوحة من رسم الفنان العالمى : ماتانيا)

العدو على المهادنة والصلح ، أو على مفاوضة تصون ماء وجهنا .. ولكن المهم أن تكونى يا مولاتى – والامير الصغير – بعيدا عن قبضة المعتدين .. فانجيا بشخصيكما ، واتركا كل شيء ! »

اذا لم يكن من الموت بد ..!

• **وأصغت** الملكة تشاند الى القائد الوفى ، وهى محزونة كسيفة البال . ولكنها أبت أن تنصاع لرجائه ، أو تتخلى عن مكانها على رأس الاوفياء الذين كانوا على استعداد للقتال معها .. وصاحت وقد بلغ الاباء مبلغه فى نفسها : « انه لعار وأى عار أن أهجر – فى هذه اللحظات الحرجة – أولئك الذين يحملهم الاخلاص والشرف على الكفاح من أجلى .. **وماذا يقال عن الملكة التي خاضت معركة « القناع » الرهيبة ، اذا شاع أنها هربت خلسة من بين قومها فى جنح الليل ، تنجو بنفسها ، تاركة شعبها وعرشها للعدو ؟ .. لا ، اذا لم يكن من الموت بد ، فمرحبا به حيث مكانى ومركزى ! »**

ولم يكن الموت بعيدا عنها ، ولا كان محجما فى انتظار دعوتها . وانما كان يقف متحفزا فى انتظار اشارة من الخائن « نيهونج خان » الذى لم ينفك – طيلة الوقت – عن نشر الاراجيف والاكاذيب بين الشعب .. والشعوب – فى أويقات القلاقل – كالاطفال ، تدفعها الحيرة الى أن تتذبذب يمينا ويسارا ، تبعا لما قد يكون – فيما يبث بينها من أقاويل – من قوة حبكة تجعلها قادرة على أن تنفذ الى العقول والقلوب ، منفذ الحقائق .. **أو قل أن القلاقل تثير فى نفوس الشعب ، ما تثيره المتاعب العائلية فى نفوس أفراد الاسرة .. فاذا عدم الاضطراب يفرض على البصائر عمى يحول بينها وبين أن تميز بين الحقيقة والزيف !**

وهكذا كانت حال أهل (بيجابور) ! .. فان قوة أراجيف

« نيهونج » قد زعزت مكانة « تشـاند » فى القلوب .. ومن أمثال الشرق الازلية ، أن الهمس فى الآذان يفعل فى النفوس فعل الازميل فى الحجر ! .. مما مكن « نيهونج » من أن يوغر صدور القوم ضد مليكتهم .

وأخيرا .. حانت النهاية

• **ومن** ثم فان كل شيء كان ممهدا أمام « نيهونج » ، وهو يتربص فى انتظار الفرصة .. وحانت له هذه الفرصـة حين اقتربت قوات العدو من مقر الحكم ، وما خطر له أنه ـ بثورته على تشاند ـ انما كان يفسح الطريق للعدو الدخيل ، وليس لنفسه ! .. ومهما يكن الامر ، فانه لم يكد يرى العدو يزحف ، حتى أطلق الاشارة ، فاذا الشعب يهب متمردا على « تشاند » .

وبقدر ما كانت الاكاذيب والاراجيف مسمومة ، كان هياج الشعب قويا ، مسعورا ، فاذا الناس يتدافعون نحو قلعة الملكة كالمجانين ، فيتغلبون على الحراس ويزيحونهم عن طريقهم . وكأنما أجج منظر الدماء نيران هياجهم ، فازدادوا عنفا !

ومرة أخرى، قدر لجماعة من البشر الذين استعر هياجهم، أن يبلغوا تلك المرحلة النفسية التى تجعلهم كالذئاب الضارية ، ينشدون فريسة ، أيا تكن ، وبأى ثمن ! .. كان الضـلال الجماعى قد بلغ أسوأ درجات عماه ، فاذا القوم الذين كانت قلوبهم ـ كأفراد ـ تعمر بالانسانية ، ينقلبون الى سفاحين ينشدون الضحية !

نهاية .. النهاية !

• **وتعالى** صياحهم : « أين الملكة ؟ .. أين الملكة ؟ » .. وما كانت بهم حاجة الى الصـياح ، فان الملكة ذات القلب الجسور ، لم تتخل لحظة عن مكانها .. **بل وقفت أمام عرشها**

ـ شاحبة الوجه ـ تستقبلهم .. وكأنى بها تمثال للجمال والاسى والجلال المهيب .. وهى صفات قل أن تجتمع فى شخص واحد ! .. ولقد أدركت أن النهاية حانت، فلم ترهبها ، بل وقفت تنتظرها بعين الجرأة التى عرفت عنها طيلة حياتها .

وكان فى كل يد سلاح ، ولكن اليد الاولى التى وصلت الى المرأة الباسلة ترددت لحظة محجمة ، تحت قوة الاشعاع المنطلق من شخصها المهيب .. ثم تقدم صاحب اليد ، تحت دفع الجموع المتكأكئة خلفه ، فاذا السلاح الذى كان فى تلك اليد ، يغيب فى جسم الملكة « تشاند » .. وتبعته أسلحة وأسلحة !

وسقطت الملكة ضحية شعب غرر به الطامعون .. وسقطت الامارة ضحية الانقسام والمطامع !

وبقيت قصة « تشاند » مثالا .. لا للملكة الصالحة المغدورة .. وانما للمرأة الكاملة ، الباسلة !

اقرأ معى :



كتاب الشهر

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى هذا الباب من قبل ، الكتب الشائقة التالية : آراء جريئة فى السياسة . كيف نجحوا فى الحياة . الحياة فى موسكو . مراهق . آلهة ومقابر وعلماء . الالمان ، شعبا وعباقرة . مستقبل زوجك فى يدك . التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر . أقنعة الحب السبعة . فى داخل افريقيا . من فرعون الى فاروق . كفاحى (لسومرست موم) . فى داخل مراكش . خفايا العلوم الفرعونية . قناة السويس . دزرائيلى . فى داخل الجزائر . مدينة تذل طاغية . عالم الغد . رابعة العدوية . البرت اينشتين . أخلاق أهل مصر وعاداتهم . تاريخ الجمال . عمر الخيام .. الخ .

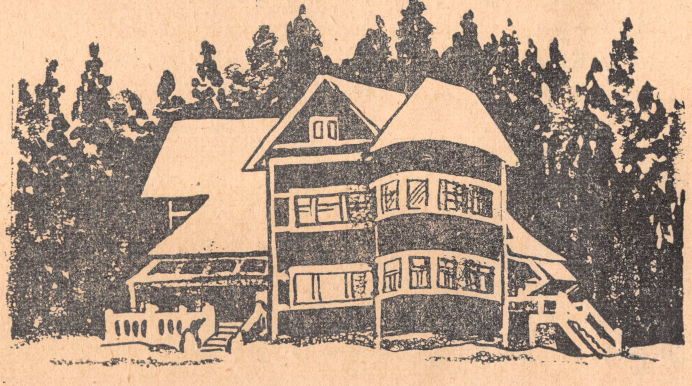
واليوم أقدم لك كتاباً أثار ضجة تتردد الآن فى جميع الاوساط العالمية



دكتور زيفاجو

وقصة الكاتب الروسي الذي أثار فوزه بجائزة "نوبل" ضجة عالمية :

بوريس باسترناك



عرض وتلخيص : فرج جبران

باسترناك .. ودكتور زيفاجو !

● لا حديث للاوساط العالمية باسرها – سياسية وغير سياسية – سوى سيرة الكاتب والشاعر الروسى « بوريس باسترناك » ، الذى أعلن نبأ فوزه بجائزة « نوبل » ، وأذيع نبأ فرحه واعتزازه بهذا الفوز ، ثم أذيع نبأ رفضه الجائزة ، خضوعا لاسباب سياسية .. وقد قرن اسم باسترناك برواية من تأليفه ، هى « دكتور زيفاجو » ، التى أثارت نقمة السلطات عليه .. فمن هو « باسترناك » هذا ، .. وما سر « دكتور زيفاجو ؟ .. » هذا ما ستقرأه فى الصفحات التالية !

باسترناك

• **رجل** متين البنيـــان ، طويل القامة ، له رأس بيضاوى الشكل ، كرؤوس المحاربين الهنود ، وعينان تشبهـــان عيون النسر ..

هـــذا هو « بوريس لينيدوفيتش باسترناك » ، الشـــاعر والمؤلف الروسى الذى بلغ الثامنة والستين من عمره ، والذى قررت لجنة جوائز «نوبل» للسلام – فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٥٨ – منحه جائزتها للأدب .. الجائزة التى يحلم بها كل كاتب وأديب فى مختلف أرجاء العالم !

ويعتبر «باسترناك» اكبر كتاب الجيل فى روسيا – وربما فى أوربا بأسرها – ولكنه مع ذلك يعاف الشـــهرة والاضواء ، حتى انه ظل اعواما طويلة من عمـــره ، يقيم فى قرية هادئة – لاتبعد عن (موسكو) بأكثر من خمســـة عشر ميـــلا – تدعى (بيرديلكينو) .. قرية توفر له ما يرجوه من عزلة واعتكاف ، اذ تكاد أشجار الصنوبر ان تحجبها عن الابصار !.. **ومع ان**

الدولة السوفييتية منحته بيتا فى (موسكو) ، الا أنه يأبى أن يعيش فى غمار الحركة الادبيـة المحتدمة هنـاك ، ولا يتصل اطلاقا بتجارة الادب الدوليـة ولا بأسواقهـا فى العواصم الـكبرى .. وانما يؤثر الاقامة فى منزل ريفى ـ فى قريته تلك ـ يتـألف من طابقين ، وقد شـيد من الخشب ليكون مسكنا صيفيـا ـ فى أصله ـ للشـاعر الكبير ، وزود لهذا بأثاث بسيط ، يخلو من الـكماليات والاجهـزة الحديثةالتى ترى فى بيوت من هم أقل منه مكانة وشهرة ، فى أى بلد من البلدان ..



بوريس باسـترناك فى أحدث صـورة له

بين الفلاحة والرياضة

• وفى هـذا المنزل المتواضـع ، فى القرية المنعزلة ، يخلو «باسترناك» لآلهة الشعر والادب .. فاذا ألقى القلم من يده، أو انصرف عن القراءة ، لم يجد ملهاة تفوق الفلاحة ورياضة المشي .. ففى فترة الصباح من أيام الربيع ، أو فترة الاصيل من أيام الخريف ، يراه جيرانه وقد عكف على العناية بحديقة داره ، يحفر أرضها ، ويقلب تربتها ، ويزرع الخضر فيها ، أو يشذب اشجار الفاكهة النامية بها !

أما فى امسيات الصيف ، التى لاتغرب الشمس عنهـا قبل الساعة الحـادية عشرة مساء ـ فى شـهرى يونيو ويوليو ـ

فيشاهد الشاعر والكاتب العملاق ، وقد جلس مع اصدقائه فى العراء ، والى جوارهم أقداح الشاى .. وعلى ضوء الشفق الذى لايغيب ، يروح «باسترناك» يحدثهم فى الادب والشعر والنقد .. فاذا أقبل الشتاء ، وانكمش المجتمع الروسى تحت برد بلاده الجليدى ، واغلقت نوافذ الدور اغلاقا محكما اتقاء للزمهرير ، شاهد جيران «باسترناك» الدخان يتصاعد من مدخنة داره .. دليلا على أن مجلسه انتقل الى الداخل !

خلاف بين الامانى .. والواقع

• **ولقد** كرس « باسترناك » حياته كلها للانتاج الادبى ، والخلق الفنى .. ولم يتسرع النتائج ، أو يتلهف على المجد والشهرة ، وانما قضى السنين الاولى فى الاعداد والتأهب،وان عرف عنه أنه شغف بالادب منذ حداثته ، حتى أن أباه رسمه فى سنة ١٨٩٨ — وهو بعد فى الثامنة من عمره — وقد عكف على الكتابة !

ويمتاز « باسترناك » بروح حرة ، وعقلية مستقلة ، وفكر واع عامل .. حتى انه ليعتبر اليوم ممثلا للأفكار والاحلام والامانى التى كانت تملأ رؤوس الطبقة المثقفة الواعية فى روسيا، فى السنوات التى سبقت الثورة الاشتراكية فى روسيا ..
وليس معنى هذا ان باسترناك كان ثائرا ، أو انه اشترك فى التطورات السياسية التى ترتبت على هذه الثورة .. فهو — كما ذكرنا — ذو عقلية مستقلة متحررة ، وقد وقف عن كثب يرقب الثورة ، يشجعها ويحفزها كلما حققت أملا أو حلما من الآمال والاحلام التى كانت تملأ عقول الطبقة المثقفة قبل قيامها .. ولكنه لم يلبث — بعد سنوات قلائل — ان تبين ان

الثورة لم تعد تتفق — فى نواح كثيرة — مع روحه الحرة ، فآثر العزلة .. بيد أنها لم تكن عزلة خاملة ، معطلة ، وانما كانت لونا من الاعتكاف الذى فرغ فيه الى الانتاج العظيم

ثلاثة أثروا فى شخصيته

• **ولقد** ولد « بوريس باسترناك » فى (موسكو) ، فى سنة ١٨٩٠ ، وتلقى العلم فى بلاده ، وقام برحلات عديدة فى خارجها ، كما نال قسطا من العلم والدراسة فى ألمانيا ..

ولقد تأثر « باسترناك » منذ حداثته بثلاث شخصيات ، هى التى غذت روحه بالفن والادب .. وكانت أولاها أمه « **روزا كاوفمان باسترناك** » التى شغفت بالموسيقى وأصابت فيها شهرة .. أما الشخصية الثانية ، فتتمثل فى ابيه « **ليونيد باسترناك** » ، الذى كان رساما مشهورا فى روسيا ، واضطر الى الفرار من وطنه — على أثر قيام الثورة — فأقام فى بريطانيا الى ان وافته منيته .. وكانت الشخصية الثالثة تتمثل فى المؤلف الروسى « **سكريبيان** »

وهكذا أتيح له — منذ حداثته — ان يحظى بوفرة فنية وأدبية ، كانت لعقله وروحه غذاء ..

وعلى هذا الغذاء الفنى والادبى الدسم ، نمت روح « باسترناك » ، فلم يكد يبلغ الثامنة ، حتى بدأت بوادرها تبدو ولم يصل الى الثانية عشرة حتى شرع ينظم الشعر .. وقد



باسترناك الكاتب فى الثامنة من عمره
(عن لوحة من رسم أبيه)

امتازت قصائده ــ منذ صدر شبابه ــ بأنها تتألف من كلمات نها وقع الموسيقى ، ورواء الرسم ، وبريق الذهب واللآلىء !

يترجم مؤلفات شكسبير .. فى عزلته

• وفى السنوات الثلاثين الاولى من القرن الحالى ، أفرد «باسترناك» الشطر الاكبر من وقته للترجمة .. **وعنى أكثر ماعنى بنقل آثار «شكسبير» الى اللغة الروسية ، فكان عمله من الاعمال الادبية الفذة .** فلقد لقى فى الترجمة عناء ما بعده عناء ، تحريا للدقة فى نقل الالفاظ والافكار ..

وكانت ترجمة أعمال «شكسبير» هى سلواه وعزاءه فى تلك العزلة ــ أو تلك «الهجرة الداخلية» ! ــ التى اختارها لنفسه ، عندما تبين ان اتجاهات الثورة البلشفيــة لم تكن تتسق مع آرائه وأحلامه .. وقيل أنه كان يجد فى هذه الترجمة منفثا لما كان يضطرم فى أعماقه ، **حتى لقد قيــل أنه كان يقصــد «ستالين» ، بما كتبه عن الملك « لير » ، فى تحليله لشخصيتى « لير » و «مكبث» فى صدر ترجمة المسرحيتين اللتين تحملان اسميهما** ، اذ قال :

« هنــاك الشيخ القوى الارادة العنيــد ، وهناك تجمعات يتردد صداها فى قاعة القصر ، وهناك صيحات وأوامر ، تتلوها لعنات ثم أنات يأس تمتزج بهزيم الرعد وزئير الرياح .. وقد اختبأ الناس فى الخيمة وقد أصابهم رعب شديد ، وأخذ كل منهم يتحدث الى الآخر فيما يشبه الهمس .. وهكذا تتابعت الجرائم واحدة أثر أخرى فى سرعة متلاحقة .. حتى أصبحت مجموعة كبيرة من الجرائم وقعت فى مدة طويلة . وانتهى الامر بأن أخذت العناية فى التحرك ، والسير فى طريقها ، حتى يجىء منتقم .. لم تلده امرأة ! »

وسواء صح هــذا التأويل أو لم يصح ، فان من الحقــائق

الثابتة ان ((باسترناك)) لم يكتب قصته التى اثارت ضجة عالمية، والتى تعرض بسببها لكثير من المتاعب – فى بلاده – فى الفترة الاخيرة ، الا بعد وفاة ((ستالين)) !.. والى ان حدثت هـذه الوفاة قنع بعزلتـه تلك ، وبالترجمة .. على انه كان حريصا على ان يظل على اتصال دائم بالفكر العالمى وبتطوراته ، وكان يتتبع الحركة الادبية الاوربية، ويتلقى أحدث المؤلفات الانجليزية والفرنسية والالمانية ، فيقرأها ، ويدرسها ، ويحللها !

اننى أؤمن بما كتبت ..!

• **وهكذا** يبدو ان موت ((ستالين)) قد ايقظ ((باسترناك)) أخيرا، فعكف على كتابة القصة التى أثارت – فى الشهر الاخير – ضجة فى الاوساط الادبية والسياسية فى العالم كله .. ولعله أراد بها ان يصور ما كان يكتمه فى نفسه . بل ان وصفه أياها ادق من هذا واشمل ، **اذ يقول انه أرادها ان تكون ((شهـادة صدق عن العصر الذى عشت فيـه !)) . ثم يردف معبرا عن الحافز الذى حفزه على ذلك : ((لقـد قلت لنفسى : يجب أن تقف منتصبا أمام اسمك !))** .. يقصد انه رأى أن من واجبه ان يكتب شيئا يليق باسمه ، وان يتحمل جميع التبعات التى تترتب على ذلك ، ويصمد ذائدا عن اسمه !

ولكنه لم يكن يقدر أن التبعات ستكون فادحة بالدرجة التى اسفرت عنهـا الحوادث فعلا .. فقـد كان يحسب ان كتابه سينشر فى روسيا ، وان دويه سيقتصر على المجتمع الروسى .. ولكن القدر لم يشأ للكتاب ان ينشر فى روسيـا – بل انه لم ينشر حتى اليوم باللغة الروسية – وانما نشر أول ما نشر فى الخارج، فكان ذنب المؤلف امام سلطات بلاده أشد وأنكى..

ومع ذلك ، فان ((باسترناك)) لم يرهب الموقف، ولم يتراجع عن ان ((يقف منتصبا أمام اسمه)) . وقد اثار أحد الصحفيين

الذين تكاثروا على بابه ــ بعد اعلان فوزه بجائزة «نوبل» ــ حديث الضجة التى أحدثها كتابه « الدكتور زيفاجو » . عن رأيه فيما أحاط بالكتاب ، فأجاب ببشاشة واطمئنان : **« جدير بك ان تسألنى عما اذا كنت أؤمن بما كتبت .. وجوابى عن هذا السؤال ، هو : نعم !.. لقد شهدت الاحداث بنفسى ، وسجلتها كما يسجلها أى فنان صادق .. لقد كتبت أصف العصر الذى عشت فيه »** !

لقد رفض جائزة «نوبل» احتراما لسياسة بلاده ، عندما أراد الغرب ان يستغل الحدث الادبى فى دعاياته السياسية ، ولكنه لم ينبذ كتابه ، ولم يتنكر له !

لم يكن جبانا ولكن ..

• **ولم** يكن ذنب « باسترناك » أن قصة « دكتور زيفاجو » لم تنشر باللغة الروسية ، سواء كاملة أو مقتضبة .. فهو اذا كان قد سجل فيها أحداث عصره ، فانما شاء أن يكون هذا التسجيل لمواطنيه قبل أن يكون لغيرهم من الشعوب . ولكن أبواب النشر ــ فى روسيا ــ لم تنفسح للكتاب .. وقدر لنسخة من أصوله ان تتسرب الى ايطاليا، فاذا بها تترجم الى الايطالية، فتلقى قبولا .. ومن الطريف أن «باسترناك» عاد ــ بعد الاتفاق مع الناشر الايطالى ــ فسأله ان يتوقف عن النشر .. **وما نحسب أنه خشى الضجة التى كان مقدرا للكتاب أن يحدثها ، ولكنه ــ على الارجح ــ خشى آثار هذه الضجة على موقف بلاده فى ميدان السياسة الدولية ، وهو يرى الدعايات الغربية تتلقف كل نقد لنظام الحكم السوفييتى أو لسياسته أو لحياة المجتمع تحته ، فتحيله الى سلاح لطعن روسيا !**

وهناك كثير من الشواهد التى تعزز ترجيح هذا الرأى الاخير ، فقد عرف «باسترناك» طيلة عمره بالشجاعة الادبية،

حتى انه لم يرهب الموت – فى سنة ١٩٣٧ – فى سبيل الثبات على رأيه. فقد حدث فى ذلك العام، ان قامت فى روسيا حركة لجمع التوقيعات على «عرائض» لتأييد «ستالين» فى قراره، الذى أصدره باعدام الجنرال «ميخائيل توكاسيفسكى» وسبعة جنرالات آخرين، كانوا قد اتهموا بتدبير مؤامرة تروتسكية ضد الحكومة .. وفى «اتحاد الكتاب السوفييت»، دعى «باسترناك» الى التوقيع، فرفض! .. **وكان يدرك ان جزاء الرفض ان يتهم بالايمان بصواب المتآمرين، وبالتالى، بالخيانة العظمى! ولكنه لم يتراجع!** .. ومن العجيب أن المصادفات تدخلت فى مصير هؤلاء القادة، فلم يعدموا .. حتى اذا مات «ستالين»، أفرجت عنهم السلطات وردت اليهم كافة حقوقهم!

الدعايات الغربية تتلقف «دكتور زيفاجو»

• **ولقد** روى «باسترناك» – أخيرا – هذا الحادث لاستاذ الادب السلافى بجامعة (ستوكهولم)، عندما زاره، وقد جلسا فى حجرة المكتب التى تزدان جدرانها برسوم كان أبوه قد اعدها للكاتب الخالد «تولستوى» ليحلى بها صفحات روايته المشهورة «البعث»، فلما سأله الزائر عما أنقذه من نقمة «ستالين» فى هذه المناسبة، قال ان زملاءه فى «اتحاد الكتاب السوفييت» تكتموا الامر، حبا فيه .. ثم اردف فى اعتداد: **«أن لى أصدقاء فى كل مكان .. فان الرجل الذى يلزم نفسه لايمكن ان يكتسب أعداء!»**

ومهما يكن الامر، فان الناشر الايطالى رفض طلب «باسترناك» بالتوقف عن نشر «دكتور زيفاجو»، وواصل الطباعة، ثم طرح الكتاب فى السوق، فتلقفه الانجليز، وترجموه الى لغتهم، ونشروه على العالم الغربى .. **واسرعت الدعايات الغربية تستغل القصة فى اغراضها السياسية، فاذا ما ورد فيها من**

نقد للثورة الاشتراكية ـ التى نشبت فى روسيا ، فى سنة ١٩١٧ ـ أو الاحوال التى أعقبتها .. اذ بهذا النقد ينقلب ، فى رعاية الدعايات ، الى طعن فى النظام السوفييتى .. وهذا هو ما أحرج «باسترناك» أمام سلطات بلاده، اذ جعل من النقد القائم على غيرة وطنية تشهيرا يسىء الى موقف روسيا فى الحرب الباردة الدائرة الرحى !

رواية تعادل .. « الحرب والسلام »

• **ومع** ان الاكاديمية السويدية التى قررت منح «باسترناك» جائزة «نوبل» ـ وقدرها خمسة عشر ألفا من الجنيهات ـ لم تشر الى رواية « دكتور زيفاجو » بشىء ، وانما بنت قرارها على « **ما أتمه من اعمال هامة فى ميدان الشعر ، وفى ميدان القصة الروسية** » ، الا ان الدعايات الغربية ربطت بين فوزه بالجائزة العالمية ، وبين « دكتور زيفاجو » بالذات .. وبالرغم من أن «باسترناك» أعلن رفضه الجائزة ، وقرر انه لن يحضر الاحتفال بتقديمها ، الا أن هذا لم يخفف من غلواء السلطات السوفييتية فى غضبها ، حتى لقد اشيع ان الحكومة الروسية ستحرمه من البيت الذى أفردته الدولة له تقديرا لمكانته ، والذى ينعم بالعيش فيه مع زوجته «زينايدا» ، والذى رزق فيه بأبنائه الثلاثة ..

ولعل من حق اسرة «باسترناك» هذه ، ان نتناولها هنا بعجالة .. فقد كان من حظ الشاعر المبتعد عن خضم الاحداث، وعن بريق الشهرة ، ان رزق بزوجة خجول ، ممتلئة الجسم، وفرت له الجو الوادع الذى يعيش فيه، وانجبت له ثلاثة أبناء، أصبحوا اليوم رجالا ، وانفصلوا عنه وعن «زينايدا» ليبنى كل منهم لنفسه حياته الخاصة .. فاشتغل اولهم بالموسيقى ـ

كعازف على البيانو – واشتغل الثانى بالهندسة ، فى حين تفرغ الثالث لدراسة الطبيعيات

ومع أن قرار منح «باسترناك» جائزة «نوبل» ، لم يشر بشىء الى « دكتور زيفاجو »– كما قدمنا – الا ان النقاد السويديين تناولوها بروح محايدة ، فأطنبوا فى امتداح قيمتها الادبية والانسانية .. وكتب الدكتور « أندرز أوسترلنج » يقول :

« ان خير ما تقارن به رواية « دكتور زيفاجو » ، هى رواية تولستوى الخالدة : « الحرب والسلام » ، فقد تجلت فيها عبقرية نقية قوية ، كما أنها نمت عن شجاعة مؤلفها ، الذى وضع–وهو بعد مواطن سوفييتى – عملاأدبيا يمتاز باستقلال الرأى ! »

ثم تناول « اوسترلنج » المؤلف كشاعر ، فقال انه من اعظم شعراء روسيا الحديثة

من « دكتور زيفاجو »

موت جريح : لقد شوهت شظية القنبلة وجهه ، فأصبح كتلة دامية من اللحم ، وطار فكه ، وراح يتأوه بصوت لا يماثله سوى صوت حيوان جريح .. وكان زميلاه – اللذان رافقاه الى المستشفى – يتألمان لألمهُ ، حتى لقد حاول أحدهما أن ينتزع الشظية بيده ، من فم الجريح ، ولكن الممرضة تهيب به محذرة ..

وتخاطب الممرضة الله ، وقلبها يتمزق : « يا الله ! يا الله ! خذه .. خذه اليك ، ولا تدعنى أشك فى وجودك ! »

و فىاللحظة التالية ، أطلق الجريح صيحة هائلة .. وكانت صيحته الاخيرة !

(وكان ذلك فى الحرب التى نشبت بين المانيا وروسيا ،

قبل الثورة الروسية بأمد قصير ، ومنيت فيها روسيا بهزيمة منكرة)

* * *

قيصر روسيا : كان القيصر فى نظر الشعب الروسى جبارا هائلا ، ولكنه بدا فى نظر دكتور زيفاجو - اذ رآه وهو يتفقد حرس الشرف فى جبهة القتال - فى صورة تختلف تماما عن ذلك .. كان مترددا ، متخاذلا ، خجلا أمام جنود « حرس الشرف » الذين اصطفوا فى محطة السكة الحديدية لتحيته .. « ولاح - لارتباكه - وكأنه لا يدرى كيف يتصرف فى مناسبة كهذه ، حتى أنه لم ينفك عن النظر الى مرافقه - الغراندوق نيكولاس - وكأنه يسأله بعينيه عما ينبغى أن يفعل بعد ذلك » !

ولقد شعر « يورى » - فى القصة - بالرثاء للقيصر ، اذ رآه أشد اعياء ، وأكبر سنا ، مما كان يبدو على قطع العملة والاوسمة المضروبة باسمه وصورته .. **« شعر بالاسف لان التحفظ والخجل كانا كل ذخيرة الحاكم الظالم المستبد ، الذى تمثل فى قيصر روسيا ..** وكان لا بد لهذا الحاكم من أن يسقط فى النهاية .. كان لا بد لعهده من أن ينتهى .. بل كان لا بد لحياته ذاتها أن تنتهى ، فيموت قتيلا بيد الثورة الحمراء » !

* * *

مصرع قوميسار : انتدبت الحكومة المركزية - فى أوائل عهد الثورة - « القوميسار جنتز » على رأس فريق من جنود القوزاق لقمع حركة تمردية صغيرة ، قام بها بعض الجنود الذين هربوا من الجيش ..

« وكان القوميسار جنتز رجلا متعجرفا ، قاسيا ، وقف

يخطب فى المتمردين ، فراح يهددهم بمحاكم الثورة ، اذا هم لم يسلموا أسلحتهم ، وانذرهم بأن الاعدام سيكون سيدهم ! ..
ولكن لهجته لم ترق للرجال ، اذ ذكرتهم بلهجة الحكام والامراء الاقطاعيين فى العهود البائدة ، فلم يسعهم سوى أن يتحدوا القوة والوعيد .. وكان أعجب ما حدث ، أن القوزاق -- الذين رافقوا القوميسار جنتز -- لم يلبثوا أن ملوا خطابه ، فانضموا بدورهم للمتمردين .. وبقى القوميسار وحده يخطب ويرعد ويزبد !

« ولكنه لم يلبث أن تبين خطورة الموقف ، بعد أن هجره القوزاق .. ونصحه أحدهم بأن يبادر بالعودة مسرعا الى محط السكة الحديدية ، غير أن كبرياءه منعته من الاسراع -- فى فراره -- فسار على قدميه الى المحط ، مصطنعا الهدوء ورباطة الجأش .. حتى اذا بلغ حافة الغابة ، ولاح له المحط قائما أمامه ، نظر خلفه فرأى المتمردين يتبعونه عن كثب ، وقد حملوا بنادقهم وسارا فى صمت وسكون رهيبين ، مرهقين ..

« وجد القوميسار فى سيره ، وقد تضاعف اضطرابه . ثم قال فى نفسه : ((يجب أن أصيح فيهم !)) .. فقد ظن التعس أن صياحه هو الكفيل بانقاذ حياته . فلما اقترب من المحط ، وجد وعاء كبيرا مليئا بالماء . وضع هناك ليكون فى متناول اليد فى حالات الحريق .. وما لبث القوميسار ان وقف على غطاء الوعاء الكبير ، ليخطب فى المتمردين .. الا أن قدمه زلت ، فسقط فى الماء قبل أن يبدأ خطابه ! ..

« وأقبل المتمردون فوجدوا القوميسار فى الماء ، وقد تعلقت احدى قدميه بحافة الوعاء ، وتدلت ساقه الاخرى فى داخله .. وانفجرت الضحكات عالية ، سخرية من القوميسار .. ولكن الامر لم يقتصر على الضحكات ، فقد أطلق أحد الرجال

رصاصتين غابتا فى عنق القوميسار ، فمات فى الحال .. ولم يكتف الرجال بذلك ، بل تقدموا منه يطعنونه بحرابهم ! »

* * *

فراغ للحياة : وفى قصة « دكتور زيفاجو » وصف طريف للتغير الذى طرأ على أساليب الحياة فى روسيا ، عقب الثورة .. وصف تضمنته عبارات موجزة ، هى أبلغ من كتاب . وقد ساق « باسترناك » هذه العبارات على لسان احدى شخصيات قصته ، وتدعى « تونيا » .. فهى تتحدث عن فندق فتقول :

« على فكرة .. اننا لم نعد نطلق على الغرف اسم الغرف اطلاقا .. **لقد أصبح اسمها : فراغ الاقامة .. مساحة للحياة .. وفى الخارج ، يوجد الفراغ المخصص لحياة الشعب ! ..**

« لقد بات الفندق يبدو كمستشفى للمجاذيب ، بعد ان أصبح تحت اشراف المرضى .. لقد صار خاليا ، مضطربا ، متروكا تحت رحمة المصادفات ! »

* * *

النظام الجديد : « فى ذات مســاء من نهاية شهر أكتوبر ، خرج « يورى » ليزور زميلا من زملائه . وكان الشارع خاليا من المارة تقريبا ، حتى أنه لم يصادف أحدا فى طريقه . وراح « يورى » يغذ السير ، وقد بدأ البرد ــ الثلج الرفيع الشبيه بالمسحوق ــ يتساقط ، فتذروه الرياح فى كل اتجاه ..

« ورأى يورى صبيا من باعة الصحف يحمل رزمة كبيرة من الجرائد وهو يصيح قائلا : « آخر خبر ! .. آخر طبعة ! » .. والتقى الاثنان عند ناصية الطريق ، فقدم البائع نسخة مبللة من الصحيفة التى يبيعها ، وأسلمه « يورى » قطعة من النقود ، وهو يقول : « احتفظ لنفسك بالباقى ! » .. واختفى البائع

فى العاصفة الثلجية !

« ووقف يورى تحت نور المصباح يقرأ العنوانات الرئيسية فى الصحيفـة .. كانت الصحيفة عبـارة عن ورقة واحدة ـ « ملحق » ، أو طبعة خاصة ـ طبعت على وجه واحد فقط ، **وقد نشر بها آخر بيان رسمى ورد من (بيتر سبورج) ، عن تأليف مجلس قوميسارات الشعب ، وإعـلان قيام الحكومة السوفييتية وديكتاتورية « البروليتاريا » فى روسيا . وتبع ذلك نشر مراسـيم تأليف الحكومة الجـديدة ، وعدة أخبار موجزة ، تلقتها الصحيفة بالتلغراف والتليفون ! ..**

« وغامت على عينى « يورى » قتامة حجبت عنه المكتوب فى الصحيفة .. ولكنها لم تكن من فعل الزوبعة الثلجية ... لم تكن الزوبعة هى التى منعتـه من القراءة ، وانما منعـه أن مشاعره جميعا قد اهتزت ، تحت تأثير هذه اللحظة السامية ، ومن جراء الفكرة التى تنطوى عليها بالنسبة للاجيال القادمة ! »

* * *

انتخابات فى كل مكان : « وأجريت الانتخابات الجديدة فى كل مكان .. » انتخابات من أجل ادارة الاسكان ، ومن أجل ادارة التجارة ، ومن أجل الصـناعة ، ومن أجل الخدمات البلدية .. وعين لكل مرفق من المرافق « قوميسـار » ..

« وكان القوميسارات رجالا يلبسون سترات مصنوعة من الجلد الاسود ، ولهم سلطات لا حدود لها ، كما زودوا بوسائل الاخضاع وبالمسدسـات .. وكانوا لا يحلقون لحاهم الا فى النادر .. وكان نومهم أكثر ندرة !

« كانوا يعرفون « البورجوازية » المتخلفة ، وحملة الاسهم الحكومية الرخيصة .. وكانوا يوجهون اليهم الحديث فى غير

رحمة ، وقد علت أفواههم بسمات شيطانية ، وكأنهم يخاطبون لصوصا حقراء ، ضبطوا أثناء تلبسهم بارتكاب جرائمهم الصغيرة !

« هؤلاء هم الرجال الذين عهد اليهم باعادة تنظيم كل شيء طبقا للخطة الموضوعة .. وهكذا تمت بلشفة المشروعات كلها .. مشروعا اثر مشروع ، والشركات جميعا .. شركة بعد شركة ! »

* * *

صفقة تجارية : « كانت وجبات معظم الناس تتكون من الذرة المسلوقة فى الماء ، وحساء السمك المزود برؤوس (الرنجة) ! .. أما (الرنجة) ذاتها - أى أجسام هذا النوع من السمك المدخن - فكانت تعتبر صنفا أساسيا ثانيا من أصناف قوت الشعب ! .. كذلك كان هناك نوع من (العصيدة) ، يصنع من القمح والشعير .. وكان هذا هو الغذاء الاساسى للاغلبية ، فى الازمنة التى تبعت هذه الحوادث !

« وفى ذات صباح - بعد أن خرج « يورى » لكى يذهب الى عمله - ارتدت « تونيا » معطفها الشتوى البالى - وكان قد صار فى حالة رثة ، حتى أنها كانت ترتعد اذا ارتدته .. ولو كان الطقس دافئا - وخرجت بدورها .. خرجت تنشد صيدا !

« لم يكن قد تبقى عندها فى المنزل غير كتلتين من الخشب .. ومن ثم فقد أخذت تتجول فى الشوارع الخلفية ، القريبة من منزلها ، حيث كان من الممكن أن تصادف - أحيانا - فلاحا قدم من احدى القرى القريبة من (موسكو) ليبيع ما لديه من خضر أو بطاطس .. فلقد كان من المحرم على

أمثال هذا الفلاح أن يظهروا بأحمالهم هذه فى الشوارع الرئيسية ، والا قبض عليهم الشرطة . ومن ثم لم يكن لهم بد من أن يعقدوا صفقاتهم فى الشوارع الخلفية !

« وفى هذه الشوارع أخذت « تونيا » تتسكع ، فما لبثت أن عثرت على ضالتها المنشودة ، اذ قابلت شابا كبير الحجم ، يرتدى ملابس الفلاحين .. وعاد الشاب معها الى المنزل ، وهو يجر زحافة خفيفة ، تكاد تبدو — لفرط خفتها — كما لو كانت ألعوبة ! .. وتبع الشاب « تونيا » — فى كثير من الحذر — حتى بلغا ساحة المنزل ! »

ولم تكن « تونيا » قد اقتادت الشاب الى دارها ، لتبيعه نفسها ، وانما هى اصطحبته ليعقدا صفقة تجارية .. « ففى داخل الزحافة ، كانت ثمة كمية من الحطب ، غطاها الفلاح بعناية ليخفيها عن الانظار .. وكانت أعواد الحطب هزيلة ، رفيعة .. وكانت تونيا خير من يدرك قيمة هذه الاعواد الخشبية ، فقد كانت وقودا بالاسم فقط ، اذ كان خشبها من أحط الانواع ، كما أنها كانت قد اقتطعت من شجرها منذ أمد قريب ، فلم تيبس بعد ، ومن ثم فانها لم تكن تصلح للحريق .. **ولكن لم يكن هناك مجال الاختيار .. وحيثما لا يكون مجال للاختيار ، فانه لا مجال للنقاش او للمساومة !**

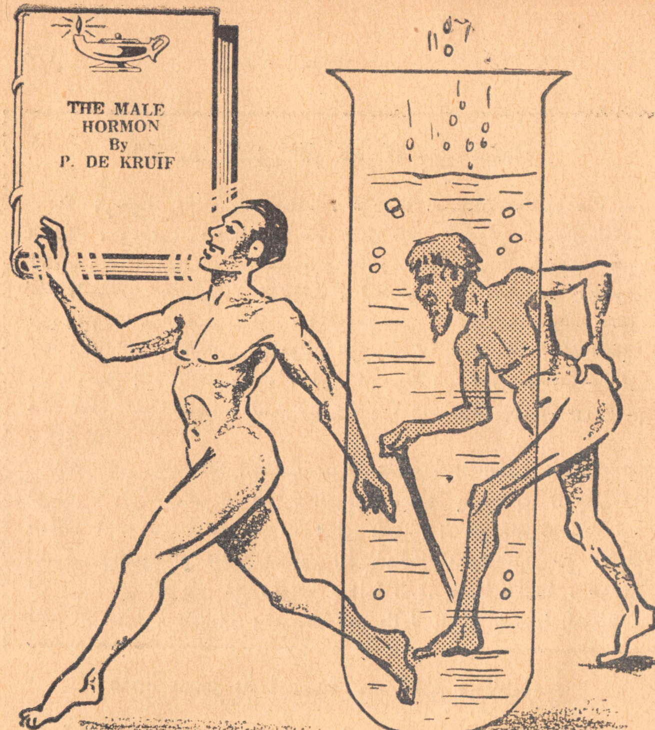
« وحمل الشاب بين ذراعيه كمية من الحطب ، ودخل بها الى المنزل ، فأودعها حجرة الجلوس .. وكرر هذه العملية خمس مرات أو ست .. وفى المرة الاخيرة ، عاد الى الزحافة وهو يحمل صوان « تونيا » الصغير ، الذى كانت تزين واجهته مرآتان مصقولتان ! .. ووضع الشاب الصوان فى زحافته ، وغطاه جيدا لكى يأخذه هدية لزوجته !

« وأخذت تونيا تشير فى حديثها تلميحا ، الى أنها قد تحتاج

الى كمية من البطاطس ـ عما قريب ـ فطلب الرجل أن يكون « البيانو » ثمنا للبطاطس !

« وعندما عاد « يـورى » الى البيت ، ولم ير الصـوان الصغير ذا المرآتين ، أدرك ما حدث . ولكن .. ألم يكن من الاصوب أن يكسر الصوان ، ويتخذ خشبه وقودا بدلا من هذه الاعواد الهزيلة ، الرفيعة ، الرطبة ؟

« بلى ! .. كان هذا هو الاصوب ، ولكن .. من منهما الذى كان يستطيع أن يجد من نفسه شجاعة على الاقدام على تحطيم صوان « تونيا » الصغير ، واحراق خشبه ؟ ! »



نحو رجولة وشباب دائمين!

بحث مبسط عن الجهود التي يبذلها
العالم في سبيل رد الشباب إلى الكهول

للعالم الكبير: "بول دي كرويف"

تلخيص : فوزي الشتوي

الكشف الذى أثار معركة بين العلماء

◆ الرجولة .. مسألة معقدة ، عرف الانسان موطنها منذ بدء الخليقة ، وتجلت معرفته هذه حين أزال خصى الطيور والحيوان ليكثر لحمها ويزداد جودة ، ولتكتسب وداعة وسلاسة .. كما تجلت حين كان السلاطين يخصون « الأغوات » ليحولوهم الى مخلوقات يطمئنون الى وجودها فى « الحريم » .. ولكن ما عجز الانسان عن معرفته ، هو كنه ذلك السحر الكامن فى موطن الرجولة .. حتى قدر للعلم أخيرا أن يتوصل اليه ، فأسماه « هرمون الرجولة » .. واستخلصه فى مادة أطلق عليها علميا « تستوستيرون » ، واشتهرت بين الناس باسم « البيراندرين » .

ولقد كان مولد هذا الكشف معركة علمية ، اذ انقسم العلماء الى فريقين : رأى أحدهم أن هذا « الهرمون » نقمة يسلح بها الرجال على حساب الأعراض والفضيلة .. ورأى الفريق الآخر انه نعمة ترد الشباب والفتوة الى الذين لحقتهم الشيخوخة .. ولا يزال على الأيام أن تثبت أى الفريقين على صواب . انما الذى يعنينا هنا ، هو أن نقدم لك قصة « الهرمون » مبسطة تبسيطا لا يذهب بقيمتها العلمية ..

مادة سحرية اسمها .. «الهرمونات» !

• **اهتدى** الاقدمون الى ان فى « الخصية » شيئا يكسب الجسد صلابة ، ويبعث فى الاعضاء حمية وشبابا ، ويثير فى النفس الطموح ، والفتوة ، وحب المغامرة ، وما الى ذلك من صفات اتسم بها الذكور دون الاناث .. ولكن اللغز الذى ظل مستعصيا على الاجيال — الى عهد قريب — هو : **كيف يتسنى للانسان ان يستخلص تلك القوة — التى تكسب الذكور صلابة ، وخشونة ، ونشاطا — ليستغلها فى تجديد شباب الجسم الانسانى اذا ما طغت عليه الشيخوخة !**

ولقد عنى « سوسروتا » — الحكيم الهندى الذى عاش فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد — بأن يوصى قومه بالاكثار

من أكل خصى الحيوان كعلاج للضعف الجنسى ، ولفتور حمية الشباب . **ولكن هذا العلاج لم يكن مثمرا ، لانه لم يمكن بنى جنسه من ان يستخلصوا المادة السحرية التى تتوقف عليها حيوية الذكور ..** المادة التى لم يهتد الانسان الى بعض أسرارها ـ وليس كلها ـ الا فى أواخر النصف الاول من القرن العشرين ، والتى أطلق عليها العلماء اسم **((هرمونات)) !**

تجارب للوصول الى .. سر الحياة !

• **والى** ما قبل هذا ، كان الانسان يعرف ـ خلال تاريخه الطويل ـ الكنز الذى تحتويه «الخصية» ، ولكنه كان عاجزا عن استخلاصه ، مما أطلق خيال العلماء فى كل اتجاه ، بحثا عن «اكسير» أو « معجزة » لتجديد الشباب ، واطالة مدى الحياة الفتية المنتجة لدى الانسان .. وفى سبيل ذلك بذلت محاولات كثيرة ، لعل اشهرها ـ وأقربها للصواب ـ هى تجارب العالم الروسى **«فورنوف»** لتلقيح الشيوخ بخصى القردة . **بيد ان هذه التجارب لم تؤد الى اكثر من ايقاظ الشهوة الجنسية ، بينما بقى القلب والكلى والكبد والرئة والعضلات ـ وغيرها من الاعضاء والانسجة ـ فى مرحلة الشيخوخة والضعف ، فلم تحتمل لهب الشباب وقوة الشهوة ، وسرعان ما انهارت فتوفى اصحابها فجأة .. ذلك لان شبابهم تجدد فى ناحية واحدة ، مما أفقد أعضاء الجسم توازنها ، فأصيبت بارهاق عطلها !**

ولقد استطاع فضول الانسان ان ينتهى به الى ان الحياة مجموعة من التفاعلات الكيمياوية . ومن أبرع التجارب فى هذا السبيل تجربة العالم « جاك ليوب » على بويضة غير ملقحة لاحد الاحياء البحرية .. فقد كان الاعتقاد السائد ، هو ان من المستحيل ان تنتج البويضة جنينا ما لم تلقح بالحيوانات الذكرية ، فيحدث ما يسمى بالاخصاب ، ويعقبه انقسام الخلية ، ثم ظهور الجنين .. **ولكن تجربة ((جاك ليوب)) اثبتت ان**

المستحيل جائز الحدوث ، فبقليل من الملح والسكر ومواد كيمياوية معينة ، بدأت البويضة غير الملقحة فى الانقسام ، ثم انتجت مخلوقا يسبح فى الماء كأخوانه ، فكان اول حى ظهر فى الوجود بغير أب !

وهكذا أثبتت المواد الكيمياوية انها قادرة على بعث الحياة. وقال «ليوب» ان الحياة تبدأ بزيادة التفاعل الكيمياوى فى البويضة، وان الموت ينشأ عن توقف هذا التفاعل فى الجسم الحى

المعمرون يرثون عوامل طول الحياة

• **وبالمواد** الكيمياوية أيضا ، عولجت بعض الانسجة الحية، فظلت محتفظة بحياتها ، كما امكن تغيير بعض صفاتها .. وكل ما احتاجت اليه هو تغيير الوسط الغذائى الو قائى الذى تعيش فيه . وكانت نتيجة هذه التجارب ادراكنا ان الموت ليس عنصرا كامنا فى الحى ، وانما هو طارىء عليه .. فلو أننا عرفنا المواد الكيمياوية الملائمة، لجعلنا الحى يعيش الى الابد، وفقا لمنطق العلم .. ويبدو أن بعض خلايا الجسم تفرز موادا ضارة بالخلايا المجاورة لها ، مما يؤدى الى انحلالها .. فيؤثر الانحلال - بدوره - على الخلايا صاحبة الافراز الضار ، ويؤذيها ، اذ ان الخلايا تعتمد بعضها على بعض ، فاذا اعتل فريق منها ، تداعى له سواه !

وفى ضوء هذا التعليل ، فسر العلماء سر المعمرين .. فهم يرثون من آبائهم تفاعلا كيمياويا يعمل فى انسجام كبير لوقاية شتى الانسجة والخلايا فى داخل أجسامهم، فيمنع بعضها من افراز المواد الضارة بغيرها ، أو يخلص الجسم من مضار هذا الافراز .. وبالتالى تظل الخلايا فى نشاطها وحيويتها ، ويظل الحى محتفظا بشبابه أطول فترة ممكنة .

الاسرار الاولى للخصية

• **ولقد** عرف الانسان ان « الخصى » معامل لانتاج مواد

كيمياوية ساحرة . ففى عام ١٧٧٦ قال العالم الفرنسى « تيوفيل دى بوردو » **ان الخصى تؤدى مهمة تتجاوز انتاج الحيوانات المنوية .. فهى غدد ذات افراز داخلى هام للغاية ، اذ انه من عوامل الموت والحياة !..**

ومضت ٧٣ سنة قبل ان يحقق العالم الالمانى « ارنولد ادولف برتولد » نبوءة « دى بوردو » . ففى عام ١٨٤٩، حول « برتولد » الديكة المخصية الوديعة، التى كانت تستسلم أو تفر فى ضعف أمام هجمات الدجاج ، الى ديكة محاربة !.. فقد أزال خصى اربعة من الديكة ، وراح يراقبها وهى تفقد كل صفاتها الخاصة بالذكور . ثم عاد اليها ، وانتقى منها ديكين ، ففتح بطنيهما ، واستنبت فى كل منهما خصية .. **وكان هذا الموضع شاذا للخصية ، ولكن « برتولد » كان يرمى الى تحقيق قول « دى بوردو » من ان الخصى أكثر من مصنع للحيوانات المنوية، وانها تفرز ايضا مادة فى الدم هى المسئولة عن مظاهر الذكور** . ومضت ايام ، كان خلالها الديكان — اللذان ظلا مخصيين — يواصلان حياتهما الهادئة الوديعة ويقتنيان اللحم الطرى . اما الديكان المخصيان الملقحان فاستعادا صفات الديكة، ونما عرف كل منها وازدهر، وراحا يطاردان ماحولهما من دجاج فى نشاط، ويتحفزان لخوض المعركة ضد كل دخيل!

مولد علم الهرمونات

• وقد سجل « برتولد » تجربته هذه، وأعد عنها رسالة، قال فى نهايتها أن الخصى تنتج مادة تسرى فى الدم وتتفاعل معه ، وهذا بدوره يؤثر على شتى أعضاء الجسم . **وكانت هذه التجربة الفذة هى أساس علم « الهرمونات » .. فما هى المادة الذكرية التى تفرزها الخصى ، فتؤدى الى كل هذا التحول فى الاحياء ؟ وأى أمل يجده الكهول فيها للظفر بالشباب وطموحه ؟**

ومن حسن حظ البشرية ، ان علم الكيمياء العضوية كان قد

تقدم ، وأصبح بوسعه أن ينتج من المواد الميتة ، موادا لا توجد الا فى الاجسام الحية ، مثل « البولينا »

ولم يكن البحث عن المادة المجهولة ـ التى تطوى سر الرجولة ـ بالامر الهين ، فان علم الكيمياء العضوية من العلوم الصعبة . ورغم تلهف الناس على المادة الساحرة ، فان أول قبس عنها لم يظهر الا فى عام ١٩٢٦ ، وبعد أن كانت قد تسببت فى كارثة علمية جعلت الخبراء يخشون مجرد التحدث عنها ، خشية أن يحل بهم ما أصاب العالم الفرنسى « شارل ادوار برون سيكار » !

الايحاء هو الذى جدد شبابه !

• **ذلك** أن هذا العالم كان من أول الخبراء الذين كشفوا عمليا عن سر بعض الغدد الصماء فى البنكرياس ، وآثارها ، فكان من نتائج هذا الاكتشاف ، ان ظفر « برون سيكار » بشهرة واسعة ، وبمجد علمى حسده عليه الكثيرون . فدفعه هذا النجاح الى بحث مسألة الخصية ، ومادة الرجولة السحرية فيها . **اذ حصل على عدد من خصى الكلاب ، استخلص منها محلولا حقن به نفسه فى عام ١٨٨٩ ـ وكان قد بلغ الثانية والسبعين من عمره ـ ثم أعلن على الملأ انه ظفر بتجديد الشباب لنفسه ! .. وكان اعلانه قنبلة دوت فى المجامع العلمية ، لا سيما حين شوهد « برون سيكار » يتحرك فى نشاط دافق ، ويتحدث فى حمية وحرارة !**

ولكن خبراء الكيمياء العضوية ارتابوا فى صحة بحثه ، لان الطريقة التى اتبعها فى استخراج المحلول لم تكن كفيلة باستخلاص مادة الرجولة . بيد أنهم آثروا الصمت ليروا ما قد يحل بهذا العالم بعد فترة .. ولم يطل انتظارهم ، اذ لم يلبث « برون سيكار » أن شعر بعد أيام بعبء الجهد الذى بذله .. ثم دب التعب والاعياء والضعف فى بدنه .. وانتهى

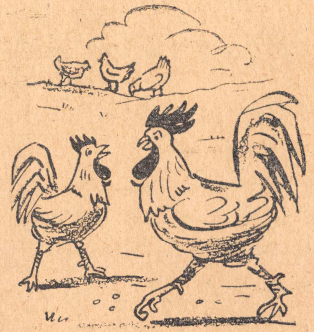
به الامر الى الوفاة ، بعد شهر واحد من اعلانه تجربته .. **وبعد أن اعترف صراحة بأن كل ما اعتراه لم يكن سوى مجرد وهم ، نشأ عن ايحاء ذاتى بأن شبابه تجدد .**

ولسوء حظ العلم والبحث ، كان لهذا الحادث دوى جبار ، خلق رد فعل فى المجامع العلمية ، فأصبح أى انسان يجرؤ على الحديث عن مادة الرجولة معرضا للتهكم والسخرية ، وأصبح مجرد ذكر اسم « برون سيكار » تحذيرا رهيبا ، ونذيرا بانهيار السمعة العلمية . **وفى ظل هذه الرهبة تجنب الباحثون أية دراسة للخصى .** ولكنهم اتجهوا الى دراسة الغدد الاخرى كالدرقية والادرينالية والنخامية والبنكرياس

وبانصراف الباحثين الى الاجزاء المحترمة من الجسم ، اكتشفوا عشرات الهرمونات ، وبهرتهم الغدة النخامية — فى قاع الرأس — اذ وجدوا أنها تفرز أكثر من ١٢ هرمونا ، لكل منها أثره الحيوى . **فبدت لهم هذه الغدة سيدة الغدد ، حتى لقد اعتقدوا أن سر الحياة والرجولة يكمن فيها لا فى الخصى .** اذ أن نمو الحيوانات يتوقف اذا لم توجد الغدة النخامية ، كما يتعطل عمل الغدد الاخرى ، ومنها المبايض والخصى

.. وبدأت اللعنة تنقشع !

• **وظلت** الرهبة تبعد الباحثين عن دراسة الخصى نحو خمس وثلاثين سنة . الى أن أقدم العالم الامريكى « فريد كوش » ومساعده « ليميويل كليدماكجى » ، على خرق هذه الرهبة فى سنة ١٩٢٦ .. وكانت مهمتهما عسيرة ، اذ بدآ بتجارب « برتولد » عن الديوك المخصية ، ثم تحولا الى تحليل أطنان من خصى الثيران ، وكل هدفهما أن يعثرا على المادة التى يستطيعان بها أن يكسبا الديوك المخصية صفات الديوك المقاتلة . فقضيا نحو سنة دون أن يظفرا بأية نتيجة رغم الجهود الجبارة التى بذلاها فى التحليل والاستعانه بشتى المواد



الكيميائية ، وبالحيوانات من الطيور الى الارانب والخنازير !

استولى اليأس على «ماكجى» مرات ، وهم بأن يهجر البحث ، ولكن « كوش » لم يكن من النوع الذى يستسلم ، بل كان عنيدا لا يتقهقر ، وكان مؤمنا ـ الى حد التعصب ـ بأن النصر حليفه فى النهاية . . وكان على « ماكجى » أن يجرب كل حيلة ، وكل مادة ، وكل حيوان . **وأخيرا ظفرا بمادة لا يزيد حجمها على سن الدبوس ، وحقنا بها ديكا مخصيا خامل الحركة ، فاذا بعرفه ينمو ويزدهر ، واذا هو يعود الى طبيعته فى مطاردة الدجاج ، والتحفز للقتال !**

وكررا التجربة مرات ، فكانت النتيجة واحدة . ولكن كل تجربة كانت باهظة النفقات ، فان هذه الكمية التافهة ـ التى كان يتعذر رؤيتها بالعين المجردة ـ كانت تستخرج من أربعين رطلا من الخصى ! . . على أن النفقات كانت تهون فى سبيل اثبات دور الخصى ، وافرازها للمادة المسببة للرجولة !

.. ورأى العلم أول الاضواء

• **وفى** تواضع علمى غريب ، أعلن « كوش » نتائج البحث ، وأسند فضله الى مساعده « ماكجى » . . فرفع من شأنه ، وخلد اسمه فى تاريخ البحوث الطبية . **كما فتح الباب لمواصلة البحث لتحضير المادة الساحرة نقية .** وكانت نفقات البحث فادحة ، ولا تبشر بنتائج عملية عاجلة ، مما أدى الى توقف المعامل ـ التى كانت تساند «كوش» ـ على الانفاق على التجارب

ولم يهدأ « فريد كوش » ، فقد كانت أعز أمانيـــه الظفر بالهرمون الساحر نقيا على هيئة بلورات واضـــحة التركيب الكيميائى ... كان يسعى الى معرفة كم يحوى الهرمون من ذرات الكربون والايدروجين والاكســوجين ، وكيف انتظمت هذه الذرات ، لعل المعرفة تتيح التوصل الى صنع هذه المادة السحرية فى المعامل بكميات كبيرة .. ومن ثم يتيسر اجــراء مزيد من التجارب التى تكشف عن أهمية هذا « الهرمون » وتأثيراته على الاجسام السليمة والمعتلة .. ولم يكن الهــدف جنسيا أو تجديدا للشباب ، وانما كان سعيا لمعرفة التفاعل الكيميائى فى أجسام الذكور والاناث وصلته بالصحة والمرض .

وكانت الظروف فى عون « كوش » ، اذ ظهرت فى جامعـة (كاليفورنيا) مشكلة خاصة بالثروة الحيوانية .. فقد كان بين الابقار ما يولد وهو مصاب بالعقم أصلا . وكان البحث التشريحى يؤكد أنها لا يمكن أن تنعم بالامومة . ودرس العالم « فرانك ليلى » تاريخ بعض هذه الابقار وأعــراض علتها ، فوجد أنها من التوائم التى تولد مع عجــول ، من الذكور . واستنتج أن الهرمونات الذكرية فى الام ، تختلط - فى فترة الحمل - وتغزو الجنين الانثى ، فتقضى على انوثته . وكانت نظريته مقبولة كفرض علمى ، ولكنها تحتاج الى دليل يثبتها .. والسبيل الوحيد الى ذلك ، لا يتأتى الا عن طريق الهرمونات الذكرية ، وهرمونات الخصى بوجه خاص !

وعلى هذا الاساس ، قبلت الجامعة أن تقدم مبلغا من المال للعالم « كوش » ، كى يواصل تجاربه ، فعاد الى المعمـل والخصى ليجرى مئات التجارب ، بعشرات المواد الكيميائية .. وكان يجرب - كل كمية من الخلاصة يوفق الى تنقيتها - على الحيوانات المخصية - من ديكة وفيران وأرانب - ويسجل مدى تقـدمه أو تأخره ، ويحسب قوة مفعــول كل مادة يستخلصها ، وفقا لدرجة نقائها .

وكان الباحثون يقصدونه من كل صوب ، للظفر بهذه الخلاصة واستخدامها فى التجارب المختلفة التى كانت تؤيد وجهة نظره فى أن **هرمون الخصى أكثر من مادة رجولة .**

ومن النتائج الهامة فى هذا السبيل ، ما أثبته الدكتور « كارل مور » من العلاقة الوثيقة بين افرازات الغدة النخامية فى قاع المخ، وافرازات الخصى، فيؤثر نشاط احداهما على نشاط الاخرى

ودفعت المعلومات المتزايدة عالما آخر الى تجربة هذا « الهرمون » على الرجال الذين ولدوا بخصى معتلة جردتهم من رجولتهم . وكان أول موضوع لتجاربه انسانا فى السادسة والعشرين من عمره ، ولكنه كان فى مظهر غلام فى الرابعة عشرة .. فلا لحية له ، كما أن صوته كان رفيعا كصوت طفل ، ولم تداخله الدوافع الجنسية طيلة حياته! .. ودل فحصه بأشعة « أكس » على توقف نمو بعض عظامه ، وعلى أن خصيتيه كانتا صغيرتين . وعندما درس الاحتراق الغذائى فى جسمه ، ظهر أنه منخفض عن المستوى العادى للرجال !

فى هذا « الرجل الناقص » ، جرب الدكتور « كنيون » حقن الهرمون الذكرى لمدة ٥٣ يوما ، فاذا بكل مظاهر الرجولة — من صوت خشن ، وشعور ملح بالحاجة الى المرأة — تتجلى عليه .. واستطاع أن يمارس العملية الجنسية لاول مرة فى حياته ، وان يكررها عدة مرات حتى ظن انه استعاد رجولته

ولكن خلاصة الهرمون فرغت ، اذ استنفدت التجربة من خلاصة الخصى ما بلغ وزنه نصف طن . وهو مقدار ضخم ، غالى الثمن لا يقوى على احتمال نفقاته أغنى أصحاب الملايين . واضطر العالم الى أن يوقف حقنه بالهرمون الساحر بعد أن نفدت آخر قطراته ، فعاد الشاب الى حالته الاولى .. طفلا ضخم الجسم ! .. وأدرك الباحثون أن مفعول « الهرمون » مؤقت ، وأنه يكسب الجسم سمات الرجولة طالما كان يسرى فيه ، فاذا ما توقف سريانه عاد الحي يعاني آلام النقص !

هرمونات من البول .. وهرمونات صناعية

• **وقضى** « فريد كوش » ومساعدوه سبع سنوات طوال وهم يتحايلون على خلاصة الخصية ، بغية الظفر بالهرمون نقيا متبلورا .. وأقبل خبراء الكيمياء العضوية على تذليل العقبات التى اعترضتهم ، حتى وفق الكيميائى الالمانى « ادولف بوتناندت » ، الى أن يستخلص ـ من ٢٥ ألف لتر من البول البشرى ـ عددا قليلا من البلورات التى تحول الديكة المخصية الى ديوك مقاتلة ! .. **ثم وفق مواطن له هو « ارنست لاكور » الى تحضير الهرمون النقى من خصى الثيران ، فاستهلك طنا كاملا ليظفر بما زنته واحد الى ١٥٠ من الاوقية .** وكان مفعول هذا الهرمون النقى تام الشبه بهرمون « كوش » ، وان اختلف قليلا عن هرمون « بوتناندت » من الناحية الكيمياوية .. واطلق « لاكور » على هرمونه اسم **« تستوستيرون » !**

وكان من المستحيل عمليا ، اجراء التجارب بهذا الهرمون الباهظ النفقات ، ولكن مثل هذه العقبة لم تكن لتعترض خبراء الكيمياء العضوية ، بعد أن سجلوا براعتهم فى اصطناع كثير من المواد العضوية .. فان هى الا أسابيع حتى تمكن الكيمياوى اليوجوسلافى « ليوبولد روجيكا » من الاستعانة بمادة « الكولستيرول » ـ التى توجد فى كل الخلايا الحية للنبات والحيوان ـ ومنها اصطنع فى المعمل هرمون **« التستوستيرون » الصناعى** .. وبهذا تيسر تحضير الهرمون النقى بالاطنان !

ومع ذلك ، فقد بقيت العقليات الجامدة ـ فى الاوساط العلمية ـ تنظر الى « التستوستيرون » على أنه مادة جنسية ، بل على أنه ديناميت ناسف للاخلاق البشرية !

عمر الانسان مخالف لسنن الطبيعة

• **على** أن كثيرين من علماء الكيمياء لم يكونوا من أنصار

هذا الرأى، اذ كانوا يرون أن شيخوخة الانسان وعجزه مخالفان لسنن الطبيعة ، فان المعدل الحقيقى لعمر الانسان ـ حسب الظواهر الطبيعية ـ هو ١٢٠ سنة على الاقل .. ومن ثم فالشيخوخة المبكرة ـ وما يليها من موت ـ انما هما نوع من المرض يجب القضاء عليه ومحاربته ، كما نحارب الامراض الميكروبية . وللعثور على علاج لهذا المرض ، يجب أن يتكاتف الكيمياويون والمهندسون ليدرسوا تخطيط الجسم فى كيميائه وهندسته .. وقد أيدهم فى منطقهم هذا ، طائفة من الاكتشافات الكيمياوية البارعة ، التى أزالت كثيرا من علل الجسم وأمراضه

ولقد اعترف رجال الطب أنفسهم بفضل الكيمياويين ، بل أن بعضهم رأى المنتجات الكيمياوية ـ من فيتامينات وهرمونات ـ هى المفاتيح المؤدية الى الحياة .. واذا كان « التستوستيرون » هرمونا ذكريا سىء السمعة ، فقد كان له ابن عم لم تشب سمعته شائبة ، رغم أنه من عين المنبع تقريبا .. ذلك هو « الايسترون » أو الهرمون الجنسى الانثوى الذى اكتشف فى مبايض الاناث ، والذى شاء له حظه أن يثبت أنه نعمة للسيدات اللاتى يجتزن مرحلة منتصف العمر (نحو ٤٥ سنة) ، فيصبن بالقلق وتوتر الاعصاب وسرعة الانفعال .. اذ أن بضع جرعات منه تعيدهن الى الهدوء والحياة العادية ، وتشفيهن من عدة علل ..

على أن سوء السمعة ، لم يحل دون ان يمضى فريق من العلماء فى بحوث « التستوستيرون » فى حذر وحيطة . فحقنت به أناث الفيران الحوامل ، واذا النتيجة عجبا .. **فقد تحولت أناث الاجنة الى ذكور ، وهى فى أرحام أمهاتها ! ..** وحقنت به فروخ الديكة « الكتاكيت » عقب مغادرتها لبيضتها ، فاذا هى سريعة النمو ، تخطو فى عجلة الى نضج مبكر !

وجرب الهرمون الذكرى على الدجاج ، فقاد البحث الى دراسة الحالة الاجتماعية للقطيع كله ، ليتبين الباحثون مدى

سيادة كل دجاجة أو تخاذلها أمام سواها .. وأثبت البحث أن بين الدجاج ملكات تتحكمن فى الباقيات ، وأن الغالبية تميل الى الخضوع والاستسلام لمن تغتصب السلطة بقوتها ونشاطها .. فلما قدم « التستوستيرون » الى الدجاج المستسلم ، تغيرت صفاته ، وأصبح يأبى الخضوع والمهادنة ، وبدأ كأنه اكتسب طموحا وقوة ، وحشد قوته المدفاع عن سيادته .. ثم ضاعف الباحثون جرعات الهرمون الذكرى لهذه الدجاجات ، فتوقفت عن وضع البيض ، وتحولت الى نوع من الديكة المقاتلة التى لا ترى بأسا من مهاجمة الديكة الاصيلة ، ومطاردة بنات جنسها من الدجاج بغية تلقيحها .. وعندما أوقف حقنها بالهرمون ، عادت الى حياة الاناث ، والى مرتبتها السابقة فى القطيع !

الجنس عملية كيمياوية

• **وكانت** أهم نتيجة لهذا البحث ، أنه أثبت أن الظواهر الجنسية عملية كيمياوية ، وأن الطموح والشجاعة والفتوة ليست سوى افرازات كيمياوية، فماذا يصنع «التستوستيرون» فى الانسان ؟ .. وما هى آثاره فى أولئك الافراد الذين ولدوا أشباه رجل ؟ .. وماذا يفعل فى الخاملين والمتخلفين والجبناء من أعضاء الجنس البشرى ؟

أسئلة دقيقة هامة تجيب عليها التجارب وحدها .. ولم يكن يملك اجراء مثل هذه التجارب سوى شخص جرىء لا يأبه للتقولات . وقد قدر للباحث « جيمس هاملتون » ـ وهو مدرس تشريح ـ أن يكون هذا الرجل .. فقد كان بين تلاميذه طالب فى السابعة والعشرين ، يرتاب الناظر اليه فى أنه رجل ، لا سيما اذا خلع ثيابه . اذ كانت عظام ردفيه عريضة كعظام حوض المرأة ، وكان ثدياه بارزين ، وصوته رفيعا ، وشعر فوديه خفيفا .. فاذا ما عنيت بفحص خصيتيه وجدتهما

ضئيلتين جدا ، يعلوهما عضو تناسلى لا يزيد على حجم عضو طفل فى الرابعة من عمره .

والغريب حقا ، أن هذا الطالب كان على وشك الزواج ، مما جعله نبعا لا ينضب من الانفعالات العصبية والنفسية ، وأنواع القلق وانعدام الثقة بالنفس، فضلا عن نوبات صداع .. وقد ظن فى أول الامر أن علته ناشـــئة عن نقص هرمونات الغدة النخامية ، فعولج بها دون نتيجة .. وفى عام ١٩٣٧ بدأت معامل « سيبا » تنتج التستوستيرون الصناعى ، وأرسلت بعض عيناته الى الدكتور « هاميلتون » لتجربتها ، فاستدعى لفيفا من زملائه الاطباء ممن لهم حق العلاج – لانه كان مختصا بالتشريح فقط – ليشتركوا فى التجربة ، وبدأ يحقن الشاب الناقص بالهرمون الذكرى .. **فان هى الا ستة أيام، حتى شعر الشاب – لاول مرة فى حياته – بالرغبة الجنسية .. وبدأت أعضاؤه التناسلية تنمو وتكبر .. ولم يمض عليه شهر حتى مارس العملية الجنسية بنجاح غريب !**

وراقب الدكتور « هاميلتون » مريضه ، فأثار اهتمامه أن تأثير الهرمون تجاوز احياء الناحية الجنسية ، اذ بدأت الغدة الدرقية – فى الرقبة – تنمو وتنشط ، وظهرت بوادر شارب ولحية على وجه الشاب ، وزادت غزارة الشعر على صدره وساقيه وذراعيه ، وفارقته نوبات الصداع تقريبا ، وتحول من انسان لم يكن يقوى على مواجهة الآخرين ، الى مخلوق ملىء بالامل والطموح والنشاط !

وارتاب هاميلتون وزملاؤه فيما كانت عيونهم تراه ، وخشوا أن يكون الاثر مجرد ايحاء يكرر كارثة « برون سيكار » ، اذ كان المريض – كطالب يدرس الطب – على دراية بكل ما قيل عن الهرمون .. لذلك أوقفوا حقنه به – دون أن يدرى – وان ظلوا على ايهامه بأنهم ماضون فى الحقن .. **فلم تنقض خمسة أيام حتى أصيب المريض بنوبات صداع قاســية ، وفقدت**

أعضاؤه التناسلية حيويتها مرة واحدة . وفى الوقت ذاته ، انهارت نفسيته وأعصابه ، وفقد طموحه وآماله وثقته بنفسه ، وعاد الى الانطواء بعيدا عن الناس ! .. وشهد الباحثون الردة القاسية . فعادوا الى حقنه بالهرمون - دون أن يعرف - واذا الرجولة ترتد اليه ، مما أكد أن النتائج ليست من فعل الوهم والايحاء بل .. من فعل الهرمون الساحر !

علاج لاشباه الرجال

• ونشر هاميلتون نتيجة بحثه، مؤكدا انالهرمون الجديد علاج جيد لاشباه الرجال ، ممن حرموا نعمة اكتمال اجهزتهم الجنسية . ولكن الهيئات العلمية لامته وانتقدته لانه بنى قراره على مجرد تجربة واحدة ، فى حين ان الاوضاع العلمية توجب اجراء التجربة عشرات المرات ، قبل التسليم بصحة النتائج والحكم بمدى النجاح !

على أن الاوساط العلمية لم تلبث ان تلقت تقريرا آخر يؤكد بحوث هاميلتون .. وكان مصدره الدكتور « جورج فوس » من مدينة (بريستول) ببريطانيا . فقد جاءه رجل فى الثامنة والثلاثين من عمره يشكو من تقلصات عنيفة ، مصحوبة بأورام وبثور فى وجهه . وكان المريض يبدو عاديا ، باستثناء نعومة غريبة طرأت على بشرته ، وبعض ظواهر اشعرت الخبير بأن شيئا حدث فامتص من الرجل قوته . وبادر الدكتور «فوس» الى دراسة تاريخ المريض ، فعرف انه أصيب فى الحرب العالمية الاولى بشظية قنبلة سلبته خصيتيه وحدهما ، وتركت بقية اعضائه سليمة. وكان - اذ ذاك - فى التاسعة عشرة من عمره ، وقد اكتمل نضجه تقريبا . ودرس الطبيب تكوين جسم المريض ، فاذا به يبدو وكأنه خاء من العضلات ، كما ان عظام الردفين نمت بشكل عريض ، كما يحدث للاناث .

وروى المريض ان حنينه الى الجنس الآخر زال تماما بعد ضياع خصيتيه ، اللتين أدى زوالهما الى تناقص مستمر فى قواه !.. كما اعترف بأنه تزوج فى سنة ١٩٢٤ ، ولكن كل محاولاته لارضاء الرغبة الجنسية عند زوجته ذهبت ادراج الرياح . ومن العجيب ان هذا العجز لم يكن هو الذى دفعه الى استشارة الطبيب ، وانما جاء لعلاج تلك النتوءات والبثور والتقلصات فى وجهه .. وهى احدى حيل الطبيعة عندما تحاول تغطية كارثة بأخرى ، أذ ارادت بها أن ينسى المريض مافقده من جراء الحرمان من الخصيتين !..

والواقع أن البثور والنتوءات كثيرا ماتظهر فى وجوه السيدات ، عندما يشرفن على مرحلة منتصف العمر ، وتخبو فيهن الرغبة الجنسية ، ويتوقف الحيض الشهرى .. وتعالج هذه الحالة عند السيدات ، باعطائهن الهرمون الانثى المعروف باسم « استرا ديول » .. وقد كان التشابه كبيرا بين حالة هذا الخصى ، وحالة أولئك السيدات، اذ كان يعانى هو الآخر من تغير فى حياته الجنسية . وكانت الانباء العلمية ترد عن الهرمون الذكرى، فاستخدمه الدكتور «فوس» فى حقن المريض، وسرعان ما اختفت البثور والتقلصات ، بعد ستة ايام . ولكن المريض بدأ يشكو من حالة أخرى ، دفعته الى أن يسأل الطبيب أن يخفف من الجرعات ، لان عضوه التناسلى أصيب بتوتر آلمه وآلم زوجته

وكان هذا الحديث مفاجأة للدكتور « فوس» الذى لم يكن قد فكر فى أعادة الحياة الجنسية لمريضه ، وانما كان كل همه شفاء البثور !.. وفعلا خفض الطبيب الجرعات ، فأصبح المريض شخصا عاديا ، وأحس بقواه تعود اليه ، وكأنه شاب فى التاسعة عشرة .. كما أن وزنه أزداد ، ولم تعد ملابسه تلائمه !

طالبوا بالمساواة بالحيوانات

• وسرت أنباء الاكسير السحرى الى الناس ، فأقبل المحرومون من خصيهم - سواء بالطبيعة، أو من جراء حوادث وامراض - يطلبون العلاج ، ورضوا بأن يكونوا حيوانات للتجارب ، فكانت أعدادهم كبيرة وفيرة . وكان أكثرهم فى حالات يرثى لها من الضعف والاعياء والانهيار العقلى !

وتوقع الخبراء ان ينفسح مجال العمل أمام هرمون « التستوستيرون » ، وصار من العسير على عقلاء المحافظين فى الهيئات العلمية أن يتجاهلوا أمر الاكسير الجديد ، حتى أن خبراء جامعة « جون هوبكنز » الامريكية - التى اشتهرت بصلابتها ودقتها - لم يجدوا مفرا من السير فى الركب ، فاحتضن الدكتور « هيو يونج » وزملاؤه بحوث « التستو ستيرون » .. **وكانت باكورة تجاربهم على طفل زنجى عمره ثلاث سنوات ونصف، كان مصابا بورم فى حنجرته، بحيث تعذر عليه التنفس الا بانبوبة خاصة . وكان المعروف أن مثل هذا الورم يختفى عند الاطفال حين يصلون الى سن البلوغ ، أو - بعبارة أخرى - عندما تبدأ الخصى أفرازها للهرمون الذكرى فى الجسم ، مما رجح أن سريان الهرمون يؤدى الى أختفاء الورم .** ومن ثم حقن الطفل بجرعات صغيرة من الهرمون - مرة فى الاسبوع - فى فترة أستمرت خمسة أشهر . ولسوء الحظ ان الورم لم يختف، ولكن الطفل تحول الى شىء آخر، اذ نبت لديه شعر العانة، ونما عضوه التناسلى كما لو كان شابا، وتمتع بقوة لاتتناسب مع جسمه الضئيل .. وبعد أن كان شخصية هادئة مستكينة صار مشاكسا يميل الى مصارعة من يكبرونه ، لا أقرانه فحسب !

وفقد الباحثون الامل فى علاج الورم ، فأوقفوا الهرمون ، واذا الطفل يعود الى الدعة والاستكانة . **ولكن التجربة كانت**

كافيـــة لان تؤكـــد ان الجنس عمليـــة كيميـاوية ، وان ((التستوستيرون)) اكثـــر من عامل جنسى ، فهو أيضا يبنى العضلات، ويرفع الروح المعنويةويكسب الفرد جرأة وشجاعة ونشاطا

ودعا هـــذا جامعة ((جون هوبكنز)) ـ بوصفهـــا من أكبر الهيئات العلمية الامريكية ـ الى أن تجرب ((التستوستيرون)) على نطـــاق أوسع ، فاختارت ٢٢ من أشبـــاه الرجال ـ ممن حرموا القدرة الجنسية بسبب الخلقة الطبيعية أو الحوادث والامراض ـ وخقنتهم بجرعات الهـــرمون ، فأحسوا جميعا بالنشاط الحيوى يغزو أجسامهم منذ اليوم الثانى لبدء العلاج، وأقبلوا يعيشون فى مجتمعاتهم حياة عادية كسواهم من الناس، وقـــد تخلوا عن خجلهم وانطوائهم ، كمـــا زاد وزن كل منهم زيادة تراوحت بين ١٠ و ٢٥ رطلا !

واستمر اشراف الجامعة على هذا الفريق سنتين ، فكانت التقارير عنهم تفيض بالامل والحياة والتقـــدم المطرد فى العمل والعلاقات الاجتماعية .. وكان أهم علاج لهم هو الاستمرار فى تعاطى الهرمون الذى حرموا منه حين حرموا من خصياتهم . وكان على كل منهم أن يعرف مدى حاجته منه بغير زيادة أو نقص حتى لاينتهى الى نتائج غير مرغوب فيها !

((الهرمون)) عديم النفع للاصحاء !

• **وانتقلت** التجـــارب خطوة جـــديدة : فماذا يحـــدث اذا تعاطى الهرمون أفراد أصحاء ممن يتمتعون بخصيهم ورجولتهم ؟

دعت الجامعة فريقا من المتطوعين من هذا الطراز، وحقنتهم بجرعات متباينة القوة، فلم يظهر عليهم أى أثر ، لا فى الناحية الجنسية ، ولا فى النـــاحية الجسمية .. **وظهـــر ان الطبيعة لا تريد من ((الهرمون)) الا ما يعوض النقص ، اما الزائد فانها تتخلص منه كفضلة لا داعى لوجودها !.. وكان منهم أشخاص**

يعانون ضعفا جنسيا ، ولكنهم يتمتعون بخصى عادية، فلم يفد واحد منهم من ((الهرمون)) ، بل ظلوا على ضعفهم . وقيل فى تعليل هذه الظاهرة أن الاسباب لا ترجع الى نقص هرمونى ، بل الى علل أخرى !

وفى هذه التجارب حدثت نادرة طريفة أثبتت أن النشاط الجنسى مسألة عقلية نفسية عند الاشخاص العاديين . فقد كان فى جامعة ((جون هوبكنز)) عامل فى الخامسة والخمسين من عمره ، رأى الرجال المصابين بالنقص يفدون على الجامعة كأفراد مخنثين محطمين ، فلا تمضى عليهم أيام حتى يكتسبوا ثوب الرجولة والفتوة. وسمعهم وهم يروون القصص الغريبة عن التطور الذى طرأ على حياتهم الجنسية ، فسعى هو الآخر الى الطبيب يروى له العجز الجنسى الذى دب اليه مع الشيخوخة . ووجد الطبيب فى العامل فرصة بحث جديد طارىء ، فحقنه بالهرمون .. وعاد العامل فى اليوم التالى والدنيا لاتسعه، فقد استعاد شبابه ، واستأنف سيرته وأكثر!

وفى الموعد التالى للحقنة ، تعمد الطبيب أن يحقنه بمادة زائفة ، دون أن ينبئه بشىء .. واذا الرجل يحس بشبابه المتجدد ، ويمارس العملية الجنسية كما كان يمارسها فى شبابه .. وظهر أن الايحاء والعوامل النفسية ، هى التى كانت تفعل فى الرجل ما كان يبتغى من ((الهرمون)) أن يفعله !

وخشى الطبيب نتائج هذا النشاط المفتعل فى جسم العامل، لما كان يتطلبه منه من جهد وقوة تفوق أحتمال أعضائه — من قلب وكبد وعضلات واوعية دموية — فنصحه بأن يخفف من غلوائه خشية حدوث مضاعفات تؤدى الى توقف هذه الاعضاء عن أداء عملها !

وبمرور الزمن أقبل الباحثون على فحص هرمون ((التستوستيرون)) ، وتجربته فى كل علة رأوا علاجها به .. وفى أشهر قلائل ، زاد عدد التقارير العلمية على ألف تقرير ،

وكلها يجزم بان الهرمون الجنسى الذكرى لايقتصر على اذكاء الناحية الجنسية فى من حرموا من وجوده فى أجسامهم، وأنما يمتد أثره بحيث يخلق فيهم قوة جديدة، ويبنى عضلاتهم وأنسجتهم، فيزداد وزنهم وقوتهم العضلية.

ذكور واناث بالهرمونات

• **وعرف** الخبراء أمر الحرب الناشبة فى أجسامنا بين نوعى الهرمونات الذكرية والانثوية. ومن بحوث الدكتور «والتركيرن» – الاخصائى فى المجارى البولية – **عرفنا ان الهرمون الذكرى اذا حقنت به الفتيات والنساء، أدى الى توقف الحيض عنهن، كما يجفف اللبن فى أثداء الامهات .. أما اذا حقن عتاة المجرمين بالهرمون الانثوى – المعروف باسم «استراديول» – فانه يجردهم من كل رغبة جنسية، بل انه يوقف غدد الخصى عن افراز الحيوانات المنوية !**

ومن هذه الدراسات الطويلة المعقدة ظهر أن الذكور والاناث يتساوون فى كل شيء تقريبا، ولكن الجنسين يختلفان فى مقدار مايصب فى جسم كل منهما من الهرمونات .. فالاناث يظفرن بمزيد من «الاستراديول»، والذكور يظفرون بمزيد من «التستوستيرون» .. كلا الجنسين يظفران بالهرمونين معا، ولكن الزيادة فى كميات احدهما دون الآخر، هى التى تقرر ما اذا كان المرء أنثى أم ذكرا ! .. ومن الغريب أن نجد أن أصول هذا التباين الغريب بين مفعولى الهرمونين، تتمثل فى اختلافات طفيفة فى تركيبهما الكيمياوى، اذ يتألف «التستوستيرون» من ١٧ ذرة من الكربون و ٢٨ ذرة من الايدروجين، بينما «الاستراديول» الذى يصنع الاناث يقل عنه ذرة كربون واربعا من الايدروجين

وقد دلت بحوث الدكتور «كيرن» على ان هذه الزيادة هى

المسئولة عن ظهور غدة البروستاتة فى الرجال ، وان أخطر أنواع السرطان هو الذى يظهر فيها ، فيقتل ممن تجاوزوا الاربعين عددا لايفوقه الا عدد من يفتك بهم سرطان المعدة .

وأثبت الدكتور «تشارلس سكوت هجينز» أن «التستوستيرون» مسئول عن الاصابة بهذا المرض لانه عندما خصى المصابين بسرطان البروستاتة ، وأزال مصدر افراز الهرمون زالت آلامهم أيضا .. بل أن المرض اختفى فى بعض حالات ، مما أثبت العلاقة الوثيقة بين الهرمون وسرطان البروستاتة .. وليس معنى هذا أن « التستوستيرون » يحدث السرطان ، ولكن زيادته فى بعض الاجسام تعد من العوامل المشجعة لنمو الخلايا السرطانية الضارية ! .. وفى كثير من الحالات يتعذر علاج المريض باستئصال خصيتيه أو بروستاتته ، فيترك للقضاء والقدر والاستعانة بالافيون لتسكين آلامه . وفى مثل هذه الحالات استغل الدكتور «كيرن» عوامل التضاد والتعادل بين الهرمونين الجنسيين ، فاستخدم « الاستراديول » أو الهرمون الانثوى فى ابطال مفعول الهرمون الذكرى ، وفى تخفيف آلام من يضارون به .

اكمال النقص الهرمونى فقط

• **وبسبب** الاثر السيىء للتستوستيرون فى بعض الاجسام ، واحتمال اصابتها بتضخم البروستاتة ونشوء السرطان ، فان الخبراء يحذرون من اعطائه لاجسام ليست فى حاجة اليه ، أو بجرعات فوق ما يلزم للمريض ، اذ لابد أن تكون الجرعات مكملة للنقص فحسب ، والا كان الضرر خطيرا .

وقد يسر الكيمياويون مهمة الاطباء ، فصنعوا « التستوستيرون » فى حبوب ضعيفة الاثر فى الجسم ، وتؤخذ عن طريق الفم . وبها يستطيع الرجال العاديون ــ ممن اكتمل

نمو خصيهم ، ولكن تعطل أفرازها أو ضعف بسبب ما — أن يعوضوا النقص ، ويزيلوا ما يحسون به من ارهاق عقب الشروع فى أى عمل ، كما يستطيعون استعادة قوة تفكيرهم وصفائها اذا انطمسا نتيجة للنقص الهرمونى .. ومن الجائز فى هذه الحالات أن تعود اليهم أيضا قدرتهم الجنسية ، **ولكن الهدف الاول هو سلامة أجسامهم وعقولهم فان تجديد الشباب ليس قدرة جنسية فحسب ، وانما هو قدرة ونشاط وتجدد فى شتى أعضاء الجسم ، مما لم نعرفه بعد عن التستوستيرون**

وبهذه البحوث وغيرها خلع الهرمون الذكرى رداءه السيىء السيرة ، وانتفى عنه القول بانه أداة طغيان جنسى تؤدى الى زيادة جرائم الاغتصاب وهتك الاعراض .. وعرف أن كل أثره للافراد العاديين هو ظفرهم بمادة عديمة القيمة أو ضارة لهم ، ولكنه نعمة وحياة لمن هم فى حاجة اليه !

علاج الامراض العقلية بالتستوستيرون

• **على** هذا الهدى الجديد احتضنه الاطباء ، ووجدوا فيه مجالا خصبا لعلاج كثير من العلل الغامضة ، سواء أكانت جسمانية أم عقلية . فهذا رجل فى الثامنة والعشرين من عمره ، تردد على اكثر مستشفيات امريكا خلال سنتين ، فكان كل مستشفى يسرحه دون أن يجد فيه علة .. الى أن ثبت انه مجنون كان يرد الى المستشفى بعد تسريحه وهو سكير عربيد ، تهيجه خيالات وأصوات يخيل اليه أنها تسبه وتلعنه ، فيندفع للثأر منها .. حتى ان معالجيه كانوا لايطمأنون الى وجودهم بجواره . وكان — الى جوار وحشيته وضراوته — فيلسوفا يرفض تناول طعامه ليوفره للفقراء والمساكين ، باعتبار أنهم أحق منه ، مما أدى الى نحول جسمه واصابته بسوء التغذية !

وفى عام ١٩٣٨ تلقاه الدكتور « تشارلس دون » فى

مستشفى فيلادلفيا ، ففحص خصيتيه ، واذا به يجدهما صغيرتى الحجم مما يدل على قلة افرازهما . فعالجه بحقن « التستوستيرون » مرتين فى الاسبوع .. وسرعان ما بدأت الاوهام تزايله ، فلم تمض أربعة أشهر حتى كان من أشهر الرياضيين فى المستشفى ، وقد استرد كامل عقله . وكانت حالته سببا فى علاج عدة حالات عقلية !

كذلك جربت جرعات « التستوستيرون » على بعض الاطفال والاولاد الذين يصابون بتوقف النمو ، فاستعادوا نموهم العادى **وثبت أن الهرمون يشترك فى عمليات كيمياوية تنتج البروتينات الضرورية لبناء خلايا الجسم ، كما يشترك فى صنع المادة المعروفة باسم « كرياتين » التى يؤدى وجودها الى بناء العضلات** . واشتراكه فى صنع هاتين المادتين يفسر ما طرأ على أجسام الرجال والاطفال من زيادة الوزن ، ونمو العضلات

وقد فتح هذا باب الامل فى علاج حالة تحلل العضلات . وهو مرض يبدو وراثيا ، وينتشر بين الذكور بنسبة كبيرة . اذ يولد الطفل عاديا ، وينمو بطريقة طبيعية ، ثم تأخذ عضلاته فى التحلل ، ولا يلبث أن يفقد ـ تدريجيا ـ قدرته على استخدام اعضائه ، فيظل طريح الفراش الى ان يقضى نحبه قبل ان يصل الى مرحلة البلوغ فى أغلب الحالات ! .. فقد درس الدكتور « تشارلس هوجلاند » هذا المرض فوجد أن ضحاياه يفرزون كميات كبيرة من « الكرياتين » فى بولهم . وفى عام ١٩٤٤ ، جرب حقن بعض الاولاد بالهرمونات الذكرية ، فنجا بعضهم ، بينما مات البعض الآخر .. على أن الامل معقود على الوصول الى طريقة صحيحة لعلاجهم بالهرمون الذكرى .

أمراض منتصف العمر

• **على** أن تريث التستوستيرون فى علاج هذه الحالة ، يقابله نجاح عجيب فى علاج أمراض منتصف العمر ، **حين**

بحس بعض الرجال بتغير وضعف يزحف على القلب والاوردة الدموية والعضلات . وقد درس هذه الحالات الطبيب الالمانى « هينز أرندت » ، وعالج ١٧ حالة كان أصحابها يشكون من آلام الذبحة الصدرية وتصلب عضلات السيقان والعجز عن تركيز أفكارهم فى المشكلات المعروضة عليهم . ودل فحصهم الطبى على اصابة دورتهم الدموية بشىء من التلف ، استطاع التستوستيرون أن يصححه .

وظهر من الدراسة أن تقدم الانسان فى العمر يؤثر على الخصى ، ويجعلها تقلل افرازها . وتبعا لانخفاض نسبة الهرمون فى الجسم تقل قدرته ، وتفقد أعضاؤه مرونتها وقدرتها على تصحيح ما ينتابها من أنواع الخلل . وبهذا الادراك عالج الطبيب الفرنسى « جاى لاروش » سبعة رجال تتفاوت أعمارهم بين الثالثة والخمسين والحادية والسبعين . وكانوا يعانون من الروماتيزم وسرعة الاحساس بالتعب وضعف القوى الجسمانية والعقلية .. فأسفر العلاج بالتستوستيرون عن نتائج طيبة ، اذ زادت قوة عضلاتهم بمعدل ٣٢ فى المائة ، كما زادت قدرتهم العقلية ، وسجلوا تقدما ملموسا عند اختبارهم بأقيسة الذكاء . واستمر هذا التحسن فترة بعد توقف العلاج ، ثم بدأ يتراجع ، مما دل على حاجتهم الدائمة الى جرعات الهرمون ، **فهو لا يعالج الخصى ويدفعها الى استئناف عملها ، ولكن وجوده يعوض النقص الذى حدث بسبب ضعف انتاج الخصى لهذه المادة الثمينة !**

ومن مجموعة البحوث والدراسات ، ظهرت طائفة جديدة من **الجائعين الى الهرمون الذكرى** . فهم يصابون — رجالا ونساء — بأمراض مختلفة ، اذ أن الجوع الهرمونى لا يقتصر على جنس ، ويؤثر على الدورة الدموية ، وهذه بدورها تؤثر

على جميع أعضاء الجسم ، مما يظهر الامراض فى الاعضاء المستعدة للاصابة به .

ويرى بعض الخبراء فى كيمياء الجسم أن من واجب الاطباء أن يوجهوا عناية خاصة الى فحص حالة الهرمونات الذكرية فى شتى الامراض ، لا سيما عند الافراد الذين تجاوزوا سن الخمسين لان كثيرا من أمراضهم ينشأ عن نقص هرمونى يمكن تعويضه بجرعات التستوستيرون التى تعيد للاعضاء قوة بنائها وقدرتها على أداء وظائفها

ومن الجائز أن يحس متعاطو الهرمون بزيادة قدرتهم الجنسية مما يوجب تحذيرهم من الافراط فى الاقبال عليها ، لان كثيرا من أعضائهم يكون قد أصبح أعجز من أن يحتمل ارهاقها ، فلا تلبث أن تتوقف عن داء وظيفتها مما يؤدى الى الموت



.. وأدرك أن أحدا لن يصدقه ، مهما يقسم .. وفجأة ، وجدوا جثته معلقة من السقف .. لقد انتحر حتى لايرى فى عينى مولاته نظرة الشك ، وخيبة الرجاء ، واليأس ..

انها صورة من مآسى رقيق الارض ، رسمها قلم ((تولستوى)) الساحر، الذى هز أفئدة الاجيال بقصصه، تطالعك بها مجلتك المحبوبة ((مطبوعات كتابى)) .. بعدأيام



الرواية المقررة على طلبة الشهادة الثانوية العامة

ملخص ما نشر في العددين السابقين

● كان لابد لي من أن أخوض المخـــاطر ، وأن أكتسب شــهرة وتجارب ، كي تقبل «جلاديز» ـ الفتاة التي أحببتها ـ أن تصبح خطيبة لي • ومن ثم جازفت ، وغالبت الأســتاذ « تشالينجر » ، الذي كان الصحفيون والعلماء يرهبونه •• ذلك لأنه كان قد عاد من رحلة في أمريكا الجنوبية ، قائلا ان على ضفاف (الأمازون) منطقة مجهولة ، تعتبر « العالم المفقود » حقا •• اذ لا تزال مخلوقات ما قبل التاريخ تعيش فيها دون أن يمسها أى تطور •• وقد سفه العلمـــاء قوله ، وسخر منه الناس ، ولكنه ظل متشبثا بروايته ، وذهب في التحدي الى درجة أن طالب بتأليف بعثة تتحرى صدق روايته •• وتألفت البعثة من الأستاذ سمرلي ـ وهو من العلماء ـ واللورد جون روكستون ـ الرحالة الشهير ـ وأنا •• وبعـــد رحلة بحرية طويلة ، ثم رحلة في نهر (الأمازون) ، بلغنـــا بلدة (مناوس) •• وهناك ، لحق بنـا الأستاذ تشالينجر •• وبدأنا توغلنا ، سعيا الى •• « العالم المفقود »

هذا ملخص الحلقتين السابقتين من هذه القصة التي تعتبر من أبدع انتاج الروائي الانجليزي الأشهر « سير ارثر كونان دويل » ـ مبتكر شخصية « شرلوك هولمز » ـ والتي نقدم ترجمتها الحرفية على حلقات، لمساعدة طلبة الشهادة الثانوية العامة على استيعابها ••

والآن •• تابع هذه القصة الرائعة ، في حلقتها الثالثة !

الحلقة الثـــالثة

بقية ألفصل السابع

فلوح تشالينجر بيده الضخمة الغزيرة الشعر ، وكأنه يزيحه جانبا ، وقال : « لقد تبينت انه قد يحسن بي ان أدبر تنقلاتي بنفسي ، وان لا اظهر الا في اللحظة التي تدعو فيها الحاجة الى حضوري تماما . وقد حانت هذه اللحظة ، فأنتم في رعاية امينة . ومنذ الآن سأتولى قيادة هذه الحملة ، ولابد لي من ان اسألكم ان تتموا استعداداتكم الليلة ، حتى يتسنى لنا ان نتمكن من البدء مبكرين في الصباح . ان وقتي ثمين ، والامر ذاته يقـــال

بالنسبة لكم ، بدرجة اقل بلا ريب . لذلك اقترح ان نمضى قدما بأسرع ما يمكن ، حتى أريكم ما جئتم لرؤيته ! »

وكان لورد جون روكستون قد استأجر يختا بخاريا كبيرا ، يدعى « ايسميرالدا » ، كان مقررا أن تقلنا على النهر وكان الوقت فصل الجفاف ، والنهر الكبير وروافده فى حال عادية ، الى درجة لا بأس بها ، وما كان لاى نهر ان يكون أكثر من هذا ملاءمة للملاحة ، اذ كانت الريح السائدة هى الجنوبية الشرقية ، وكان بوسع القوارب الصاعدة فى النهر الى المنبع ، أن تمضى بمعونتها ثم تهبط ثانية مع التيار

أما فى حالتنا ، فقد احرزنا تقدما سريعا بمعونة محركات ((ايسميرالدا)) البديعة . وظللنا ثلاثة ايام ماضين فى اتجاه شمالى غربى ، فى مجرى كان - حتى فى تلك المنطقة ، على ألف ميل من مصبه - لايزال شاسع العرض ، حتى أن ضفتيه كانتا تبدوان من منتصفه مجرد ظلال عند الافق البعيد . وفى اليوم الرابع من مبارحتنا (ماناوس) ، عرجنا الى رافد ، وبعد أن مخرنا عبابه يومين ، بلغنا قرية هندية . وهناك ، رد الاستاذ اليخت « ايسميرالدا » الى (ماناوس) ، مبينا اننا لن نلبث أن نصادف - عما قريب - شلالات تجعل استعماله مستحيلا .

وكان اليوم الذى ودعنا فيه ((ايسميرالدا)) هو الثانى من أغسطس ، ومرت - منذ ذلك اليوم - اربعة ايام ، استأجرنا خلالها من الهنود قاربين كبيرين ، وخفيفين جدا .. قاربان يستطيعان ان يتغلبا على أية عقبة . وقد حملناهما كل أمتعتنا ، واستأجرنا هنديين آخرين ليساعدا فى تسييرهما . وكانا يسميان ((آتاكا)) ، و ((ايبتو)) ، وقد رافقا الاستاذ تشالينجر فى رحلته السابقة .

وعلى هذا ، فغدا نختفى فى المجهول . وانى لارسل هذا التقرير فى زورق نهرى ، وقد يكون آخر كلماتنا الى أولئك المهتمين بمصيرنا . وقد وجهت خطابى اليك ، ياعزيزى السيد مكاردل - وفقا لتدبيرنا - وتستطيع ان تفعل به ماتشاء . على اننى اعتقد أن مرشدنا سيبين صحة روايته ، واننا موشكون حقا على خوض بعض تجارب غير عادية !

٨ - ((الطلائع الامامية للدنيا الجديدة))

◆ كنا - حين كتبت رسالتى الاخيرة - نهم بمغادرة القرية الهندية التى انزلنا اليخت ((اسميرالدا)) فيها . وفى اليوم التالى مباشرة ، شرعنا فعلا فى بعثتنا الفذة . ووجدنا ان كل مقتنياتنا قد استقرت بسهولة فى القاربين ، وقسمنا أنفسنا ، ستة فى كل قارب ، متخذين الحيطة الواضحة لمصلحتنا وأمننا اذ وضعنا كلا من الاستاذين فى قارب . وكنت أنا شخصيا مع تشالينجر الذى كان فى ابتهاج بالغ ، يروح ويجىء كشخص فى نشوة

صامتة . على أنني كنت قد خبرته ـ بعض الشيء ـ فى حالات أخرى ، ولذلك فسأكون أقل الجميع دهشة اذ ما انقضت الصواعق فجأة ، فى غمرة الشمس المشرقة .

ومضينا فى طريقنا يومين ، فى نهر ذى اتساع لابأس به ، اذ كان عرضه بضع مئات من الياردات ، وكان داكن اللون ، ولكنه كان شفافا ، حتى ليستطيع المرء باستمرار ان يرى القاع . وصادفنا شلالات مرتين ، فكنا ـ فى كل مرة ـ نضطر الى أن نحمل قاربينا وأمتعتنا لحوالى نصف ميل على البر ، لنتحاشاها . وكانت الاشجار على الجانبين عظيمة الارتفاع والسمك . والواقع أن ارتفاعها وسمكها كانا يتجاوزان كل شيء كان بوسعى أن أتصوره فى حياتى التى قضيتها ـ منذ نشأتى ـ فى المدينة . فقدكانت تنطلق فى ارتفاعها كأعمدة ضخمة سامقة ، حتى نتبين بعناء ـ على مسافة هائلة فوق رؤوسنا ـ النقطة التى تتفرع عندها أغصانها الجانبية ، فى أقواس بديعة تتشابك لتؤلف سقفا واحدا عظيما ، منسوجا من ورق الشجر ، لايتخلله سوى شعاع ذهبى من ضوء الشمس ـ بين كل آن وآخر ـ فينطلق الى أسفل فى خط رفيع متألق من النور ، وسط ظلام مهيب . وكانت ترين على نفوسنا ـ ونحن نسير دون ضجيج ، على بساط ناعم من الخضر المتداعية ـ سكينة تجعلنا نخفض نبرات أصواتنا ، حتى لقد هبطت نبرات الاستاذ تشالينجر الهادرة الى همسات !

وكنت خليقا بأن أجهل أسماء هذه الاشجار العملاقة ، لو أننى كنت وحيدا . ولكن زميلينا العالمين كانا يشيران لنا على كل نوع منها ، ويذكران لنا أسماءها . وكان ثمة حشد كبير من النباتات والالوان ، حتى انها كانت اشبه بأرض الاحلام .. كانت كل النباتات فى هذه الغابات الهائلة الشاسعة ، تناضل باستمرار متطاولة الى النور .. حتى أصغرها ! وكانت كل منها تلتف وتدور حول اخواتها المتينة الطويلة ، جاهدة فى أن تصل الى قممها . أما عن الحياة الحيوانية ، فلم نصادف أثرا لها فى سيرنا ، ولكن حركة دائمة فى الاعالى ـ فوق رؤوسنا ـ انبأتنا بوجود ثعابين ، وقردة ، وطيور كانت تعيش فى أشعة الشمس ، وتطل علينا وهى فى عجب من أجسامنا الضئيلة السمراء التى كانت تتحرك فى الاغوار المعتمة الساحقة بالنسبة لها . وكانت القردة العاوية تصرخ معا عند الفجر وعند مغرب الشمس ، أما أثناء ساعات النهار الحارة ، فلم يكن ثمة سوى طنين الحشرات العميق ، ينساب كخفقات الامواج ، فيملأ الاذن ، بينما لم يكن ثمة شيء يتحرك وسط الجذوع الشامخة التى كانت تتلاشى فى الظلام الذى كان يكتنفنا . وأذكر أن مخلوقا ضخما ـ لعله آكل النمل ، أو دب ـ مر فى احدى المرات وسط الظلال ، وكان هو الاشارة الوحيدة للحياة الارضية ، التى رأيتها فى هذه الغابة الامازونية الهائلة

ومع ذلك فقد كانت ثمة دلائل على أن الحياة البشرية ذاتها لم تكن بمنأى عنا . ففى اليوم الثالث ، سمعنا جلبة غريبة فى الجو ، تجىء وتروح فى فترات ، خلال الصباح . وعندما سمعناها اول مرة ، وقف اتباعنا الهنود جامدين ، واصغوا فى انتباه ، وقد تبدت على وجوههم امارات الذعر . فتساءلت : « ترى ما هذا ؟ » . وأجاب اللورد جون بعدم اكتراث : « طبول .. طبول حرب . لقد سمعتها من قبل ! » . وقال جوميز : « اجل ياسيدى، انها طبول حرب ... انهم الهنود المتوحشون ، فهم يراقبوننا فى كل ميل من طريقنا .. وقد يقتلوننا اذا استطاعوا ! »

وما أن حان بعض ظهر ذلك اليوم - وكان الثلاثاء ١٦ من آغسطس ، كما تدل مفكرتى الجيبية - حتى كانت ثمة ست طبول أو سبع ، تدوى من جهات متباينة . وكانت تدق سريعا فى بعض الاحيان ، وبطيئا فى بعض الأحيان .. وأحيانا فى شكل سؤال وجواب واضحين ، ولكنها لاحت جميعا، وكأنها تتشكل بشكل مقاطع كلمات جوميز : « لسوف نقتلكم اذا استطعنا !.. لسوف نقتلكم اذا استطعنا ! » . وظلت الطبول طيلة اليوم تهدر وتهمس ، فتهز أعصابنا ، بينما كان نذيرها ينعكس على وجوه رفاقنا الملونين . على اننى علمت فى ذلك اليوم - علم اليقين - أن الاستاذين قد أوتيا أسمى طراز من الاقدام .. اقدام العقل العلمى . فقد راحا طيلة اليوم - ووسط هذا الوعيد الغامض ، الذى كان يأبى أن يكف - يراقبان كل طائر محلق ، وكل شجيرة على الشاطىء ، دون ان يساورهما الشعور بالخطر بأكثر مما كان يساورهما لو أنهما كانا يجلسان معا فى غرفة التدخين بمنتداهما فى لندن .

وفى ذلك المساء ، أرسينا قاربينا بأحجار ثقيلة - بدلا من المراسى (جمع مرساة ، وهى الهلب) - فى وسط المجرى ، واتخذنا كل استعداد لاى هجوم محتمل . ولكن شيئا ما لم يحدث ، فواصلنا تقدمنا مع الفجر ، وخفت دوى الطبول ونحن نبتعد عنها . وفى حوالى الساعة الثالثة من بعد الظهر ، أقبلنا على شلال شديد الانحدار ، يشغل أكثر من ميل طولا .. وهو عين المكان الذى تعرض فيه تشالينجر للنكبة التى أفقدته كل شىء كان يثبت أقواله . واعترف أن مرآه بعث فى نفسى تسرية ، فقد كان أول دليل مباشر - رغم ضآلته - على صدق قصة الاستاذ .

ونقل الهنود قاربنا أولا ، ثم أمتعتنا ، خلال الغابة ، بينما سرنا - نحن الاربعة البيض - بينهم وبين أى خطر يأتى من ناحية الغابة ، وبنادقنا فوق أكتافنا . وقبل أن يهبط الليل : كنا قد اجتزنا الشلالات بنجاح ، وقطعنا حوالى عشرة أميال بعدها ، حيث رسونا فى تلك الليلة . وعند هذه النقطة ، قدرت أننا قد اجتزنا مالايقل عن مائة ميل فى الرافد ، بعيدا عن

النهر الأصلي . وفى ضحى اليوم التالى ، قمنا بالسفر الكبير . وكان الاستاذ تشالينجر شديد القلق منذ الفجر ، لايفتأ يفحص كل ضفة من ضفتى النهر . وفجأة ، ارسل صيحة رضى ، واشار الى شجرة منعزلة ، قامت بميل عجيب ، على احد جانبي النهر . وتساءل : « ماذا ترون فى هذه ؟ » .

فقال سمرلى : « انها من نخيل (اساى) بالتأكيد »

ـ تماما .. كانت نخلة من نوع (اساى) ، اتخذتها كعلامة لطريقى . فالفتحة السرية توجد على نصف ميل الى الامام ، على الجانب الاخر للنهر . وليس بين الاشجار أية ثغرة ، وهذا هو الامر الغامض العجيب .. هناك ، حيث ترون عيدان الغاب الخفيفة الخضرة ، بدلا من الشجيرات الصغيرة الداكنة الخضرة .. هناك بابى الخاص الى العالم المجهول . فأمضوا قدما ، وسوف تدركون !

ومضينا قدما ، فرأينا ـ على غير ارتقاب ـ اعجب جنة يمكن لخيال الانسان أن يتصورها . كانت النباتات الكثيفة تلتقى عاليا ، فتكون نفقا من الاوراق الخضراء .. والنهر صاف ، شفاف (بلورى) ، ساكن ، كصفحة من زجاج ، وقد امتد أمامنا تحت هذا القبو المؤلف من ورق الشجر ، بينما كانت كل حركة من مجاديفنا ترسل الفا من التموجات ، عبر سطحه اللامع . كان طريقا يليق بأرض العجائب . وكان كل أثر للهنود قد تلاشى ، ولكن الحياة الحيوانية ازدادت ، وقد أظهرت وداعة المخلوقات انها لم تكن تعرف شيئا عن الصياد . وكانت مظاهر حياة الطيور وافرة ، كما كان الماء الشفاف ـ تحتنا ـ زاخرا بالسمك ، من كل شكل ولون .

ومضينا فى هذا النفق ـ الذى اصطبغت اشعة الشمس فيه بالخضرة ـ ثلاثة أيام ، ولم يكن يعكر السكينة العميقة ، فى هذا الممر المائى العميق ، أى أثر لانسان . فقال جوميز : « لاهنود هنا ، فهم شديدو الخوف من الكوروبورى » . وأوضح اللورد جون ، قائلا : « الكوروبورى ، هى روح الغابات . انها اسم لاى نوع من الجن . فان هؤلاء التعساء المساكين يظنون ان ثمة شيئا رهيبا فى هذا الاتجاه ، ومن ثم فهم يتجنبونه ! »

وفى اليوم الثالث ، اتضح لنا أن رحيلنا فى القاربين لن يستمر طويلا ، لأن المجرى كان يزداد ضحلا بسرعة . وأخيرا ، جنحنا بالقاربين ، وقضينا الليل على ضفة النهر . وفى الصباح ، فحصنا المكان بعناية ، فاتضح لنا اننا بلغنا أبعد نقطة يمكن دفع القاربين اليها . فجذبنا القاربين الى البر ، وخبأناهما بين الادغال ، وجرحنا بفؤوسنا شجرة ، لنستطيع أن نهتدى بها الى مكانهما . ثم اقتسمنا الاحمال العديدة ، فيما بيننا .. من بنادق ، وطعام ، وخيمة ، وأغطية وغيرها .. ورفعنا أحمالنا على أكتافنا ، ومضينا فى الشطر الاكثر اضناء ، من الرحلة .. وسرعان ماوجدنا ـ ونحن نتقدم واحدا خلف الآخر ، فى صف واحد ، على ضفة النهر ـ ان هذا أخذ يضيق

حتى صار مجرد جدول ، ثم تبدد فى بركة كبيرة ، أحالت الطحالب لونها الى الخضرة ، وقد غصنا فيها الى ركبنا . وكان المكان مليئا بالبعوض ، وبكل نوع من الحشرات الطائرة ، ومن ثم فقد سررنا حين اهتدينا ثانية الى أرض صلبة ، وحين قمنا بلفة كبيرة لنمضى حول هذه البركة .

وفى ثانى يوم بعد مغادرتنا قاربينا ، ألفينا كل معالم المنطقة قد تغيرت ، اذ كان طريقنا يصعد ببطء الى أعلى ، وأخذت الغابات تخف ـ كلما صعدنا ـ وتفقد مظهرها الاستوائى . وكنا نعتمد كل الاعتماد ـ فى سيرنا ـ على البوصلة ، وقد ثارت خلافات فى الرأى بين تشالينجر والهنديين ، مرة أو اثنتين « فأخذنا برأى الاخيرين ، مما جعل تشالينجر فى غضب شديد ، على أنه ظهر ما برر مسلكنا فى اليوم الثالث ، حين أقر تشالينجر بانه تعرف على عدد من معالم طريق رحلته السابقة . وقد صادفنا فعلا ـ فى احدى البقاع ـ أربعة أحجار سودتها النـــار ، وكانت تنم ـ ولابد ـ عن موقـــع معسكر .

وفى تاسع يوم ـ منذ مبارحتنا القاربين ـ بدأنا نبرز خارج نطاق الاشجار ، التى ظلت تتضاءل حتى أصبحت مجرد شجيرات . وكنا قد قطعنا ـ على ما اعتقد ـ حوالى مائة وعشرين ميلا . وحلت محل الاشجار مساحة شاسعة من أشجار الغاب (البوص) ، اشتد تكاثفها حتى لم نعد نستطيع أن نمر خلالها ، الا اذا شققنا لانفسنا طريقا بالسكاكين وكلابات الهنود . واستغرق التغلب على هذه العقبة يوما طويلا ، مضينا فيه منذ الساعة السابعة صباحا ، حتى الساعة الثامنة مساء ، دون أن نستريح أكثر من مرتين ، كل منهما ساعة . وفى اللحظة التى هبط فيها الليل ، كنا قد اجتثثنا حزاما من الغاب ، فأقمنا معسكرنا فى الحال ، وقد أنهكنا اليوم الطويل المليء بالتعب .

وفى بكور اليوم التالى ، كنا على اقدامنا مرة اخرى ، فوجدنا أن طبيعة المنطقة قد تغيرت ثانية . وقام الغاب خلفنا كجدار واضـح ، وكأنه يدل على مجرى النهر .. أما أمامنا ، فكان ثمة سهل مكشوف ، يميل قليلا الى أعلى . وكان النهار قد انتصف ، حين بلغنا اعلى نقطة فيه ، فاذا بنا نجد خلفها واديا غير عميق ، يفضى ـ هو الاخر ـ الى بقعة ترقى الى تل آخر .. وهنا وقع ـ بعد أن عبرنا أول التلال ـ حادث كان من المحتمل أن يكون ذا أهمية ، أو لايكون . فقد وقف الاستاذ تشالينجر فجأة ـ وكان فى مؤخرة الفريق مع الهنديين ـ وأشار بانفعال الى اليمين . وفيما كان يفعل ذلك ، رأينا ـ على بعد ميل أو حوالى ذلك ـ شيئا ظهر أنه كان طائرا أشهب هائلا ، أخذ يرتفع رويدا عن الارض ، ثم انساب بسرعة ، محلقا على بعد جد منخفض ، وفى خط مستقيم ، حتى غاب وسط الاشجار .

وصاح تشالينجر فى فرح عظيم : « هل رأيته ياسمرلى ؟.. هـــل رأيته ؟ » . وكان زميله يحملق فى البقعة التى اختفى عندها الطائر ،

فتساءل : ((ماذا تراك قائلا عنـه ؟)) . فأجاب تشالينجر ((انه خـير دليل على اعتقادى .. انه بيتروداكتايل !)) . فانفجر سمرلى ضاحكا فى سخرية ، وقال : ((بل انه كان بجعة .. اذا كنت قد رأيت يوما بجعة !)) . وبلغ من غضب تشالينجر انه لم يحر كلاما ، بل اكتفى بأن طوح بحمله على ظهره ، وواصل سيره . على أن اللورد جون اقترب منى ، وقد تجهم وجهه أكثر عما اعتاد . وكان فى يده منظار مقرب من طراز « زايس » . وقال : ((لقد ضبطت مجال الرؤية على الطائر قبل أن يبلغ الاشجار ، وليس بوسعى أن أقول أى شىء كان هذا الطائر ، ولكنى أستطيع أن أقامر بسمعتى كصياد ، على أنه لم يكن من أى نوع من الطيور وقعت عليه عيناى يوما)) .

وبقيت المسألة عند هذا الحد . أفكنا حقا على حافة المجهول ، وهانحن نلتقى بحراس هذا العالم المفقود الذى يتحدث عنه قائدنا ؟.. اننى أسرد الحادث كما جرى ، ولسوف تعرفون قدر ما عرفت أنا .. ولقد ظل هـذا الحادث وحيدا من نوعه ، اذ أننا لم نبصر بعده شيئا يمكن أن يوصف بأنه فذ !

والآن ياقرائى ، ها قد أصبحت غايتنا على مرمى البصر منا ، أخيرا . وعندما اجتزنا التل الثانى رأينا أمامنا سهلا غير منتظم ، تناثرت فيه النخيل هنا وهناك . ثم صف المرتفعات الصخرية الحمراء العالية ، التى قد رأيتها فى الصورة . فهاهى ذى قائمة — وانا أكتب هذه السطور — ولا مراء فى أنها هى عينها . ان أقرب نقاطها على حوالى سبعة أميال من معسكرنا الحالى ، وهى تنثنى متباعدة ، ممتدة الى أقصى ما أستطيع الابصار .. وأن تشالينجر ليسير مختالا كطاووس لا مثيل له ، فى حين ان ((سمرلى)) صامت ، لايزال ممتلئا بالشك . ولن يلبث يوم آخر أن يقضى على بعض شكوكنا .

وفى هذه الاثناء ، أصر ((جوزيه)) — الذى اخترق ذراعه عود مكسور من الغاب — على العودة ، وانى لارسل هذا الخطاب معه ، ولست أملك سوى أن آمل أن يصل فى النهاية . ولسوف أكتب ثانية ،كلما سنحت الفرصة وارفق بهذا خريطة تقريبية لرحلتنا ، قد تكون ذات أثر فى تيسـير فهم الحديث .. (نشرت الخريطة فى الحلقة الاولى) .

٩ — ((من كان يتكهن بذلك ؟ !))

• **ذكرت** — حين اختتمت خطابى الاخير — أننا كنا على حوالى سبعة أميال من المرتفعات الصخرية الحمراء الهائلة ، التى كانت تمتد — بلا شك — حول الهضـبة التى تكلم عنها الاستاذ تشالينجر . وبدا لى ارتفاع هـذه التلال — ونحن

تدنو منها - أكثر مما ذكر الاستاذ ، فى بعض بقاعها . فقد كانت تسمو فى أجزاء منها الى ألف قدم ، على الاقل . ولاحت القمة زاخرة بالاشجار والادغال ، ولكن لم يلح لابصارنا أى دليل على أى كائن حى .

وأعددنا معسكرنا - فى تلك الليلة - تحت المرتفعات الصخرية مباشرة . وكان مكانا قفرا شديد البداوة . ولم تكن جوانب التل - التى قامت فوقنا - مستقيمة ، وانما كانت تنحنى عند القمة الى الخارج ، ومن ثم فقد كان تسلقها أمرا بعيدا عن العقل . وعلى مقربة منا ، كانت الصخرة العالية ، الرفيعة ، التى اتخذت شكل الهرم ، والتى اعتقد أننى ذكرتها فى جزء سابق من قصتى . وكانت قمتها فى مستوى الهضبة ، ولكنها كانت منفصلة عنها بهوة رهيبة . وعلى قمتها ، نمت شجرة واحدة ، عالية .

وقال الاستاذ تشالينجر : « على تلك الشجرة كان البيترو داكتايل واقفا . ولقد تسلقت الى منتصف الطريق الى القمة ، قبل أن أطلق عليه النار . وأظن أن بوسع امرىء بارع فى تسلق الجبال مثلى ، أن يتسلق الصخرة الى القمة ، ولكنه لن يجد نفسه - اذا فعل - أكثر قربا من الهضبة ، مما هو هنا ! »

وجلسنا فى الصباح - بعد فطور خفيف - نبحث خير وسيلة للصعود الى الهضبة التى كانت تعلونا . فقال قائدنا : « لست بحاجة الى أن أقول أننى فى زيارتى الاخيرة جربت كل وسيلة لتسلق المرتفع الصخرى ، وما أظن بوسع أحد غيرى أن يفلح فيما أخفقت فيه ، لاننى أعتبر ماهرا فى تسلق الجبال . ولم يكن معى شىء من الادوات اللازمة لتسلق الصخور ، ولكننى اتخذت الحيطة فأحضرتها فى هذه المرة . وأنا متأكد من أن بوسعى - بمساعدتها - أن أتسلق الصخرة الهرمية الى القمة ، ولكن لا جدوى من محاولة تسلقها ، طالما كان التل

الصخرى الرئيسي أعلى منها ، ومنفصلا عنها . لقد اضطررت فى زيارتى الاخيرة الى التعجل ، نظرا لاقتراب الموسم المطير ، ولضآلة مؤنى . ولم أفحص سوى ستة أميال من المرتفع الصخرى ـ الى الشرق من موقعنا هذا ـ ولكننى لم أعثر على أى طريق محتمل للصعود . فما الذى نفعله الآن ؟ »

فقال الاستاذ سمرلى : « لا يبدو ثمة سوى نهج معقول واحد . اذا كنت قد ارتدت الشرق ، فعلينا أن نمضى أسفل التل الصخرى نحو الغرب ، ثم نبحث عن طريق سهلة لتسلقه » . فقال اللورد جون : « هذا هو الرأى . فأنا أظن أن هذه الهضبة ليست كبيرة الحجم ، وسنطوف بها حتى نعثر على مسلك سهل لتسلقها ، أو نعود الى النقطة التى بدأنا منها ! »

وقال الاستاذ تشالينجر : « لقد شرحت لصاحبنا الصغير هذا (**وكانت له لهجة فى الحديث عنى ، وكأننى تلميذ فى العاشرة**) أن من المستحيل تماما أن يكون ثمة مسلك سهل الى أعلى ، فى أى مكان هنا ، لسبب بسيط هو : اذا كان ثمة مسلك سهل ، لما بقيت قمة الهضبة فى معزل عن بقية العالم ، ولما وجدت تلك الظروف التى يسرت هذا التحول عن قوانين الطبيعة ! .. ومع ذلك فاننى أقر بأن من الممكن أن تكون ثمة أماكن مواتية جدا ، قد يستطيع الخبير بالتسلق أن يصل منها الى القمة ، ولكن تعجز الحيوانات الثقيلة عن النزول منها الى الارض .. على أنه من المحقق أن ثمة بقعة يمكن الصعود منها ! » . فتساءل سمرلى بحدة : « وكيف تعرف هذا يا سيدى ؟ »

ـ لان الرجل الذى زار هذا المكان قبلى ، وهو الامريكى « ميبل هوايت » ، قد تمكن من الصعود فعلا . والا فكيف قدر له أن يرى الوحش الذى رسمه فى مفكرته ؟

وقال سمرلى: « انك تدلى بسبب لم يقم الدليل عليه بعد .

اننى أقر بوجود هضبتك ، لاننى رأيتها ، ولكنى لم أقتنع بعد بأنها تضم أى شكل من أشكال الحياة ! »

ـ ان ما تقره أو ما لا تقره ليس ذا قيمة لدى يا سيدى . على أننى مسرور اذ أرى أن الهضبة قد وجدت ـ أخيرا ـ طريقا الى ذكائك !

وتطلع اليها ، ثم قفز فجأة عن الصخرة التى كان يجلس عليها ـ لدهشتنا ـ وأدار وجه سمرلى الى أعلى ، ممسكا بعنقه ، وصاح : « الآن يا سيدى ، أتراني أساعدك على أن تتبين أن الهضبة تضم بعض ألوان الحياة الحيوانية ؟ »

وكان يبرز ـ عند حافة المرتفع الصخرى ـ جسم أسود لامع . واذ تجلى رويدا ، رأينا أنه كان أفعى هائلة جدا ، ذات رأس مسطح عجيب . وحركت رأسها يمينا وشمالا فوقنا ، لمدة دقيقة ، وشمس الصباح تلمع على جلدها الناعم . ثم انسحبت ببطء الى الداخل ، واختفت ! .. فقال سمرلى وقد تمالك نفسه : « اننى خليق بأن أسر ـ يا أستاذ تشالينجر ـ اذا أنت أبديت ملاحظاتك ، دون أن تمسك بخناقى .. حتى ظهور أفعى عادية من أفاعى الصخور ، لا يبرر تصرفك ! » . فأجابه الآخر مظفرا : **«ولكن هناك حياة على الهضبة ، مع ذلك .. أما الآن ، وقد أريتك هذه النتيجة الهامة ، حتى تكون واضحة لاى امرىء ، فان من رأيى أننا لا نستطيع أن نفعل خيرا من أن نفض معسكرنا ، ونرحل فى اتجاه الغرب ، حتى نعثر على طريق نتسلق خلاله الى القمة ! »**

وكانت الارض ـ عند أسفل المرتفع ـ صخرية ، وعرة ، فكان السير خلالها بطيئا ، صعبا . على أننا لم نلبث أن وصلنا فجأة ، الى شىء جعل قلوبنا تقفز طربا .. ذلك كان موقع معسكر قديم ، تناثرت فيه كثير من علب اللحم المحفوظ المعبأة فى (شيكاغو) ، وزجاجة ، وأداة مكسورة مما يستخدم فى فتح العلب ، وكمية من فضلات رحالة آخر ، بينها صحيفة

يومية ممزقة . فقال تشالينجر : « ليس هذا معسكرى .. لا بد أنه معسكر ميبل هوايت »

وكان اللورد جون يحملق فى شجرة ضخمة ، بالقرب من المعسكر ، فقال : **« ألا أنظروا الى هــذه .. أعتقد أنها كانت بمثابة علامة للطريق ! »** . اذ كانت ثمة قطعة من الخشب المتين ، قد سمرت الى الشجرة ، بحيث تشير نحو الغرب . فقال تشالينجر : « انها علامة للطريق بكل تأكيد ، والا فماذا تكون ؟ .. لقد خلف هذه العلامة ـ اذ وجد نفسه مقبلا على مهمة خطيرة ـ حتى يتسنى لاية جماعة تتبعه أن تعرف الطريق الذى سلكه . ومن المحتمل ان نرى مزيدا من العلامات كلما مضينا فى سيرنا »

وهذا ما رأيناه بالفعل ، ولكنها كانت علامات ملأتنا ذعرا . فقد كان ينمو تحت المرتفع الصخرى مباشرة ، عدد كبير من اشجار الغاب ، يبلغ كثير منها عشرين قدما ارتفاعا ، ولها قمم حادة متينة .. وكنا نمر بطولها ، حين وقعت عيناى على شىء ابيض بينهـا ! . **واذ دسست رأسى بين السيقان ، وجدتنى أحملق فى جمجمة مجردة من اللحم !** وكانت بقية عظام الجثة ، موجودة ولكن الجمجمة كانت أقرب منها الى الخارج ببعض قدم .. وفحصنا المكان بعناية تامة ، فألفينا بضع قطع من الثيـاب ، وبقايا حذاءين على عظام قدمين !

كان من الواضح ان الميت رجل أوربى .. وبين العظام كانت ثمة ساعة ذهبية من صنع صانع للساعات شهير بنيويورك ، وسلسلة كانت تتصل بقلم حبر . كذلك كانت ثمـة حافظة فضية للسجاير ، على غطائها الحرفان « ج . ك » . فتسـاءل اللورد جون : « ترى من يكون ؟ .. يا للشقى المسكين ، ان كل عظمة فى جسده تبدو مهشمة ! » . فقال الاستاذ تشالينجر : « أما عمن يكون هذا الرجل ، فليس لدى شك ما ، بهـذا الصدد . فان « ج . ك . » يرمزان الى « جيمس كلوفر » ،

وهو صديق لميبل هوايت ، رافقه حين ذهب لزيارة قس فى (روزاريو) ، وقد حصلت على هذا النبأ من القس نفسه » .

فقال اللورد جون : « وكذلك ليس ثمة كثير شك فى الطريقة التى لقى بها منيته . فلقد هوى من قمة المرتفع ، وعلق بأشجار البوص التى واصلت نموها خلال جثته »

وعندما تبينا صدق كلمات اللورد جون ، دهمنا صمت شامل . لم يكن ثمة شك فى أنه سقط من عل . ولكن .. **هل سقط؟ هل كان ذلك عفواً أو قضاء وقدرا ؟ .. او ان شيئا دفعه او قسره على ان يقفز من عل ؟** .. وبدأت تطوف بعقولنا أفكار رهيبة عن هذه البلاد المجهولة !

وابتعدنا فى صمت ، فواصلنا طريقنا حول صف المرتفعات الصخرية ، التى لم تكن تتخللها فجوة ، والتى كانت ترتفع شامخة فوقنا .. ولم نر أية ثغرة البتة خلال خمسة أميال ، ثم رأينا ــ فجأة ــ ما ملأنا بأمل جديد . **ففى تجويف فى الصخر ــ فى وقاء من المطر ــ كا نثمة سهم غير منتظم بالطباشير ، يشير الى الغرب كذلك** . فقال الاستاذ تشالينجر « ميبل هوايت مرة أخرى .. وكأنه كان يعلم أن خطوات ذات قيمة ستقفو اثره ! » .

ــ اذن فقد كان لديه طباشير ؟

ــ كان بين المخلفات التى وجدتها فى حقيبته صندوق من أقلام الطباشير الملونة . وأتذكر أن البيضاء منها كانت قد استنفدت !

فقال سمرلى : « هذه قرينة طيبة بالتأكيد ، ولسنا نملك سوى أن نرتضى ارشاده ، وأن نتبعه ماضين نحو الغرب » .

وسرنا خمسة أميال أو أكثر ، ثم رأينا سهما آخر يشير الى شق فى التل الصخرى . وفى داخل الشق ، رأينا علامة ثانية تشير الى أعلى ، وكأن البقعة التى أشارت اليها كانت فوق مستوى الارض . ولم نكن قد تناولنا طعاما ما منذ ساعات عديدة ،

كما كنا متعبين جدا ، فى الواقع . ولكننا قررنا أن لا نقف . فأمرنا باعداد المعسكر ، ثم واصلنا ـ نحن الاربعة مع التابعين الهجين (ذوى الدماء الخليط) ـ تسلق الصخر ، على طول الشق . ولم يكن عرضه يتجاوز أربعين قدما عند بدايته . ولكنه أخذ يضيق بسرعة ، حتى انتهى فى زاوية كان من العسير جدا تسلقها . ثم ، **وقعت عينا اللورد جون ـ السريعتا الملاحظة ـ فجأة ، على ما كنا ننشد .. على فتحة كهف ! .. وكانت عالية فوق رؤوسنا ، متوارية فى الظلال القاتمة . وتسلقنا اليها ، وهناك وجدنا ـ مرة أخرى ـ العلامة المرشدة ، فى شكل سهم** . وكان من الجلى أن الكهف هو الوسيلة التى حقق بها ميبل هوايت وزميله المنكود صعودهما الى الهضبة !

وكنا أشد انفعالا من أن نعود الى المعسكر . وكان مع اللورد جون مصباح كهربائى ، فى الكيس الذى كان يحمله ، فقدر له أن يستخدم كمصدر للضوء . فتقدم اللورد حاملا المصباح ، وتبعناه فى صف . وكانت جوانب الكهف ملساء ، والارض مكسوة بأحجار مستديرة . وكانت تمتد مستقيمة ـ فى جوف الصخر ـ لخمسين ياردة ، ثم تصعد بزاوية قدرها خمس وأربعون درجة ، فكان علينا أن نتسلق حبوا على أيدينا وركبنا . **وفجأة ، انطلقت من اللورد جون صيحة تعجب ، وقال : « انه مسدود ! .. لقد سقط سقفه ! »**

وكان من الواضح أن الاحجار التى وقعت وسدت الممر ، لا سبيل الى زحزحتها .. كان الطريق الذى بلغ ميبل هوايت القمة خلاله ، مسدودا ! .. واتخذنا طريقنا هابطين فى الممر المعتم ، ونحن أشد حزنا من أن نتكلم . وكنا قد غادرنا الكهف ، واجتمعنا فى ثلة صغيرة عند أسفل الشق ، **حين انحدرت ـ فجأة ـ صخرة هائلة ، فتدحرجت مارة بالمكان الذى كنا فيه ، بقوة كبيرة . ولم يكن ثمة شك يذكر فى أن الصخرة كانت موجهة الينا !** ومن ثم استنتجنا أن الهضبة كانت مأهولة ،

وأن أهلها على أستعداد لان يقفوا ضدنا ، وأن يحاولوا صدنا عن الوصول الى موطنهم . فتراجعنا مسرعين عن الشق ، وذهبنا الى معسكرنا .

واذ بحثنا الموقف ، صممنا على أن خير نهج لنا هو أن نواصل رحلتنا حول الهضبة ، على أمل العثور على وسيلة أخرى لبلوغ القمة . وتغير اتجاه صف المرتفعات من الغرب الى الشمال ، فاذا أخذنا هذا على أنه يمثل قطاعا من الدائرة ، لما كانت الرحلة حولها جد طويلة .. وكان حريا بنا أن نرتد الى النقطة التى ابتدأنا منها، بعد بضعة أيام ، على أسوأ الامور . وسرنا ـ فى ذلك اليوم ـ حوالى أثنين وعشرين ميلا ، دون ما توفيق . على أن تجربة كبيرة كانت فى انتظارنا ، فى الليل . وقد أخمدت كل شك كان من المحتمل أن يساورنا ، بصدد العجائب التى كانت على مقربة منا .

وهذا ما جرى : كان اللورد جون قد اصطاد خنزيرا وحشيا . واذ أعطى نصفه للهنود ، أخذنا ننضج النصف الآخر على نارنا . وكان الليل باردا ، فجلسنا جميعا على مقربة من اللهب . ولم يكن ثمة قمر مشرق ، ولكن كانت هناك بعض نجوم ، وكان بوسع المرء أن يبصر الى مسافة بسيطة خلال السهل . ثم .. فجأة ، ومن الظلام ـ من جوف الليل ـ انقض علينا طائر كبير جدا ، كأنه طائرة . **وخيم علينا جميعا ـ لوهلة ـ جناحان جلديان ، ولمحت للحظة عنقا طويلا كأنه ثعبان ، وعينين ضاريتين ، حمراوين ، نهمتين ، ومنقارا ضخما مليئا ـ لدهشتى ـ بأسنان صغيرة براقة ! .. وفى اللحظة التالية ، كان قد مضى .. ومضى معه عشاؤنا ! ..** وحلق فى الهواء شبح أسود هائل ، عرضه عشرون قدما ، فحجب جناحاه العظيمان النجوم وهلة ، ثم اختفى الطائر ميمما شطر قمة الهضبة .. وكان من طيور **((البتيروداكتايل)) !**

وجلسنا جميعا صامتين ـ حول النار ـ لحظة ، ثم قال

سمرلى بصوت مهيب ، عبر عن كل مشاعره : « اننى مدين لك باعتذار يا أستاذ تشالينجر .. اننى جد مخطىء يا سيدى، والتمس أن تنسى ما مضى ! » . ولقد أحسن القول ، حتى أن الرجلين تصافحا للمرة الاولى ، وكان خير تعويض عن العشاء المسروق ، أن يتقارب رجلان مثلهما .

ولكن ، اذ كان ثمة أحياء — من كائنات ما قبل التاريخ — فوق الهضبة ، فانها لم تكن عديدة ، لاننا لم نلمحها ابان الايام الثلاثة التالية . وكانت التلال الصـــخرية قد فقدت لونها الاحمر فى جانبها القصى ، فأصبحت ذات لون بنى محروق (كالشيكولاتة) ، وهبط ارتفاعها الى ثلاثمائة أو أربعمائة قدم . ولكنا لم نجد — فى أى مكان منها — بقعة يمكن تسلقها منها .. بل أن تسلقها أصبح أشد اسـتحالة مما كان فى أول نقطة صادفناها عندها . **وقلت ونحن نبحث الموقف : « من المؤكد انه لا بد للامطار من أن تشق طريقها هابطة بطريقة ما . فمن المحتم وجود مجار مائية فى الصخور » . فقال تشالينجر : « لما كنا قد رأينا بأنفسنا أن ليس ثمة مجار مائية على السطح ، فاننى أفترض أن ماء الامطار يجرى فى الداخل ولا بد ! »**

— اذن فهناك بحيرة فى وسط جوف الهضبة

— هكذا أرانى مضطرا الى الافتراض

فقال سمرلى : « من المحتمل كل الاحتمال ، أن تكون البحيرة فوهة بركان قديم ، فان تكوين الهضبة كلها بركانى الى درجة كبيرة . وجدير بى أن أتوقع أن أجد سطح الهضــبة — من الداخل — منحدرا ، وفى وسطه مساحة مائية كبيرة . وقد يستنزف الماء نهر ما يجرى تحت الارض ! »

وفى اليوم السادس ، أتممنا رحلتنا حول الهضبة ، وألفينا أنفسنا عند معسكرنا الاول ، بجانب الصخرة الرفيعة العالية ، المصوغة على شكل هرم . وكان من المؤكد — تأكدا مطلقا — أنه لم تكن ثمة بقعة يستطيع عندها أبرع مخلوق آدمي أن

يأمل فى ارتقاء الهضبة . فماذا كان علينا أن نفعل ، اذن ؟ ..
كان موقفنا ميئوسا منه ، فلا عجب أن راح كل منا ينظر الى الآخر باكتئاب ، فى تلك الليلة ، دون ما كلمة تجرى بيننا ، تقريبا ! .. **واذكر اننى حين تهيأت للنعاس ، تركت تشالينجر جالسا بجانب النار ، ورأسه الضخم بين راحتيه ، وقد استغرق فى أعمق تفكير ، حتى أنه لم يرد تحية المساء التى ألقيتها عليه ..**
ولكن تشالينجر – الذى حيانا فى الصباح – كان رجلا على النقيض تماما من ذلك .. كان رجلا باسما ، مغتبطا فى قرارة نفسه !

وقال : « أيها السادة ، لكم أن تهنئونى ، ولنا أن يهنىء كل منا الآخر . فقد حلت المعضلة ! »

– هل وجدت طريقا للصعود ؟

– أظن ذلك **– وأين ؟**

وكان جوابه أن أشار نحو الصخرة الهرمية الشكل ، التى كانت الى يميننا . فنظرنا الى الصخرة ، وسرعان ما تبدد الفرح الذى شعرنا به . كان امكان تسلقها أمرا أكده زميلنا ، بيد أنه كانت ثمة هوة رهيبة بينها وبين الهضبة . فقلت : « لن نستطيع قط أن نعبرها ! » . فقال : « نستطيع أن نصل الى القمة ، على الاقل . فاذا ما صرنا فوقها ، فقد أستطيع أن أريكم أن فى وسع العقل المبتكر أن يجد حلا ، رغم كل شىء »

وبعد الافطار ، فضضنا الحزمة التى أحضر فيها قائدنا أدوات التسلق . فأخذنا منها ما كنا بحاجة اليه من حبال ، وعصى حديدية ، وفؤوس صغيرة ، وأشياء أخرى لا غنى عنها . ولم تكن المهمة شاقة فى الواقع ، وان تخللتها لحظات كان شعرى ينتصب ابانها فوق رأسى . وكان النصف الاول سهلا تماما ، ولكن السفح أخذ يشتد ميلا باستمرار – من هناك – حتى اضطررنا فى الخمسين قدما الاخيرة ، الى أن نستخدم أصابع أيدينا وأقدامنا كي نصل الى القمة . **وما كان**

من المحتمل أن أبلغها أنا – ولا سمرلى – لو لم يكن تشالينجر قد بلغ الذروة ، فثبت الحبل حول جذع الشجرة الكبيرة القائمة هناك . وبفضل الحبل تمكنا من الوصول الى العرصة المعشوشبة الصغيرة ، التى كان طول كل ضلع من ضلوعها حوالى خمس وعشرين قدما ، والتى كانت تكون القمة !

ومن هناك ، أتيح لنا منظر غير عادى للبلاد التى اجتزناها ، فكأنما كان السهل البرازيلى بأسره يستلقى تحت أقدامنا . وكنت لا أزال مستغرقا فى الاعجاب بهذا المنظر الرائع ، عندما انحطت يد الاستاذ الثقيلة على كتفى . وقال : « **انظر فى هذه الناحية يا صديقى الشاب .. أبدا لا تنظر الى الخلف ، وانما أنظر دائما الى الامام ، نحو هدفنا الجليل!** » . وعندما تحولت الى حيث أشار ، كان مستوى الهضبة يوازى تماما المستوى الذى كنا نقف عليه ، ولكن اتساع الهوة كان حوالى أربعين قدما ، على ما رأيت .. وكان من المحتمل أن تكون أربعين ميلا ! .. وطوقت جذع الشجرة باحدى ذراعى ، وأطللت على الهوة . وعلى بعد شاسع تحتنا ، استطعت أن أرى أجسام خدمنا السوداء الضئيلة ، وهم يتطلعون الينا .

وتساءل سمرلى : « والآن ، ما الذى يقترحه العقل المبتكر ، كوسيلة لبلوغ الهضبة ؟ » . فقال تشالينجر مشيرا الى الشجرة : « **أيها السادة .. هذه هى وسيلتكم الى الهضبة !** » .

فصاح اللورد جون : « وحق القديس جورج ! .. معبرة ؟ ! »

– تماما يا صديقى ، جسر ! .. ما قضيت ساعة فى التفكير ليلة أمس – هباء ! .. لا بد من ايجاد معبرة يمكن طرحها عبر الهوة . فهاك هى !

يقينا انها كانت فكرة براقة ! .. كانت الشجرة تبلغ ستين قدما – على الاقل – ارتفاعا ، ولو أنها سقطت فى الوضع الصحيح ، لامتدت عبر الهوة بسهولة . وناولنى تشالينجر فأسا كان يحملها على كتفه ، وقال : « ان لدى صديقنا الشاب

القوة والعضلات الكافية لاداء المهمـة . على أنه لا بد لى من أن أرجو أن تتكرم فتكف عن التفكير وفقا لهواك ، وأن تفعل ما يطلب منك بدقة ! »

وتحت ارشاده ، رحت أقطع جوانب الشـجرة بطريقة تجعلها تقع كما كنا نبتغى . وبعد أكثر من ساعة بقليل ، انبعث عاليا صوت انفلاق ، وهوت الشجرة ، فدفنت أغصانها بين الاشجار التى على الجانب القصى . **وتدحرج الجذع الى آخر حافة العرصـة التى كنا نقف عليها ، حتى لقد خلنا جميعا ـ لثانية رهيبة ـ أنه قد أفلت . ولكنه توازن على بضع بوصات من الحافة .. وحصلنا على جسرنا الى العالم المجهول !**

وصافحنا جميعا ـ دون ما كلمة ـ الاستاذ تشالينجر ، الذى رفع قبعته المصنوعة من الخوص ، وانحنى لكل منا بدوره . وقال : « اننى أطالب بشرف أن أكون الاول فى العبور الى الارض المجهولة » . ودنا من الجسر ، واذا باللورد جون يضع يده على سترته ، قائلا : « لا يسعنى أن أسمح بذلك ، يا زميلى العزيز ! » . فارتدت رأس الاستاذ الى الخلف ، واندفعت لحيته الى الامام ، وهو يصيح : « لا يسعك أن تسمح بذلك يا سيدى ؟ ! » . فقال اللورد جون وهو ينظر عبر الجسر : « أجل يا سيدى ! .. فبقدر ما أعلم ، قد تكون ثمة عشيرة من أكلة البشر بين تلك الاشجار ، ترتقب موعد الغداء .. ويحسن أن تتعلم الحكمة ، قبل أن تلج القدر التى تطهى فيها ! .. ومن ثم ، فسنطمئن أنفسنا بالامل فى أن لا تكون ثمة متاعب فى ارتقابنا على الهضبة ، ولكنا ـ فى الوقت ذاته ـ سنتصرف كما لو كانت هناك متاعب . **سيهبط مالون واياى ثانية ، فنحضر أربعة بنادق ، كما نحضر « جوميز » وزميله . ويستطيع رجل منا ـ بعدذلك ـ أن يعبر الهوة ، بينما يحميه الآخرون ببنادقهم ، الى أن يرى أن من المأمون لنا أن نتبعه ! »**

وفى خلال ساعة ، كانت البنادق وبعض المؤن قد اجتلبت ،

كما صعد الرجلان الهجينان . فقال اللورد جون ، عندما اكتمل كل استعداد : « انطلق الآن يا تشالينجر ، اذا كنت تصر حقا على أن تكون أول انسان يلج تلك الارض! » . وانطلق تشالينجر على الجذع ، وقد جلس عليه مدليا ساقيه على الجانبين ، فوق الهوة ، وفأسه عى ظهره .. وسرعان ما كان على الجانب الآخر . فوقف ، ولوح بذراعيه فى الهواء ، وصاح : « أخيرا ! .. أخيرا ! » . وكنت أحملق فيه قلقا ، متوقعا أن ينقض عليه مصير رهيب من الخضرة التى قامت كستار خلفه . ولكن كل شيء كان هادئا ، فيما عدا طائر غريب ، متعدد الالوان ، انطلق من تحت قدميه ، وغاب وسط الاشجار !

وتلاه سمرلى ، فحمل معه بندقيتين ، حتى يكون وتشالينجر مسلحين ، اذا ما أتم عبوره . وتبعتهما أنا ، فحاولت جاهدا أن لا أطل الى جوف الهوة الرهيبة ، وأنا أجتازها . ومد لى سمرلى طرف بندقيته .. وفى اللحظة التالية ، استطعت أن أمسك بيده . أما اللورد جون ، فقد سار على جذع الشجرة .. والحق أنه سار دون أن يعتمد على شيء ! .. ولا بد أن له أعصابا من حديد !

وأصبحنا — أربعتنا — فى العالم المفقود ، الذى عرفه ميبل هوايت . ولاح لنا جميعا أن هذه هى لحظة فوزنا الاكبر . فمنذا الذى كان يستطيع أن يقول انها كانت بداية نكبتنا الكبرى ؟ .. فلأذكر كيف حاقت بنا هذه اللطمة الرهيبة :

كنا قد تحولنا عن الحافة ، وسرنا حوالى خمسين ياردة ، فى الادغال الكثيفة ، حين سمعنا دويا هائلا خلفنا ، فاندفعنا عائدين نحو الجهة التى قدمنا منها ، ونحن نتوقع أسوأ الامور .. فاذا المعبرة قد تلاشت ! .. وعلى البعد السحيق ، عند أسفل الهضبة ، رأيت الشجرة محطمة أربا . وفجأة ، رأينا — على الجانب المواجه لنا ، من الصخرة الهرمية — وجه



جوميز يظهر رويدا . أجل .. كان جوميز ، وعلى وجهه نظرة كراهية ، وقد تولاه الفرح الجنونى الذى يصيب رجلا ثأر لنفسه . وصاح : « لورد روكستون ! .. لورد جون روكستون ! » . فقال زميلنا : « نعم .. ها أنذا » . وسمعت من الجانب الآخر قهقهة ضارية ، وصاح الرجل : « أجل ، ها أنتذا ، أيها الكلب الانجليزى .. ولسوف تبقى حيث أنت . لقد انتظرت ، وانتظرت ، وها قد حانت فرصتى . **لقد وجدتم عناء فى الصعود ، ولكنكم ستجدون عناء أشد فى الهبوط أيها الحمقى .. لقد وقعتم جميعا فى الشرك ! »**

وكان الوجه قد اختفى ، ولكنه سرعان ما ارتفع ثانية ، وصاح : « لقد كدنا نقتلكم بصخرة عند الكهف ، ولكن هذا المصير أفضل .. انه أبطأ ، وأفظع ! .. لسوف يحيل لون عظامك هناك ، ولن يعرف أحد اين أنت ليواريها . ففكر — وأنت تحتضر — فى لوبيز الذى أطلقت عليه النار منذ خمس سنوات .. اننى أخوه ، ولسوف أموت الآن سعيداً ، لاننى انتقمت ! » .. ولوح نحونا بقبضته فى غضب ، ثم ساد الهدوء كل شىء . ولم يكن من شك فى أنه شرع يهبط الصخرة . ولكن .. **قبل أن يبلغ الارض ، كان اللورد جون قد جرى على طول حافة الهضبة ، حتى بلغ بقعة استطاع منها أن يرى غريمه . وانطلقت رصاصة واحدة .. ومع أننا لم نر شيئاً ، الا أننا سمعنا صرخة الهجين وصوت ارتطام جسمه .**

وسرعان ما عاد الينا روكستون ، قائلا فى حسرة : « آسف

اذ زججت بكم جميعا فى هذه المحنـــة . كان من الواجب أن أكون أكثر حيطة ! » . وفيما كنا نبحث ما جرى ، ونحـاول أن نضع خططا جديدة تلائم الظروف الجديدة ، رأينا الشخص الهجين الآخر يجرى كالمخبول فى السهل ، يتبعه خادمنا الزنجى الوفى « زامبو » . وسرعان ما انقض عليه « زامبو » ، وطوق عنقه بيديه . ووقعا معا على الارض . وبعد لحظـة ، نهض الزنجى ، ونظر الى جثة الهجين الملقاة على الارض ، ولوح بيديه نحونا فى اغتباط . ثم شرع يجرى فى اتجاهنا !

ولم نكن نملك ــ فى لحظتنا تلك ــ ســوى أن نجلس بين الادغال فى صبر ، ننتظر ظهور « زامبو » . وسرعان ما رؤى وجهه الاسود الامين يبرز بين الصخور على الجانب الآخر من الهوة .. كان هو رابطتنا الوحيدة بالعالم الخــارجى ، فمـا كان ينبغى أن يهجرنا ، مهما يكن الامر .. وصاح : « لا ، لا ! .. لن أهجركم . مهما يجرى ستجدوننى هنا . ولكنى عاجز عن استبقاء الهنود ، فهم يقولون أن كثيرا جدا من « الكوروبورى » تقيم فى هذا المكان ، وسيعودون الى موطنهم ! » . فصحت به : « احملهم على أن ينتظروا الى غد يا زامبو ، حتى أستطيع أن أبعث معهم برسالتى ! » . فوعد أن يستبقيهم ، وســألنا عما ينبغى أن يفعل بعد ذلك .

وتحت ارشادنا ، أرسل الينا حزمة المؤن ، بمعونة الحبل ، ثم تركنا وهبط ، مؤكدا لنا أنه سيعود فى الصباح . فتناولنا عشاءنا ، واتخذنا معسكرا بقرب حافة الهضبة . ولم نوقـد نارا ، أو نحدث أى صوت لا داعى له ..

ولسوف نقدم غدا على أول مغامرة لنا فى هـــذه الارض الغريبة .. وعندما أستطيع أن أكتب لكم مرة ثانية ــ اذا قدر لى أن أكتب ثانية ــ سأكون قد عرفتها !

تعقيب : كلما فكرت ، ازددت يأسا من موقفنـا . فلست أرى أى أمل محتمل لعــودتنا . أن موقفنا ميئوس منه ..

ميئوس منه !

١٠ ـ « حدثت أعجب الامور ! »

• **لقد** حدثت ـ ولا تزال تحدث لنا باستمرار ـ أعجب الامور وأطرفها . وسأحاول أن أثبتها وهي لا تزال حاضرة في ذاكرتي ، وأنا بعد لا أزال على قيد الحياة لارويها .. ولست أدري ما اذا كان « زامبو » سيتمكن من أخذ هذه الرسائل الى النهر ، أو ما اذا كان سيقدر لرائد جسور ـ يأتي في أعقابنا ـ أن يعثر عليها . ومهما تكن الحال ، فاني أرى أن ما أكتب سيعيش الى الابد ، كمثال للمخاطرة الصادقة !

في صباح اليوم الذي تلا وقوعنا في شرك « جوميز » على الهضبة ، بدأنا صفحة جديدة في حياتنا . على أنها لم تبد صفحة مشرقة جدا . وكان علينا أن ننقل معسكرنا ، اذ كان المكان مليئا بحشرات معينة ، كانت تمتص دمنا . ولكن كان علينا ـ قبل كل شيء ـ أن نرسم خططنا مع الزنجي المخلص ، الذي لم يلبث أن بدا على الجانب الآخر من الهوه ، وقد جلب عددا من علب الكاكاو والبسكويت ، راح يطوح بها الينا . وأمرناه بأن يستبقي ـ من المؤن التي بقيت على الارض ـ أكبر كمية يحتاج اليها لمدة شهرين ، على أن يأخذ الهنود الباقي جزاء عن خدماتهم ، وأجر ما يحملون رسائلنا الى (الامازون) . وبعد ساعات ، رأيناهم بعيدا ، يسيرون في السهل صفا واحدا ، وقد حمل كل منهم حزمة على رأسه ، واتخذوا طريقهم عائدين في الطريق التي جئنا خلالها . ونقل « زامبو » خيمتنا الصغيرة الى قاعدة الهضبة ، ومكث هناك .. وكان رابطتنا الوحيدة بالعالم الذي كان أسفلنا !

وكان علينا ـ بعد ذلك ـ أن نقرر حركاتنا المقبلة . فحملنا معسكرنا الى فسحة صغيرة محوطة بأشجار كثيفة من كل جانب .. **وكانت هناك بضع قطع مسطحة من الصخر ، تتوسط المكان ، وبئر بديعة على مقربة . وهناك ، جلسنا**

مرتاحين ونحن نرسم خططنا الاولى لارتياد هذه البلاد الجديدة .

وكان أول ما عنينا به ، أن نعد قائمة بمقتنياتنا ، حتى نستطيع أن نعرف ماذا كان لدينا لنعتمد عليه .. كنا مزودين بما لا بأس به من طعام ، وبنادق ، وطلقات ، وتبغ ، مما يفى بحاجاتنا لعدة أسابيع . كذلك كانت لدينا بعض أدوات علمية ، بينها منظار كبير لتقريب الابعاد « تليسكوب » ، ومنظار ميدان من نوع جيد .. كل هذه الاشياء جمعت فى الفسحة التى اخترناها وسط الادغال ، ثم قطعنا بسكاكيننا — على سبيل الحيطة المبدئية — عددا من الشجيرات ذات الاشواك ، وضعناها بعضها فوق بعض ، فى دائرة سعتها خمس عشرة ياردة . وكانت هذه معسكرنا فى الوقت الراهن . وقد أطلقنا عليها « **حصن تشالينجر** » !

وكان النهار قد انتصف ، قبل أن نستكمل أمننا ، ثم جلسنا وتابعنا نقاشنا . فأدلى الينا اللورد جون — الذى أسرع بتولى القيادة ، فى ساعة العمل — بآرائه : « **اننا بمأمن ، طالما أن أحدا — انسانا كان أو وحشا — لم يرنا أو يسمعنا . فان متاعبنا تبدأ منذ الوقت الذى يعرفون فيه أننا هنا . وليست ثمة بادرة على أنهم قد اكتشفوا أمرنا بعد . ومن ثم فمن المؤكد أن سياستنا يجب أن تتمثل فى أن نكمن — مدة من الزمن — ونتجسس الارض التى حولنا . ونحن بحاجة الى أن نراقب بعناية جيراننا ، قبل أن ننطلق للتعرف عليهم !** » .

فقلت : « ولكن لا بد لنا من أن نوغل فى المكان ! »

— سنوغل .. ولكن ، بحسن ادراك . فيجب أن لا نسف فى البعد بحيث لا نستطيع العودة الى معسكرنا . وفوق كل شىء ، يجب أن لا نطلق النار من بنادقنا ، ما لم تكن مسألة حياة أو موت !

فقال سمرلى : « ولكنك أطلقت النار بالامس ! » . فأجاب : « حسنا ، لم يكن ثمة بد ! .. على أن الريح كانت قوية ،

وكانت تهب الى الخارج ، فليس من المحتمل أن يكون الصوت قد سرى موغلا فى الهضبة . وبهذه المناسبة ، ماذا سنطلق على هذا المكان ؟.. أعتقد أن من حقنا أن نسميه ! » . فقال تشالينجر : « ليس لدى سوى اسم واحد.. انه يسمى باسم الرجل الذى اكتشفه.. انه : **أرض ميبل هوايت »** ..وأصبحت « أرض ميبل هوايت » ، وبهذا الاسم ذكرت على الخريطة التى أصبحت مهمتى الخاصة .. وبه ستظهر — فيما أعتقد — فى الاطلس ، فى المستقبل

ولقد رأينا بأعيننا أن المكان كان مأهولا بمخلوقات غير معروفة ، كما أن كراسة ميبل هوايت كانت ترينا أن ثمة حيوانات أبشع وأخطر ، قد تظهر لنا . وأوحت الينا العظام البشرية التى رأيناها وسط أشجار الغاب ، بأن من المحتمل أن تكون ثمة كائنات بشرية تعيش هناك كذلك .. مخلوقات بشرية تكره الاغراب وتلقى بهم من عل على أشجار الغاب التى تنمو تحت الهضبة !

وكان من الواضح أن مركزنا محفوف بالخطر ، ولكنه لم يكن من المحتمل أن نقف عند حافة هذا العالم الحافل بالغموض ، بينما كنا جميعا نرغب فى أن نمضى قدما ، وأن نكشف اسرار هذه البلاد الغريبة . ومن ثم سددنا مدخل معسكرنا — بأن حشوناه بعدة أشجار شوكية — وتركنا مدخراتنا فيه . ثم مضينا ببطء وحذر الى جوف المجهول ، متبعين مجرى جدول صغير ، كان ينبع من العين القريبة من معسكرنا . وكان لا بد من أن يستخدم الجدول دائما كدليل فى عودتنا . على أننا لم نكد نبدأ ، حتى صادفنا بوادر على أن ثمة أعاجيب كانت ترتقبنا فعلا . فقد رأينا نباتات وأشجارا انقرضت من العالم السفلى من أمد طويل . ثم دخلنا منطقة كان الجدول يتسع فيها ويكون بركة كبيرة موحلة .

وفجأة ، وقف اللورد جون — الذى كان يسير فى المقدمة —

وقال : « أنظروا الى هذا .. لا بد أنه ـ وحق القديس جورج ـ أثر أب الطيور جميعا ! » . وكان ثمة أثر لاقدام ذات ثلاثة أصابع ، مطبوع على الوحل الطرى أمامنا . **فقد عبر المخلوق ـ أيا كان ـ المستنقع ، ومر ماضيا الى الغابة . ووقفنا جميعا لنفحص آثار الاقدام الهائلة ، فلو صح أن المخلوق كان طائرا ، فان قدمه كانت أكبر بكثير من قدم النعامة ، ومن ثم فلا بد أن ارتفاعه هائل ، اذا قيس بالنعامة !** .. وتلفت اللورد جون حوله بلهفة ، ثم وضع رصاصتين فى بندقيته المخصصة لصيد الفيلة . وقال : « أؤكد لكم أن هذه الآثار حديثة ، فلم تمض بعد عشر دقائق على مرور المخلوق . انظروا كيف أن الماء لا يزال ينساب الى هذا الاثر الغائر . يالله ! انظروا ، هذا أثر قدم كائن أصغر ! » .. وحقا ، كانت هناك آثار أقدام أصغر حجما ـ بالشكل ذاته ـ تجرى الى جوار الآثار الكبيرة !

وصاح الاستاذ سمرلى ، وهو يشير الى ما بدا أنه انطباع ضخم ليد بشرية ذات أصابع خمسة ، ظهر بين العلامات ذات الاصابع الثلاثة : « وما قولكم فى هذا ؟ » . فقال تشالينجر : **« انه مخلوق يسير منتصبا على قدمين كل منهما ذات ثلاثة أصابع ، ويضع ـ من حين الى آخر ـ مخلبيه الاماميين ـ وكل منهما ذو خمسة أصابع ـ على الارض . فهو ليس طائرا ، يا عزيزى روكستون .. ليس طائرا ! »** . فتساءل هذا : « اذن ، فهل هو وحش ؟ »

ـ لا ، ولكنه من الزواحف .. **دينوصاور** ، فما من شىء سواه يترك مثل هذا الاثر . ان آثارا كهذه كانت تحير كثيرا من العلماء قبل تسعين سنة ، ولكن منذا الذى كان يأمل .. يأمل فى أن يرى مشهدا كهذا ؟

وخفتت كلماته حتى صارت همسا .. ووقفنا جميعا بلا حراك ، مبهوتين . وتبعنا آثار الاقدام ، فسرعان ما بلغنا فضاء فسيحا ، كانت فيه خمسة من أغرب المخلوقات التى



قدر لى أن أراها . واختبأنا بين الادغال ، ورحنا نتأملها فى غير عجلة . كان هناك خمسة منها ، كما قلت .. اثنان مكتملا النمو ، وثلاثة صغيرة . وكانت هائلة فى الحجم ، حتى أن الصغار كانت فى ضخامة الافيال ، فى حين أن الكبيرين كانا يفوقان كافة المخلوقات التى رأيناها بكثير . **وكانت لها جلود رمادية داكنة ، محرشفة (ذات قشور وحراشيف) كجلد السحلية ، تلمع حيث كانت أشعة الشمس تقع عليها** . وكانت الخمسة تجلس جميعا ، متوازنة على ذيولها العريضة القوية ، وأقدامها الخلفية الضخمة – الثلاثية الاصابع – بينما راحت بأقدامها الامامية الصغيرة – الخماسية الاصابع – تجذب أغصان الاشجار وتأكلها . ولست أعرف كيف أصور مظهرها لكم على حقيقته بأفضل من أن أقول أنها كانت تبدو كحيوانات ضخمة جدا من نوع « الكنجارو » ، طولها عشرون قدما ، ولها جلود كجلود التماسيح السوداء !

ولست أدرى كم مكثنا بلا حراك ، نحملق فى هذا المنظر العجيب . وهبت ريح قوية نحونا ، وكنا متوارين تماما ، فلم تكن ثمة فرصة لاكتشافنا . ومن وقت الى آخر ، كانت الصغار تلعب حول أبويها ، فتثب وتهبط على الارض . ولاح أنه لم يكن ثمة حد لقوة الوالدين ، اذ أن أحدهما وجد عناء فى بلوغ ثلة من الاوراق كانت نامية فى أعلى شجرة كبيرة ، فوضع ساقيه الاماميتين حول جذعها ، واجتذبها فاقتلعها وألقى بها وكأنها نبات صغير . ولاح أن هذا العمل – كما خيل الى –

يبين صغر عقله ، لاعظم نمو عضلاته فحسب . لان ثقل الشجرة هوى بأكمله على رأسه بقوة ، فجرى نحو الغابة مطلقا صرخات عالية ، وتبعه أليفه وأطفاله الثلاثة الكبيرة الاجسام . ورأينا رؤوسها تتحرك عالية فوق الاشجار ، الى أن تلاشت عن أبصارنا .

ونظرت الى زملائى .. كان اللورد جون واقفا ، شاخصا ببصره وأصبعه متأهبة لاطلاق بندقيته . كان يرغب مشوقا فى قتل واحد من هذه الحيوانات الغريبة ، وحمل رأسه معه الى لندن . ولكنه لم يكن يستطيع ذلك ، لان نجاحنا كان يتوقف على وجودنا متوارين عن سكان الهضبة . وكان الاستاذان فى سعادة وغبطة صامتتين ، وقد أمسك كل منهما بيد الآخر ، فى غمرة انفعالهما ، ووقفا كطفلين أمام أعجوبة ! .. وصاح سمرلى فى تساؤل : « ترى ما الذى سيقولون فى انجلترا عن هذا ؟ » . فقال تشالينجر : **« سأنبئك بما سيقولون فى انجلترا ، بحذافيره ، يا عزيزى سمرلى .. سيقولون انك كذاب ، وغشاش .. تماما كما قلت انت وغيرك عنى ! »**

ـ رغم الصور الفوتوغرافية ؟

ـ مزيفة يا سمرلى ! مزيفة أسوأ تزييف !

ـ ورغم وجود الحيوانات ذاتها ؟

ـ آه ، هذه هى فلنحاول الحصول عليها . وقد ينطلق مالون وزملاؤه من الصحفيين القذرين بامتداحنا .. **اليوم الثامن والعشرون من أغسطس .. اليوم الذى رأينا فيه خمسة من حيوان « الايجوانودون » فى واد بأرض ميبل هوايت ! .. أثبته فى مذكراتك اليومية يا صديقى الشاب ، وارسله الى رئيسك !**

قال اللورد جون : « وتأهب لان تركل بعيدا عن عملك ، جزاء لك .. ان الامور تبدو مغايرة ـ فى لندن ـ لما هى عليه هنا ، بعض الشىء ، يا زميلى الفتى ! .. ماذا قلت عن

نوع هذه الحيوانات ؟ » . فقال سمرلى : « **ايجوانودون ! .. ولسوف تجد آثار أقدامها فى كل أرجاء جنوب انجلترا . فان المكان بأسره كان حافلا بها ، عندما كانت ثمة وفرة من الاشجار الخضراء الكبيرة ، لتمدها بالقوت** . ولقد تغيرت الاحوال هناك ، وماتت الحيوانات . أما هنا ، فيبدو أن الاحوال لم تتغير ، وان الحيوانات ظلت تعيش » . فقال اللورد جون : « اذا قدر لنا أن نخرج من هذا المكان أحياء ، فلا بد لى من أن أصطحب رأس حيوان منها ! »

وكان ثمة شعور بخطر غامض بدا انه يحوم حولنا طيلة هذا الوقت . ومن الصحيح أن هذه المخلوقات التى رأيناها ، ما كانت لتؤذى أحدا ، ولكن .. من أدرانا بوجود حيوانات أخرى قد تؤذينا ، فى هذا العالم الحافل بالعجائب ؟ .. ومع أننى كنت ألم بقليل من تاريخ الحيوان فى الماضى البعيد ، الا اننى أذكر اننى كنت قد قرأت كتابا ورد فيه ذكر حيوانات كانت خليقة بأن تعيش على أسودنا ونمورنا ، كما يعيش القط على الجرذان . **فماذا لو قدر أن تكون هذه الحيوانات موجودة — هى الاخرى — فى غابات أرض ميبل هوايت ؟**

ورحنا نجوس خلال الغابات ببطء .. لان اللورد جون — من ناحية — كان يقوم بدور الكشاف قبل أن يدعنا نتقدم .. ومن ناحية أخرى لان واحدا من أستاذينا العالمين ، كان يجثو بين خطوة وأخرى ، وهو يصيح معجبا ، أمام زهرة أو حشرة تبين له نوعا جديدا من الزهور أو الحشرات . ولعلنا كنا قد سرنا ميلين أو ثلاثة — اجمالا — ملازمين يمين الجدول المائى ، حين سمعنا غمغمة منخفضة غريبة ، وصوت صفير ، مما ملأ الجو بجلبة لاح انها كانت تنبعث من بقعة أمامنا مباشرة . فرفع اللورد جون يده اشارة لنا كى نقف ، وشق طريقه بخفة الى بعض صخور كانت امامنا . ورأيناه يطل من فوقها ، ثم يصدر اشارة نمت عن دهشة . ولوح لنا

ـ أخيرا ـ كى نأتى فى حذر . واشعرتنى حركاته بأن شيئا عجيبا ـ ولكنه خطر ـ كان يكمن أمامنا .. وأطللنا من فوق الصخور ـ ونحن نتسلل الى جواره ـ فاذا المكان الذى أبصرناه حفرة أشبه بوعاء كبير ، وفى قاعها ـ على بضع مئات الياردات من حيث كنا نكمن ـ كانت ثمة برك من ماء أخضر قـــذر !

وكان المكان غريبا فى حد ذاته ، ولكن المخلوقات التى كانت تعيش فيه جعلتـــه يبدو رهيبا . كانت ثمة مئـــات من « البتيروداكتايل » على مرمى البصر . وكانت المنطقة المحيطة بحافة الماء ـ فى قاع المنخفض ـ حافلة بصغار هـذا الطائر ، وبأمهات بشعة المنظر ترقد على بيضها الذى بدا مصـفرا ، وكأنه من الجلد . وكانت تملأ الجو رائحة كريهة غثيث لهـا نفوسنا ، كما انبعثت من المنخفض ضجة تصم الآن . وفوق المنخفض بقليل ، كانت الذكور الفظيعة المنظـــر ، تقف بلا حراك اطلاقا ، اللهم الا حركة عيونها الحمراء .. كان كل واحد منها يقف وحيدا على حجر ، وقد بدا طويلا ، رماديا ، نحيلا ، أقرب الى النماذج الميتة المجففة منه الى المخلوقات الحية حقا .. لم يكن فى المنخفض أمامنا أقل من ألف من هذه المخلوقات القذرة ، بين كبير وصغير !

وكان أستاذانا العالمان على استعداد لان يقضيا اليـوم كله عن طيب خاطر ، لفرط تأثرهما بهذه الفرصة المتاحة لدراسة الحياة فى عصر سابق على التاريخ . وراحا يشيران الى الاسماك والى الطيور الميتة الملقاة حول المكان ، بين الصـخور ، كأدلة على كنه طعام هذه المخلوقات . وسمعت كلا منهما يهنىء الآخر وقد وجدا ايضاحا للظاهرة التى كانت تبدو فى وجود عظـام هذه العمالقة الطائرة بكميات كبيرة فى بعض المناطق .. فقـد رأينا الآن انها كطيور « البنجوين » تعيش فى جماعات كبيرة .

على أن تشالينجر ما لبث فى النهـــاية أن دفع رأسه فوق



الصخور - بينما كان يشرح أمرا لسمرلي - فكاد يجلب الدمار علينا جميعا . ففى لحظة واحدة ، أطلق أقرب الطيور الينا صفيرا صارخا ، وفتح جناحيه الجلديين - اللذين كان طول كل منهما عشرين قدما - وهو ينطلق فى الهواء . وتجمعت الاناث والصغار معا بجوار الماء ، بينما ارتفع الذكور جميعا - واحدا أثر الآخر - وراحت تحلق فى الفضاء . وكان منظرا بديعا ، أن نرى مائة - على الاقل - من الكائنات التى لها هذا الحجم الهائل والمنظر البشع ، تحلق فوقنا . **ولكننا سرعان ما تحققنا من خطورته . فقد أخذت الطيور الكبيرة تحوم فى دائرة شاسعة - فى بادىء الامر - وكأنها تتأكد من كنه الخطر . ثم ازداد الطيران انخفاضا ، والدائرة ضيقا . الى أن كادت الطيور تمسنا بأجنحتها الجلدية الكبيرة ، التى كانت تحدث صوتا جعلنى أفكر فى مطار (هندون) فى يوم من أيام السباق .**

وصاح اللورد جون ، ممسكا ببندقيته : « اسرعوا الى الغابة ، واستمروا معا ، فان الحيوانات الرهيبة تعتزم مهاجمتنا ! » . وفى اللحظة التى حاولنا فيها العودة الى الغابة ، أطبقت علينا الدائرة ، فأطحنا فى الطيور بمؤخرة بنادقنا ، ولكن ضرباتنا لم تكن تقع على شىء صلب . ثم - وفجأة - امتد نحونا عنق طويل ، واندفع نحونا منقار طويل مفترس . وتبعه آخر ، وثالث .. وأطلق سمرلى صرخة ، ووضع يده على وجهه الذى كان الدم يسيل منه . وشعرت بركلة فى مؤخر عنقى ، فدار رأسى بالصدمة . ووقع تشالينجر ، فلما

حاولت أن أرفعه ، هوجمت من الخلف مرة أخرى ، ووقعت فوقه . وفى اللحظة ذاتها ، سمعت دوى انطـلاق بندقية اللورد جون المخصصة لصيد الافيال ، واذ تطلعت رأيت أحد الطيور يناضل ــ بجناح كسير ــ على الارض ، وهو يصـيح ويتلفت حوله بمنقار مفتوح عن آخره ، وعينين فى لون الدم . وكان زملاؤه قد حلقوا عاليا ، عندما انبعث الصوت المفاجىء ، وراحوا يحومون فوق رؤوسنا .

وصرخ اللورد جون : « الآن ، اجروا لتنقذوا حياتكم ! » . فأسرعنا لنبلغ أشجار الغابة ، ولكن العدو انقض علينا ثانية . وأوقع سمرلى ، ولكننا انتشلناه واندفعنا بين الجـذوع . وما أن صرنا هناك ، حتى غدونا بمأمن ، اذ لم يكن ثمة فراغ تحت الاشجار للأجنحة الهائلة . وبينما كنا نجر أنفسنا عائدين ، مهزومين مثخنين بالجراح ، رأيناها تحلق ــ مدة طويلة ــ على ارتفاع شاهق ، فى كبد السماء العميقة الزرقة ، فوق رؤوسـنا ، وعيونها لا تزال تتعقبنا ــ ولا شك ــ فى سعينا . على أنها لم تلبث أن نكصت عن المطاردة ــ فى النهاية ــ حين بلغنا جوف الغابة ، فلم نعد نراها .

ترى ما الذى جرى لابطالنا الاربعة ؟ .. وأية أحـداث ترتقبهم فى هذا العالم المجهول ؟ .. هذا ما سوف تقرأه فى الحلقة القادمة من هذه القصة المشوقة

والآن .. جاء دور العملاق :

ليو تولستوى

لقد قدمت لك "مطبوعات كتابى" من قبل ، شوامخ إنتاج جبابرة الأدب العالمى ..

قدمت لك : "سوفوكليس" و"هوميروس" من اليونان ، و"روسو" و"بلزاك" و"فلوبير" ، و"موباسان" و"هنرى بوردو" من فرنسا ، و"ديكنز" و"كولينز" و"موم" و"شارلوت برونتى" من انجلترا ، و"بوكاشيو" و"مورافيا" من ايطاليا ، و"شتاينبك" من أمريكا ، و"زفايج" من النمسا ، و"والتارى" من فنلندا .. و"طاغور" من الهند ، و"لوـ شون" من الصين ، و"جوركى" من روسيا ..



وفى العدد القادم من مطبوعات كتابى ، تلتقى بالعملاق الذى طالما ارتقبته :

ليو تولستوى

مؤلف "انا كارنينا" و"الحرب والسلام"

أما اسم هذه التحفة ، فلن نحرمك لذة الارتقاب والحدس ، وسندع لك فرصة التكهن به !

مطبوعات كتابى

يصدرها حلمى مراد

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية